روايات تاريخ الإسلام

الأسير

جرجي زيدان

دار الهلال

روايات تاريخ الإسلام

الأسير

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. محمد مصطفى هدارة

١٩٨٥

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال
أسسها جورجي زيدان
سنة ١٨٩٢
* * *
رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

الغلاف بريشة الفنان
جمال كامل

رقم الايداع : ٢٧٠٨ - ٨٥
الترقيم الدولى: ٩٧٧ - ١١٨ - ١٥٣٠ X

مقدمة

● تأثرت الرواية العربية منذ نشأتها فى مستهل النهضة الحديثة بالرواية الأوربية وكان للمترجمين من أدباء الشام ـ على وجه الخصوص ـ جهد لاينكر فى هذا المجال ، ونذكر منهم مارون النقاش ونجيب حداد ، ونقولا رزق الله ، وطانيوس عبده ، وكان لهؤلاء ولغيرهم إسهام عظيم فى الحركة الأدبية المسرحية والقصصية ، بل ربما انفرد نجيب حداد باهتمامه بترجمة القصص التاريخى وعنايته بقصص سير والترسكوت رائد القصة التاريخية ، لا فى الأدب الانجليزى وحده ، بل فى الأدب العالمى . ولهذا يصعب على أى كاتب فى الرواية التاريخية أن ينجو من تأثيره ، خاصة إذا علمنا أن السير والترسكوت كان من الموجة الرومانسية ، وأن قصصه كما يصفها الباحثون ليست إلا روايات رومانسية تستوحى أحداثها وشخصياتها من التاريخ والتراث الشعبى فى إنجلترا واسكتلنده . وقد نجح سكوت فى إعادة تصوير الأحداث التاريخية من خلال وصفه الدقيق ومهارته فى رسم الشخصيات وتحريكها ، وكان من الكتاب القلائل الذين استطاعوا إيجاد علاقة حميمة بين الشخصية والبيئة والظروف المحيطة بها . وكانت روايته التاريخية (ويفرلى) التى أصدرها فى عام ١٨١٤ صورة حية لثورة اليعاقبة المشهورة فى تاريخ اسكتلنده ـ مسقط رأسه ـ عام ١٧٤٥ ، وبداية لسلسلة رواياته التاريخية التى استهدفت تاريخ اسكتلنده فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ثم فترة العصور الوسطى فى كل من انجلترا وفرنسا .

وما من شك عندى فى تأثر چورچى زيدان بروايات سكوت وألكسندر ديماس الأب أيضا (١٨٠٢ / ١٨٧٠) فزيدان كاتب واسع الثقافة ، يجيد لغات أجنبية متعددة ، ولابد أنه اتصل بطريق مباشر بروايات سكوت وديماس الكبير ، أو عن طريق ما ترجم لهما فى فترة ازدهار حركة الترجمة فى القرن الماضى . وألكسندر ديماس الأب كان من الموجة الرومانسية أيضا ، ولهذا اتسمت قصصه التاريخية المشهورة مثل (الفرسان الثلاثة) و (الكونت مونت كريستو) و (الرجل ذو القناع الحديدى) بالمغامرات المثيرة والحس العاطفى من خلال تصويرها الأحداث التاريخية ، ولهذا كله يصعب على الباحث فى روايات چورچى زيدان التاريخية أن ينحى جانبا هذين العنصرين الرئيسيين المؤثرين فى فنه الروائى ، الأول : تأثره بسكوت وديماس والثانى : انتماؤه بحكم هذا التأثير الى التيار الرومانسى .

إن چورچى زيدان كاتب متعدد المواهب ، وباحث أصيل فى التاريخ والأدب ، ولكنه يتميز بكتابة الرواية التاريخية بحيث يتسنم مكانة الريادة فيها فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، فقد أصدر اثنتين وعشرين رواية مابين عامى ١٨٩١ و ١٩١٤ تسجل أحداثا من تاريخ العرب والمسلمين منذ عصر ماقبل الاسلام

حتى العصر الحديث ، وقد حدد مفهوم الرواية التاريخية فى المقدمة التى صدَّر بها فى رواية الحجاج بن يوسف ، فكشف عن هدف تعليمى ، إذ أن الرواية فى رأيه ترغب الناس فى مطالعة التاريخ وتصور أحداثه ولاأرى بأسا بهذا الهدف التعليمى ـ بعكس ماذهب إليه بعض الباحثين الذين أنكروا على زيدان هذا الهدف ـ بشرط ألا يكون غاية تهدر من أجل تحقيقها حرفية الرواية وأداؤها الفنى .

ويصف چورچى زيدان منهجه الروائى فيقول (تبقى الحوادث التاريخية على حالها ، وتدمج فى مجالها قصة غرامية تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها ، فيصبح الاعتماد على مايجىء فى الروايات من حوادث التاريخ ، مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ ، من حيث الزمان والمكان والأشخاص ، إلا ماتقتضيه القصة من التوسع فى الوصف مما لاتأثير له فى الحقيقة ، بل هو يزيدها بيانا ووضوحا بما يتخللها من وصف العادات والأخلاق .

وواضح من هذا القول أن چورچى زيدان لايريد تشويه التاريخ أو التغيير بأية صورة من الصور فى أحداثه أو شخصياته أو زمانه أو مكانه ، أما مايقتضيه البناء الروائى من إضافة فى الأحداث أو الشخصيات ، فيعده چورچى زيدان إيضاحا وبيانا كذلك يعنى عناية خاصة بوصف العادات والأخلاق ، وهى أمور لايحرص عليها المؤرخ ، ومن هنا وجد

زيدان نفسه مطالبا بإضافتها فى سبيل تفسير التاريخ حدثا وزمانا ومكانا .

ورواية (أسير المتمهدى) نموذج كامل لمنهج چورچى زيدان فى الرواية التاريخية ، وقد حرص على بيان مكانها وزمانها فقال إنها تتضمن وصف مصر والسودان فى الربع الأخير من القرن الماضى ودسائس الدول الأجنبية التى أدت الى الثورة العرابية فى مصر ، والثورة المهدية فى السودان ، والاحتلال البريطانى لوادى النيل .

فإذا تأملنا أحداث الرواية فى ضوء الواقع التاريخى وجدنا الكاتب يحدد عام ١٨٧٨ زمنا لبداية أحداثها ، والقاهرة مكانا لبداية هذه الأحداث ، ويتحكم فيه الحس التاريخى فيعرض فى تمهيد يسبق الأحداث أحوال القاهرة العمرانية التى ازدهرت إبان حكم أسرة محمد على ووصلت الى قمة الازدهار فى عهد الخديو إسماعيل ، ولكنها كانت تضم قسمين : الأول أوربى فى نمط شوارعه ومتنزهاته ، والآخر شرقى قديم بحاراته ودروبه ، كما كانت تجتمع فيها أجناس مختلفة من القوقازى الأبيض الناصع ، الى الزنجى الأسود الحالك ، ويظل الحس التاريخى مسيطرا على الكاتب من خلال سرده للأحداث ، فهو يفصل القول فى أثاث دار الأوبرا (السلالم كانت مكسوة ببساط حريرى ، والجدران قد زينت بالمرايا المذهبة الجوانب الكبيرة الحجم . . فى سقفها ثريا (نجفة) بها مئات من الشموع فضلا عن

مصابيح الأنوار الغازية ، وقد فرشت الشرفات (الألواج) كلها وفي مقدمتها الشرفة الخاصة بالخديو بأحسن الأثاث ، وزينت جدرانها بالمرايا الجميلة المذهبة) ولاينسى ان يوضح في موضع آخر وضع الحجاب على نوافذ الشرفات (الالواج) ووجود نظام العبيد في ذلك التاريخ ، وشيوع نظام (الدلالات) اللائى يبعن المنسوجات والمصوغات للسيدات فى بيوت الأعيان وأرباب المناصب ، وكن يجدن - بحكم عملهن - التركية والفرنسية ، ونراه يعرض للأحوال السياسية والاقتصادية بتفصيلات لاتتحملها طبيعة الفن الروائى ، فمن ذلك قوله (أفندينا يحب المشروعات العلمية والأدبية ويشجعها كثيرا ، وطالما كافأ رجال العلم والأدب فمنحهم الأموال الطائلة والرتب والنياشين ، أما الجرائد فإن دوائر الحكومة بفضل توجيهه تشترك فى عدة نسخ من كل منها) ونراه يدس معلومات تاريخية فى ثنايا الحوار فيحدثنا عن اللجنة الدولية الخاصة بمراقبة مالية البلاد ، ودور المراقبين فى مراجعة الحسابات وغلهما يد الخديو فى الانفاق ، كذلك يشير الي الوزارة التى ادخلت فيها الدول الأجنبية وزيرين أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى ، والى الحكومة الشورية التي قيدت أعمال الخديو بعد أن كان الحاكم المطلق .

ويتتبع جورجى زيدان ثورة الجنود المصريين وحادث عابدين وأحداث الثورة العرابية بتفصيلات دقيقة ، ويفيض

أيضا في الحديث عن مذبحة الاسكندرية والتدخل البريطاني ومقاومة العرابيين التى انتهت بالاحتلال البريطانى لمصر . ومن التفصيلات الدقيقة التى يذكرها أن السكك الحديدية فى مصر كانت بعد ضرب الاسكندرية لاتسير قطاراتها إلا بأمر العرابيين .

وينطلق چورچى زيدان بعد ذلك مع أحداث التاريخ ليحكى لنا أخبار الحملة على السودان المعروفة بحملة هيكس ونراه يبين اسبابها بطريقة تقريرية جافة حين يقول « إن الاقطار السودانية مابرحت منذ افتتحها محمد على باشا تحت كنف الحكومة المصرية ، ينتفع من تجارتها بالعاج ، والريش ، والصمغ ، وغير ذلك ، فظهر فيها فى أواسط سنة ١٨٨١ رجل نوبى يقال له محمد أحمد وادعى أنه هو المهدى المنتظر ، فالتفت حوله عصابة قوية ، عرفوا بالدروايش ، وجاهروا بعصيان الحكومة ، فحاولت قمع ثورتهم مرارا فلم تفلح ، واستفحل أمرهم حتى استولوا على مديرية كردفان واحتلوا الأبيض عاصمتها ، فشق ذلك على الحكومة المصرية ، واعتبرته الحكومة الانجليزية أمرا مؤذنا باضطراب الأمن فى البلاد ..الخ . وزيدان فى مثل هذه المواضع ينسى تماما أنه روائى فيتعلق بالتاريخ وحده مسترسلا ، وهو يتابع جيش المهدى فيصفه وصفا دقيقا على جانب كبير من الأهمية التاريخية ، ولكنه بعيد

تماما عن نسيج الرواية وأحداثها « وبعد قليل رأى أفواجا من الدراويش تسير مهرولة ، ويتقدمها أربعة يحمل كل اثنين منهم آنية كبيرة من النحاس ، شد عليها رق من الجلد ، ومعهما ثالث ينقر عليها نقرات تصم الآذان ، ولكن الدراويش يطربون لها ، ووراء هذه الموسيقى خيالة على أفراس بسرج عربية ، وعليهم ملابس الدراويش المؤلفة من جبة من نسيج السودان يقال لها (مرقعة) لأنها مرقعة بقطع مختلفة الألوان ، وعلى رءوسهم عمائم بيضاء ملفوفة حول القش الأبيض أو القطن ، تسترسل من كل منها ذؤابة طويلة تتولى على الصدر ، وحول وسطهم مناطق من نسيج الدمور أو القش يقال لها فى لغتهم (كربة) وهم حفاة ، وقليل منهم يحتذون نعالا تشدها على القدمين سيور من الجلد ، وحول اعناقهم سبحات مدلاة على صدورهم .. الخ » كذلك يهتم زيدان بإبراز منشور تاريخى أصدره المهدى يستغرق نحو ثلاث صفحات ، لا صلة بينه وبين أحداث الرواية ، ويعد قواد المهدى فى حصار الخرطوم رغبة فى التسجيل التاريخى ، ويدقق فى تفصيلات هذا الحصار حتى تم سقوط الخرطوم ومقتل غردون .

وقد يتصل بالنزعة التاريخية التى تطغى أحيانا على الفن الروائى عند چورچى زيدان اهتمامه الشديد بوصف الأماكن والأشخاص يقول « كان فى شارع العباسية بالقاهرة فى سنة ١٨٧٨ منزل مبنى على الطراز الحديث كسائر المنازل الحديثة

هناك ، ولكنه كان من أقلها فخامة واتساعا ، وكانت حديقته بسيطة ، تشرف على الشارع الحديث المظلل بأشجار اللبخ المغروسة على جانبيه ، وكان هذا المنزل يشتمل على عدة غرف مفروشة بالأثاث البسيط ، لم يكن هذا الأثاث بالثمين ، ولكنه كان غاية في النظافة والترتيب . ومن تلك الغرف غرفة بها خزانتان تشتملان على كتب بلغات مختلفة ، وفي أحد أركانها منضدة عليها بعض الكتب ، وبجانبها رجل في العقد الخامس من عمره ، يرتدى الزى الافرنجي ، وليس على رأسه شيء .. كان الرجل قمحي اللون ، أسود الشعر ، واسع الجبهة ، حليق اللحية ، في شعره شيب ، وفي وجهه تجعد ، وفي عينيه ذكاء ، وفي مظهره عبوس ، كأنه ناقم على الدهر .. الخ »

ومن ذلك أيضا إسهابه في وصف حي العباسية وشارع شبرا بالقاهرة ، وميدان المنشية بالاسكندرية .

ولانعدم وجود ميول ذاتية خاصة في تفسير چورچي زيدان للأحداث ، فمن الواضح على سبيل المثال عدم تأييده للثورة العرابية ، يبين لنا ذلك في تعبيره (مخالب الثورة العرابية) وذكره أن الجنود العرابيين كانوا يتحرشون بالمارة من الغرباء ويوقعون بهم كل سوء ، ودفاعه المجيد عن الخديو في طلبه مساعدة الدول الأجنبية ضد عرابي . وموقف زيدان من الثورة العرابية ليس شاذا بل هو موقف بعض الوطنيين الذين رأوا في سياسة عرابي بعدا عن الحكمة وإهدارا لمصلحة البلاد ، ومن

هؤلاء الشاعر احمد شوقى .

أما الفتنة الطائفية التى حدثت فى دمشق سنة ١٨٦٠ إبان الحكم العثمانى فقد وصفها زيدان بالحادثة المشئومة التى « قام فيها فتيان المسلمين على النصارى بمذبحة هائلة دارت فيها الدائرة على النصارى » ولايخفى مافى هذا الوصف من مشاعر ذاتية ، وقد أتى على وصف تفصيلى لها ووصف (حوادث لبنان المفجعة التى ذبح فيها نصارى حاصبيا ودير القمر وغيرهم ذبح الأغنام بعلم رجال الحكومة) على حد قوله : ويفصح زيدان عن مشاعره الذاتية أيضا حين يقول عن هواء لبنان (ليس له مثيل فى العالم) وقد يسوق چورچى زيدان بعض الأخبار الطريفة والمعلومات النادرة من خلال اهتمامه بالسرد التفصيلى ؛ فنحن نعلم منه انتشار تعلم اللغات الأجنبية فى الطبقة العالية من المجتمع ـ وخاصة الفرنسية ـ وإثيار التحدث بها ، والزعم بأن اللغة العربية لغة (عامة الناس وأسافل السوقه) . وقد بلغ تقليد الافرنج حد الاضراب عن بعض الأمور الشرعية كان كالامتناع عن دفع الصداق للفتاة عند الزواج ، وأخذ الشاب الصداق لنفسه (الدوطة) من الفتاة .

ومن الطريف الذى نعلمه من الرواية أن إقبال الشباب فى ذلك التاريخ كان شديدا على دراسة القانون والطب ، وأن امتحان الشهادة الثانوية الشفوى كان يحضره الخديو والوزراء والأعيان ، وأن اختيار المبعوثين للدراسة فى الخارج ، كان يتم

فى أثناء حضور هذا الامتحان .

ومن ملاحظاته الطريفة مايذكره عن إخوتنا فى السودان وحبهم لطعام (الويكة) وهى فتات ورق البامياء الجاف يوضع فى ماء مغلى ويحرك حتى يصير مزيجا لزجا ، فإذا غمسوا اللقيمات فيه ، أخذوا يلحسون أصابعهم بعد كل لقمة للدلالة على شغفهم بهذا اللون من الطعام .

كذلك يشير فى بعض المواقف الى بدء انتشار (التنويم المغناطيسى) واستخدامه فى استكناة بعض المعميات والأسرار .

وإذا نحينا جانبا هذه الجوانب الثانوية بالنسبة للعمل الروائى ، ونظرنا فى النص نفسه من حيث قيمته الفنية ، سنجد أن چورچى زيدان استعان بشخصيات تاريخية حقيقية هم : الخديو محمد توفيق ، أحمد عرابى ، محمد أحمد المهدى ، هيكس باشا ، غوردون باشا ، الأمير عبد الحليم ، وهؤلاء هم الذين كانوا يتحركون داخل الاطار التاريخى الحقيقى ، أما الشخصيات المتخيلة فهم : إبراهيم الموظف بالقنصلية الانجليزية بالقاهرة ، وسعدى زوجته ، وابنهما الكابتن شفيق وهو البطل الرئيسى أو أسير المتمهدى ، وفدوى البطلة

الرئيسية التى ارتبطت مع شفيق بقصة حب سايرت الأحداث التاريخية ، وأبوها الباشا ، وعزيز وهو واحد من أبناء الطبقة العالية الغنية المتأثرة بالمدنية الغربية ، ثم بخيت خادم فدوى ، وأحمد خادم شفيق ، وكلاهما له دور مهم في تتابع الأحداث والتأثير فى مجراها

ونجد شخصية البطل الرئيسى رومانسية الى أبعد حد ، فقد شاء لها الكاتب أن يجعلها مثالية وأن ينسب اليها الشهامة والحياء والتمسك بالتقاليد ، ورقة الشعور ، والوفاء ، وكل ما يمكن أن نتخيله من صفات نبيلة ، حتى اللغات الأجنبية التى يجيدها ، يشذ عن طبقته فلا يرتاح للحديث بها ، بل يتمسك بالعربية ، بل هو كامل حتى فى قوته البدنية ويستطيع أن يتغلب على خصمه بسهولة ، ومع ذلك نراه شديد السذاجة حتى ليطلع (عزيزا) على أسراره الخاصة وهو يعلم خبثه ومكره ، ويقع صيدا سهلا فى شباك مؤامرات عزيز لأفتقاده بعد النظر وصحة الفكر .

وكذلك الشأن بالنسبة لفدوى فهى شخصية شديدة السلبية ، ويتدخل القدر وحده فى تحريك هذه الشخصيات جميعا لتسير الأحداث الى نهايتها سيرا غير طبيعى ، بل تلعب المصادفات فيه دورا كبيرا ، وكان تدبير اللقاء الأخير الذى جمع شمل

الأسرة المبدد مجموعة مصادفات مثيرة شديدة الاصطناع .

وعلى الرغم من ذلك كله نجح چورچى زيدان فى إيجاد عنصر التشويق والاثارة منذ بداية الرواية بالتركيز على سر الصندوق الذى كان يحتفظ به والد شفيق ، وكان هذا السر مرتبطا بجنسية البطل وديانته ومكانته الاجتماعية ، وكلها كانت مواطن شك فى أثناء تتابع الأحداث ، وهذه الجوانب كانت فى الفترة التاريخية التى حدثت فيها الوقائع ، على جانب كبير من الأهمية ، والتأثير فى إمكان زواج شفيق من فدوى ، الذى بدا مستحيلا مع تتابع أحداث الرواية ، وكان تدخل عزيز - الشخصية الشريرة فى الرواية - تأكيدا لهذه الاستحالة لقدرته على الايقاع بالبطل مرة بعد مرة .

ولم يكن غريبا أن يجعل چورچى زيدان البطل (شفيق) ضابطا فى جيش الاحتلال البريطانى ، ثم مقاتلا فى حملة هيكس الانجليزية على السودان ، برغم كل العناصر المثالية التى أضافها إليه ، ولم يكن غريبا أيضا أن يجعل الشخصية الشريرة (عزيز) ضابطا فى الجيش العرابى برغم كل العناصر المسيئة التى ألصقها به ، ووجه عدم الغرابة موقف زيدان من الثورة العرابية الذى وضحته من قبل ، ودفاعه عن استدعاء الخديو للقوات الأجنبية لحماية الأمن والنظام .

ويتدخل زيدان من حين لآخر بشخصه للتفسير والتعقيب كما فى قوله) إلا أن الرجل أكثر صبرا على مثل ذلك من النساء) أو قوله (لعلمه أن شفيق أشد منه بطشا) كذلك يستخدم نبرة حماسية عالية تصلح للمشاهد المسرحية كما فى قوله على لسان البطلة . « أنقذنى من هذا الخائن بحرمة الشرف والشهامة » وقوله بعد ذلك . « فناداه شفيق بقلب لايهاب الموت قائلا إلى أين أيها النذل الجبان »

ونرى مشهدا مسرحيا متكاملا حين اراد « عزيز » اختطاف « فدوى » ومعه مجموعة من الرعاع ، فقاومهم بخيت « خادمها » وكانت فدوى قد اضطربت لهذه الضوضاء وإطلاق الرصاص ، فتناولت كأس الجرعة السامة ويداها ترتعشان وفرائصها ترتعد ، ثم أخرجت تذكار شفيق وجعلت تقبله وتذرف العبرات قائلة : على الدنيا ومن فيها السلام ، الوداع ، الوداع أيها الحبيب ، إذا كنت لاتزال من أهل الحياة ، واللقاء اللقاء ، إذا كنت قد انتقلت الى أهل البقاء . ومن قبيل التدخل فى الأحداث استخدام الشعر فى ثمانية مواضع للتفسير والتعقيب ، بما يفسد بناء الرواية - يقول - وعاد الى عزيز فى عربته وقلبه يخفق وركبتاه ترتجفان ولسان حاله يقول :

ودعتــه وبودى لــو يودعنى
صفو الحياة وأنى لا أودعه

ومن تعقيباته بالشعر أيضا قوله :

أى شىء يكون أقبح مرأى
من صديق يكون ذا وجهين
من ورائى يكون مثل عدوٍ
وهــو إذ نلتقى يقبلُ عينى

ويقول · فهمت فدوى بأن تجيبه فخنقتها العبرات ، وكأنها المقصودة بقول الشاعر :

ترنو اليه بعين الظبى مجُهْشَة
وتمسح الطلَّ فوق الخد بالعنم

ويقول : وكأنه المقصود بقول من قال :

تريدين قتلى لاتريدين غيــره
ولست أرى قصدا سواك أريد

ويقول : فتبادلا الكلمات بالعيون الناطقة التى غناها الشاعر بقوله :

تشير لنا عما تقول بطـرْفها
وأُمىِ اليهـا بَاللُّحــاظ فتفهم
حواجبنا تقضى الحوائج بيننا
فنحن سكوت والهوى يتكلم

ويقول : ولسان حالهم يقول ·

من عاش بعد عدوه
يوما فقد نال المنى

ويقول في أسلوب مسرحي قال شفيق . إني لم آت الى هذه الديار إلا للقتال

ومن كانت منيَّتُه بأرض
فليس يموت في أرض سواها

ويقول : لاتخافي ياسيدتي وطيبي نفسا ، فلعل وقت الفرج قد حان ، وقد قيل :

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فُرجت وكنت أظنها لاتُفْرَج

وكل هذه المواضع تبين بوضوح عدم حاجة الموقف الى الشعر ، وأنه مقحم كنوع من الحيلة ، وليس بوصفه جزءا من نسيج الأحداث .

وأسلوب زيدان يمتاز بالسلاسة في معظمه ، والبعد عن التكلف إلا في بعض المواضع التي كانت لاتزال تحمل آثار السجع في النثر الذي كان سائدا ، كما في قوله « فلما وقعت العين على العين ترامت السهام من الجانبين » ولكنها مواضع قليلة على أية حال .

وما من شك في أن نظرتنا النقدية المعاصرة تظلم - الى حد غير قليل - روايات چورچي زيدان التاريخية التي توشك أن

تستكمل قرنا من عمرها ، وكانت بلاشك ـ فتحا فى عصرها ، وينبغى لنا أن نضع فى اعتبارنا عند تقديمها ـ حالة النثر فى ذلك العصر وإثقاله بتكلف السجع وزخارف البديع ، وازدهار الحركة المسرحية وتأثيرها العنيف على الحياة الأدبية بصفة عامة ، وتغلب النزعة الرومانسية التى تصور قصص الحب الدامية المليئة بالفواجع والتأوهات ، والصراع بين الخير والشر ، والحب والكراهية ، والحق والباطل ، وغير ذلك من أنواع التضاد ، ثم لاننسى الهدف التعليمي الذى قصد إليه زيدان قصدا فى رواياته ليطلع الناس على صفحات تاريخهم من خلال قصة حب تشدهم وتشوقهم بما فيها من اسرار مبهمة وأحداث ساخنة ، وكل ذلك قد حققه چورچى زيدان فى رواياته ، وخاصة فى (أسير المتمهدى) التى تعرض فيها لأخطر فترات تاريخ مصر والسودان الحديث ، الذى دفعت فيه الثورة العرابية والثورة المهدية والاحتلال البريطانى لمصر والسودان ، وكان فترة تغير خطير من الحكم الاستبعدادى الى حكم الشورى ، ومن حكم الجنسيات الأجنبية الى حكم المصريين أنفسهم ، وقد نجح زيدان فى تصوير ذلك كله وفى فتح نوافذ التاريخ لنشهد من خلفها صورة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى بلادنا فى الفترة التى أرخ لها برواياته .

د . محمد مصطفى هدارة

أسير المتمهدى

رواية تاريخية

تتضمن وصف مصر والسودان فى الربع الاخير من القرن الماضى، ودسائس الدول الاجنبية التى ادت الى الثورة العرابية فى مصر والثورة المهدية فى السودان، والاحتلال البريطانى لوادى النيل

تاليف

جرجى زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* **الخديو محمد توفيق**	: خديو مصر
* **أحمد عرابى باشا**	: قائد الثورة العرابية
* **محمد أحمد المهدى**	: الخليفة المتمهدى
* **هيكس باشا**	: قائد الحملة المصرية
* **غوردون باشا**	: حكمدار السودان
* **الامير عبد الحليم**	: قائد جند المتمهدى
* **ابراهيم**	: موظف بالقنصلية الانجليزية
* **سعدى**	: زوجة ابراهيم
* **الكابتن شفيق**	: أسير المتمهدى
* **فدوى**	: بنت أحد الباشوات الموراليين
* **عزيز**	: من ابناء الذوات
* **بخيت**	: خادم فدوى
* **احمد**	: خادم شفيق

فذلكة تاريخية

في سنة ١٨٧٨ ، كانت القاهرة حيث جرت وقائع هذه الرواية قد اتسع عمرانها ، وازداد سكانها وروادها ، وكان الخلفاء الفاطميون هم الذين أنشأوها في منتصف القرن الرابع للهجرة ، في المكان الذى أناخوا فيه جمالهم يوم جاءوا لافتتاح الفسطاط عاصمة مصر اذ ذاك — حيث يقع الآن حى الجمالية ، والجامع الأزهر ، وما جاورهما من الجوامع القديمة — ومازالت القاهرة تتسع عمارتها ، ولاسيما منذ حكمت أسرة محمد على ، وعلى الأخص في عهد الخديو اسماعيل ، الذى أراد أن يجعلها قطعة من أوربا ، فأكثر فيها من فتح الشوارع الحديثة ، وانشاء الأحياء الجديدة المنظمة ، فأنشئت تبعا لذلك ألوف المنازل ، والقصور ، والحدائق ، خارج المدينة الأصلية ، وزودت هذه الشوارع الجديدة المتسعة بالأشجار ، تحف بها من الجانبين وأنيرت المدينة كلها بالغاز ، فأصبح ليلها كنهارها ، وازدادت بهجة ورونقا ، وكثرت بها الأماكن العامة ولاسيما حول حديقة الأزبكية ..

وقد أمر الخديو اسماعيل بأن ينشأ حول الحديقة سور حديدى أنيق تحدق به هالة من الأنوار الغازية ، كما أمر بأن

تعزف الموسيقى العسكرية كل مساء بالقرب من البحيرة المستديرة بالحديقة ..

***

وكنت اذا دخلت الحديقة فى المساء ، وأتيت المنصة المستديرة المزينة بالأنوار الغازية حيث تعزف الموسيقى ، رأيت الناس محدقين بها أفواجا على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم ومراتبهم ولغاتهم وألوانهم ، من القوقازى الأبيض الناصع ، الى الزنجى الأسود الحالك .. وعلى اختلاف أزيائهم ، بين العمامة العربية ، والطربوش العثمانى ، والقاووق الفارسى ، والقبعة الافرنجية ، والبنطلون ، والقفطان ، والسراويل ، وبين الخمار المغربى ، والحبرة المصرية ، والازار ، وغير ذلك من الأنواع والأشكال ، مما لايتفق وجوده فى غير مصر

***

أما المدينة الأصلية ، فكانت على عكس ذلك .. مايزال معظم أسواقها على النمط القديم من الضيق وعدم الانتظام ، ولم تستجب حاراتها لوسائل التنظيف والتنظيم التى أرادها الخديو ، فبقيت ضيقة الطرق ، معوجة الدروب .. وكأن الأقدمين أرادوا بتضييق الطرق استجلاب البرودة بحجب أشعة الشمس عنها .. فرأى الخديو اسماعيل أن يعوّض عن ذلك فى الشوارع الحديثة بغرس الأشجار التى تظلل الطرق وترطب الهواء ..

— ١ —

شفيق وفدوى

كان فى شارع العباسية بالقاهرة فى سنة ١٨٧٨ ، منزل مبنى على الطراز الحديث كسائر المنازل الحديثة هناك ، ولكنه كان من أقلها فخامة واتساعا .. وكانت حديقته صغيرة بسيطة ، تشرف على الشارع الحديث المظلل بأشجار اللبخ المغروسة على جانبيه

وكان هذا المنزل يشتمل على عدة غرف مفروشة بالأثاث البسيط .. لم يكن هذا الأثاث بالثمين ، ولكنه كان غاية فى النظافة والترتيب . ومن تلك الغرف غرفة بها خزانتان تشتملان على كتب بلغات مختلفة ، وفى أحد أركانها منضدة عليها بعض الكتب وبجانبها رجل فى العقد الخامس من عمره ، يرتدى الزى الافرنجى ، وليس على رأسه شىء ، وقد جلس على كرسى هناك وفى يده كتاب يطالع فيه ، وليس فى الغرفة غيره والباب مغلق عليه

كان الرجل قمحى اللون ، أسود الشعر ، واسع الجبهة ، حليق اللحية ، فى شعره شيب ، وفى وجهه تجعد ، وفى عينيه ذكاء ، وفى مظهره عبوس ، كأنه ناقم على الدهر الذى قضى عليه بالاكتفاء من الدنيا بولد ذكر أنفق كل حياته فى تربيته وتثقيفه .. فضلا عن أنه ما انفك منذ سنين كاسف البال مرتبك الأفكار ، منقبض

النفس ، كأنه أصيب بنكبة من نكبات الزمان . ولم يكن أحـد يعلم سبب ذلك الارتباك حتى ولا زوجتـه ، مع انها حاولت استطلاع ذلك مرارا ، اذ كان ينكر عليها تارة ، ويعدها أخرى . وقد مر عليها منذ تزوجها ، نحو العشرين سنة .. وهى حائرة فى أمره ، لا يهدأ لها بال لجهلها سبب ذلك الانقباض ..

ومما زاد فى حيرتها ودهشتها ان زوجها كان يحتفظ بصندوق صغير لم يفتحه منذ تزوجته . وطالما سألته أن يطلعها على مافيه ، فكان يرفض ذلك ويقول لها : « سيأتى يوم تعرفين فيه سر جميع هذه الغرائب وتعذريني على كتمانها عنك » . ولم يكن هذا الكلام الا ليزيد من تشوقها وتلهفها لمعرفة ما فى ذلك الصندوق، فمضت تلح عليه فى ذلك الى أن وعدها بأن يطلعهـا على مافى الصندوق ، بشرط أن تكتفى بذلك .. وتبقيه مكتوما عن كل انسان سواهما ، وألا تعود فتسأله شيئا من التفصيل ، لأنه لن يفوه بكلمة واحدة بعـد ذلك . فقبلت هـذا الشرط ، وحدد منتصف الليلة التالية موعدا لفتح الصندوق ، بعد أن ينام أهل البيت جميعا ..

وكان الرجل فى تلك الساعة جالسا يفكر فى مشكلة الصندوق، وقلبه يرتجف كلما تصور أنه سيفتحه ، فأخذ يتلهى بمطالعة بعض الكتب والجرائد . فلما كان الغروب انتبه بغتة كمن هب من نوم ، ونظر الى الساعة ثم دق جرسا أمامه ، فحضر خادم أسمر عليه جلباب وعمامة ، فقال له الرجل : « ألم يحضر شفيق بعد ؟»

فقال الخادم : « نعم ياسيدى لم يحضر .. ولم أره هــذا المساء » . فاضطرب الرجل وسكت هنيهة ، ثم قال للخادم : « اذهب يا أحمد وادعُ سيدتك سعدى الى هنا » .. فحنى أحمد رأسه مجيبا ، وخرج ..

وبعد قليــل جاءت سعدى ، وهى أصغر ســنا من زوجها ، ووجهها أكثر طلاقة ، وملابسها على الطراز التركى ، وفى يدها مجلة « المقتطف » كانت تتلهى بمطالعتها فى غرفتها الى أن يحين موعد فتح الصندوق ..

فاستقبلها قائلا : « ألم يأت شفيق بعد ياسعدى ؟..» فقالت : « نعم .. ولم أره هذا المساء ، وكنت أحسب أنه جاء ودخــل حجرتك يطالع الجرائد أو يقرأ شيئا آخر . ويلاه .. ترى أين ذهب الليلة ، فلم يحدث أن تأخر الى مثل هذا الوقت ؟ »

وأخذت تدق يدا بيد ، ثم سألت زوجها : « كم الساعة ؟ » فلما علمت أنها الســابعة مساء ، قالت : « انه يحضر عادةً بعد اغلاق المدرسة الثانوية بساعة ، أى فى الساعة الخامسة ، فماذا أخّره ؟ » ..

فلما شاهد زوجها اضطرابها ، ندم على ما أظهره من القلق أمامها وقال : « لا بأس عليه من التــأخير ، فالمدينة فى أمان ، والشوارع لا تخلو من المارة الى ما بعد منتصف الليل ، فلعل شفيقا ذهب مع زملائه التلاميذ الى حديقة الأزبكية ليسمعوا أنغام الموسيقى العسكرية ، أو لعلهم دعوا الى منزل أحدهم ،

فلا داعى للقلق » ..

فقالت سعدى : « لا تعتمد على الظنون يا ابراهيم .. مادام وحيدنا قد تأخر على غير عادته ، فيجب أن نبحث الأمر .. »

فأجابهـا بصوت خافت قائلا : « لا خوف عليه باذن الله ، وأؤكد لك انك سترينه أمامك هنا بعـد قليـل.. وهأنذا قد أحضرت له بعض الجرائد الافرنجية والمقالات العلمية ليطالعها »

فقالت سعدى : « وأنا أيضا سأطلعه على مقالة فى هذه المجلة تدور حـول مآثر العرب فى الأندلس ، ولكننى ما زلت قلقـة لتأخره » ..

فقال ابراهيم : « لا تجزعى .. انه فى حراسة الله »

فسكتت سعدى مراعاة لشعور زوجها واحتراما لرأيه ، وعادت الى حجرتها حيث استندت الى نافذة مشرفة على الشـارع ، ولبثت تنتظر مجىء ولدها وهى على أحر من الجمر ، وقد نسيت اشتياقها الى استطلاع مافى الصندوق ..

أما ابراهيم زوجها فلم يعد يستطيع صبرا ، فأخذ يقلب كتابا أمامه ليشغل نفسه به ريثما يأتى ابنه . وقد أظلمت الدنيا فى عينيه لأن شفيقا لم يتأخر من قبـل الى مثـل تلك الساعة . ثم سمع السـاعة تدق ثمانى دقات فازدادت دقات قلبـه ، ودعا الخادم وسأله : « هل تعرف بيت عزيز أفندى صديق شفيق ؟ .. »

قال الخادم : « نعم ياسيدى .. انه ذلك البناء الكبير فىشارع عابدين .. »

فقال ابراهيم : « اذن اذهب اليه الآن واسأل عن شفيق ، فان وجدته هناك فأت به معك لأننا فى انتظاره لتناول العشاء .. »

فحنى الخادم رأســه سمعا وطاعة ومضى . ولم يكد يخرج حتى جاءت سعدى الى غرفة زوجها تسأله عن شفيق فأخبرها بما فعل ، فعادت الى غرفتها . ولبث الاثنان ينتظران حتى عاد الخادم وحده ، فبادره ابراهيم بالسؤال عن شفيق قائلا : « قد ذهبت الى بيت عزيز أفندى فقيل لى : انه لم يجىء الى البيت بعد ، الا أنهم غير قلقين لذلك ، فليست هــذه هى أول ليلة باتها خارج المنزل .. »

فقال ابراهيم : « هل تحققت من ذلك ؟ »

قال الخادم : « نعم ياسيدى ، وأنا أعلم أن سيدى شفيقا لا يألف الجلوس فى المقاهى ، ولذلك لم أبحث عنه هناك »

فازداد ابراهيم قلقــا واضطرابا ، لكنه كظم ما به خوفا على زوجته لأنها كانت شديدة التعلق بوحيدها ، ولم يكن هو أقل تعلقا به منها ، الا أن الرجل أكثر صبرا على مثل ذلك من النساء

وفيما هو واقف يخاطب الخادم ، جاءت زوجته مسرعة ، فلما لم تر شفيقا صاحت قائلة : « أين شفيق يا أحمد ؟ .. »

فقال الخادم : « لم أجده فى بيت عزيز أفندى ياسيدتى ، وقد سألت الخدم هناك فلم أجد لديهم علما بشىء عن تأخرهما .. »

فطمأنها زوجها قائلا : « لا يلبث شفيق أن يأتى كما قلت لك ، فلا يضطرب قلبك ياسعدى ، ولنصبر قليلا فان لم يجىء فسأذهب

أنا للبحث عنه » ..

فضربت سعدى كفا بكف ووقفت صامتة ، وقد ملأت الدموع عينيها ، اذ لم تستطع التجلد .. ونظرت الى زوجها فاذا هو غارق فى بحار الهواجس ، على أنه حين التفت فرآها تنظر اليه .. تكلف الابتسام اخفاء لعواطفه وقال : « سامح الله شفيقا ، انه الآن يلهو ويمرح مع صحبه وزملائه ، ولا يبالى بما يسببه تأخيره من عناء لوالديه . صدق من قال : قلبى على ولدى انفطر ، وقلب ولدى علىّ حجر .. على انى سأعنفه متى جاء لكى لايعود ثانية الى مثل هذا .. »

لم تستطع سعدى الجلوس لشدة قلقها على وحيدها .. فذهبت الى النافذة ووقفت تنظر الى الشارع المضاء بمصابيح الغاز وعلى جانبيه الأشجار ، وما دقت الساعة التاسعة حتى هب زوجها ولبس طربوشه ثم قال لها : « هأنذا ذاهب للبحث عن شفيق ، ولن أغيب عنك أكثر من ساعة ثم أرجع به باذن الله » . ثم أخذ عصاه بيده ، وغادر زوجته على مثل جمر الغضا .. فبقيت مطلة من النافذة لاتحول نظرها عن الشارع حتى دقت الساعة العاشرة . ولما لم يرجع أحد زاد خفقان قلبها ، وأخذت ركبتاها ترتجفان .. ولم تكن الى تلك الساعة قد ذاقت طعاما ، ثم مضت تفكر فى ولدها وزوجها ناسية أو متناسية أمر الصندوق ، حتى دقت الساعة الحادية عشرة فأظلمت الدنيا فى عينيها ، وجلست معتمدة رأسها بيديها على المنضدة ، وأخذت تندب سوء حظها ..

وفيمـــا هى فى ذلك ســـمعت طارقا يطرق باب الحجرة طرقا خفيفا ، فمضت الى الباب بعد أن مسحت دموعها ، وكان الخادم هو الطارق ، وقد جاء يقول لها : « اذا أذنت لى فانى أسـير وآتيك بسيدى شفيق » . فأجفلت وقالت : « هل تعلم مكانه؟»

قال الخادم : « نعم ، لأنى تذكرت حديثا جرى مرة بينه وبين عزيز أفندى .. » وسكت ، فقالت بلهفة : « وأين تظن مكانه ؟ » فجز على أسنانه وقال : « أظن أنه ذهب مع عزيز أفندى للتفرج على الاحتفال بفتح الخليج ، لأنى سمعت عزيزا منذ بضعة أيام يحبب اليه الذهاب الى هنـاك لمشـاهدة الأنوار ، واستماع الأنغام .. وكان سيدى شفيق يتمنع أول الأمر،مؤكدا أن المطالعة أحب لديه من حضور مثل هذا الاحتفال ، ولكنك تعرفين سلامة نيته واخلاصه لأصدقائه ، فما لبث أن اقتنع بقول عزيز أفندى »

فقالت سعدى ، وقد لاحت على وجهها أمارات البشر : « وما الذى كان يخشاه من ذهابه الى ذلك الاحتفال ؟ لو أنه أخبر بذلك أباه ما كان ليمنعه »

فقال الخادم : « أظن أن سيدى كان يمنعه لأن أمثال هـذه الاحتفالات تحدث فيها أحيانا أمور مجافية للاداب لا يرضى بها سيدى الكبير » . فتنهدت سعدى وقالت : « كيفما كانت الحال فان المراد أن تأتى بشفيق » .. فحنى الخادم رأسه موافقا ، ومضى

وكان الخادم ، جنديا فى الجيش ، من قبل . وقد تقلب مع الدهر وعرف دخائل النـاس ، وكان لايرتاح للصداقة التى بين

سيده شفيق وزميله عزيز ، ولكنه لم يكن له أن يتدخل فى ذلك
فلمــا أذنت له ســيدته فى الخروج ، توجه الى فم الخليج ، ومكثت هى فى البيت وقد اشتد قلقها ، فدعت احدى جاراتها للاستئناس بها وأتتها ببعض المرطبات ، وجلست تتلهى بالحديث معها ..

كان شفيق فى التاسعة عشرة من عمره ، طويل القامة معتدلها ، قمحى اللون ، ذا عينين سوداوين تحت حاجبين متصلين ، صغير الفم واسع الجبهة أسود الشعر خفيف العارضين . وكان قد ربى فى بيت أبيه تربية حسنة ، فشب كريم العنصر ، طيب السريرة ، لايعرف أساليب المكر والخداع وان كان ذكيا نابها ، فأدخله أبوه المدرسة الثانوية الأميرية ليتمّ تعليمه على نفقة الحكومة ، لأنه لم يكن فى سعة كبيرة من العيش ، على أن يعلمه مهنة الطب ، أو المحاماة بعد ذلك ..

وكانت ملابسه مثلا فى البساطة ، تتألف من السترة والبنطلون والطربوش . ورغم صغر سنه كان ذا مهابة ، لا يجرؤ أصدقاؤه على ممازحته ولو كانوا أكبر منه سنا ، وكان أساتذة المدرسة وتلامذتها يحبونه ويجلونه لأدبه وذكائه واجتهاده فى الدرس
أما عزيز ، فكان على النقيض من ذلك ، لكنه كان على جانب عظيم من الثروة التى خلفها له أبوه . وكان قصير القامة ، كبير الأنف ، شــديد سمرة البشرة ، محبا للتفرنج فلا يخرج الى الشوارع الا ونظارته على عينيه ، وخيطها مسترسل على صدره ،

دون مايدعو الى ذلك .. وكان يميل طربوشه فوق رأسه تيهـا وعجبا ، وحول عنقه ياقة منشاة لا تمكنه من ادارة رأسه ذات اليمين ، أو ذات الشمال الا بصعوبة . واذا وقف يقف منتصبا وان شئت فقل متطاولا ، وفى يده اليمنى عصـا غليظة معقوفة الرأس ، وفى اليسرى سلسلة ساعته الذهبية الغليظة يلاعب بها الهواء ، وفى فمه « السيجارة » الافرنجية الضخمة . ومن شر أخلاقه الادعاء ، والحسـد ، والرياء ، وحب الرفعة عن غير استحقاق ..

وكان شفيق غير راض عن أخلاقه هـذه ، ولكنه اضطر الى صحبته بحكم تجاورهما فى المدرسة فقط . وكثيرا ما تظاهر عزيز أمامه بما يرضيه استبقاء لصداقته لأنه كان يحتاج اليه فى أشياء كثيرة أهمها مراجعة الدروس معه ..

وكان من عادة الخديو اسـماعيل أن يختـار أنجب تلامـذة المدرسـة لارسالهم الى أوربا ، لدراسـة الطب ، والحقـوق ، وغيرهما ، وقد توقع جميع التلاميذ فى تلك السنة اختيار شفيق . فكان عزيز كلما تصور ذلك كاد يتميز غيظا ، لا رغبة منه فى العلم ، بل حبا للفخر ، وكأنما عز عليه أن يكون شفيق أجل مقاما منه فى حين أنه ليس فى غناه، فكان لاينفك باحثـا عن وسـيلة يحط بها من قدر شفيق عند الأساتذة ، والتلاميذ.. وما زال كذلك حتى أوشك العام الدراسى أن ينتهى ، وأخذ التلامذة فى مراجعة الدروس ، فلاح له أن يعمل على الهاء شفيق عن دروسه ، وعلى

ايقاعه فيما يشينه ، ليحول دون اختيـاره للبعثة . فأخذ قبـل الاحتفال بفتح الخليج ببضعة أيام يحسن له حضوره . ثم اصطحبه الى هناك عقب مغادرتهما المدرسة ، وحال دون استئذانه أباه فى ذلك مقنعا اياه بأنه أرسل خادمه ليقوم بهذه المهمة . وكان غرضه من ذلك أن يثير على شـفيق غضب أبيـه . وكانت عربة عزيز تنتظرهما عند باب المدرسة ، وأمامها خادمه المجرى بملابسه المحلاة بالقصب ، فركباها وسارا الى الجزيرة للتنزه فيها ساعة قبل الذهاب الىّ مكان الاحتفال ..

وظلت العربة تسير بهما فى الجزيرة حتى غربت الشمس وأخذت الجزيرة تخلو من المارة

وفيما كانت العربة سائرة بهما فى شارع الجزيرة بين أشجار اللبخ القائمة على جانبيه ، لاحت من شفيق التفاتة الى تل صناعى هناك (جبلاية) . فرأى عند مدخل التل عربة مغلقة من عربات الحريم وأمامها فرسان من الخيل الكبيرة الروسية الأصل ، وكان الظلام قد أسدل ستاره على حين أن العربة لم يكن أضىء قنديلها وساد السكون أرجاء المنطقة ، فلم يكن يسمع هناك الا حفيف شجر السرو المحيط بالتل .. ولم يشاهد شفيق أحد فى العربة ولا بالقرب منها ، فقال لعزيز : « ماهذه العربة ، ولماذا تقف هنـا ياترى ؟ » . فتبسم عزيز وهز رأسه ولم يبد جوابا ، وأعاد شفيق السؤال بلهفة ، فقال عزيز : « ان لهذه العربة حكاية سأقصها عليك بعد أن نبعد من هذا المكان »

فاشتاق شفيق الى استطلاع الخبر ، وعاد الى السؤال بعد قليل ، فقال عزيز : « انها عربة أحد كبار الأجانب وأصله من جزيرة المورة ، وقد جاء أبوه الى مصر برفقة ابراهيم باشا عند عودة حملته من هناك ، فطابت له الاقامة هنا حيث تزوج ورزق بابنه هذا ، وعاش فى كنف الحكومة حتى رُقّى الى رتبة باشا واكتسب مالا طائلا ، وله ابنة واحدة بارعة الجمال تركب هذه العربة للنزهة فى كثير من الأحيان ، فأحبها صديق لى من شبان العاصمة وخطبها لنفسه ، ولما طلبها من أبيها لم يجب طلبه ، بدعوى أنها لم ترض عن أخلاقه . فأضمر لها السوء وأخبرنى صباح اليوم أنه تواطأ مع سائق عربتها على أن يأتى بها فى وقت متأخر الى هذا المكان للانتقام منها . ولا أخفى عليك أنها أخطأت فى حق صديقى الشاب فهو جميل كريم ، ولا يقل ايراده الشهرى عن ثلاثين جنيها ينفقها كلها على أصدقائه ، ثم هو الى ذلك لطيف المعشر .. يضحك الثكلى بلطف حديثه ومجونه .. »

فاشتعل قلب شفيق غيظا ، والتفت الى عزيز وقال : « انها لدناءة من صديقك أن يدبر للفتاة مثل هذه المكيدة .. » ثم أمر السائق أن يحول اتجاه العربة الى (الجبلاية) فأراد عزيز منعه قائلا : « مالنا ولهم ؟ » . ولكن شفيقا لم يعبأ بمعارضته . وما اقتربا من (الجبلاية) حتى سمعا صوتا نسائيا لطيفا مرتجفا يتخلل حفيف الأشجار ، وكانت صاحبته تقول : « خف الله يا رجل ، أليس عندك شرف ؟ »

فسارع شفيق الى النزول من العربة ، وانطلق الى مصدر الصوت داخل ذلك التل المظلم ، ثم أشعل عودا من الكبريت فرأى فى ضوئه شبحين فى أحد الدهاليز هناك : أحدهما لفتاة ، والآخر لرجل ملثم ، وما أن رأت الفتاة النور حتى قالت بأعلى صوتها : « انقذنى من هذا الخائن بحرمة الشرف والشهامة » . فلم تمض لحظة حتى كان شفيق بينهما وأهوى بعصاه على الرجل وسرعان ما فرّ هذا مسرعا ، فناداه شفيق بقلب لايهاب الموت قائلا : « الى أين أيها النذل الجبان ؟ .. » فلم يسمع له صوتا ولا رآه لشدة الظلام فى تلك المغارة ، ثم سمع وقع حوافر جواد فعلم أنه تمكن من الفرار

وقالت الفتاة لشفيق فى تأثر عميق : « لا عدمت الشهامة رجالها ، من أرسلك أيها « الملاك » السماوى ؟ أين أنت ؟ .. » وكان شفيق قد رجع ليأتى بمصباح من العربة ، فلم يسمع قولها ، فلما عاد بالمصباح رأى فتاة ترتعد خوفا ، وهى فى زى نساء الأتراك ، وعلى رأسها اللثام (اليشمك) تحته وجه كأنهَ البدر بهاء ، وعينان سوداوان براقتان ملأتهما دموع الخجل والوجل ، ووجنتان كللهما الاصفرار .. فأمسكت يده بيد كادت تذوب لطفا وقالت : « لقد أنقذتنى من الموت والعار .. جزاك الله عنى خيرا » ..

وخفق قلب شفيق ، وغلب عليه الحياء ، وتلعثم لسانه فلم يستطع الكلام ، لكنه تجلد وقال لها : « لا بأس عليك أيتها

السيدة المصونة ، ولا عاش من أراد بك سوءا . هلم الى عربتك لنسير بك آمنة الى منزلك »

فسارت معه وهى مازالت ممسكة يده ، وقد تشبثت بها مرتجفة مطرقة لشدة خوفها وخجلها . فلما وصلا الى العربة لم يجدا سائقها ، لأنه كان قد خشى مغبة خيانته فركن الى الفرار ، فعاون شفيق الفتاة على الدخول الى العربة ، ثم نادى سائق عربة عزيز وأمره أن ينير مصابيح عربة الفتاة ويقودها الى حيث تأمره ، ثم أطل عليها من نافذة العربة وسألها عن حالها وهل تحتاج الى شىء ؟ .. فأشارت بعينيها وملامح وجهها شاكرة ، ومضت بها العربة . أما هو فعاد الى عربة عزيز فوجده لا يزال فى مكانه بها وكأنه قطعة من خشب ، فلما رآه قادما نزل من العربة واحدى يديه على منظاره لئلا يسقط ، وفى يده الأخرى « سيجارته » المعهودة ، وقال له : « هل بك من بأس يا عزيزى شفيق ، لقد شغلت بالى ، وكان فى عزمى أن أنزل لمساعدتك ، لكنى أعلم أنك شهم باسل ، لا تحتاج الى مثلى .. فبقيت فى انتظارك هنا ، فأين ذلك الخائن ؟ .. »

فنظر شفيق اليه باحتقار ولم يحر جوابا ، ولما سأله عزيز عن سائق عربته ، قال : « ذهب بالعربة الثانية ، وسأتولى أنا قيادة هذه العربة .. »

فتكلف عزيز الابتسام وقال : « هل لك معرفة بقيادة العربات ؟ » . فأجاب مبتسما : « نعم ياعزيزى ، والمثل يقول :

(البس لكل حالة لبوســها) .. » . ثم قاد العربة فى أثر عربة الفتاة ، وما زالوا سائرين وقد خيّم عليهم السكوت حتى جاوزوا جسر قصر النيل .. ووقفت العربة الأولى بغتة ، فاضطرب شفيق لذلك ونزل يبحث عما دعا الى وقوفها ، وكان الشـارع مضاء بمصابيح الأنوار الغازية التى مزّقت بقوة نورها حجاب الظلام فلما اقترب من العربة وأطل من نافذتها على الفتاة وجدها جالسة، وقد هدأ روعها ، وأبرقت أسرتها ، وأشرق وجهها . فلما رأته أمسكت بيده ضاغطة عليها ، وقالت له ، والخجل يحول بينها وبين التأمل فى وجهه : « شكرا ياسيدى ، انى مدينة لك بحياتى وشرفى هذه الليلة ، فلولا شهامتك لخسرتهما »

فخجل شفيق وتوردت وجنتاه وتندى جبينه بالعرق ولم ينبس بكلمة ، فعادت الفتاة تقول : « هــل لك أن تخبرنى عن اسمك لأذكر لأبى ما أبديت نحوى من الشهامة والفضل ؟ .. »

فأجاب شفيق بصوت رقيق كان له أكبر الأثر فى قلب الفتاة : « انى ياسيدتى لم أفعل الا ما أوجبته على الانسانية ، فلست أنتظر مكافأة ، وأرجـ ألا تذكرى هــذا الأمر أمام أحد صـيانة لشرفك » ..

فقالت : « معاذ الله أن أقصد بكلامى مكافأتك ، فهذا أمر لو أردته ما استطعت القيام به .. ولكن تقدير الجميل فرض على الانسان ، وأى جميل أعظم من الانقاذ من العار والموت ؟ .. »

فقال شـفيق وقد غلب عليــه الخجل ، حتى كاد يمتنـع عليه

الكلام : « انى لم أفعل مايستحق هذا الثناء ، وحسبى ان كان لى شرف انقاذ ملك طاهر مثل سيدتى »

قالت الفتاة : « ان العبارات لا تفى بأداء حق الشكر على عواطفك الشريفة ، ولاشك فى أنى حفظت بفضلك حياتى ، أو بالأحرى شرفى الذى هو أعز مافى حياتى .. »

وفيما هما فى الحديث سمعا عزيزا ينادى : « أين أنت ياشفيق ؟.. لقد أطلت الوقوف وقدحان موعد العشاء فهيا بنا »

فقالت الفتاة : « من هذا الذى يناديك ؟ .. »

فقال شفيق : « هو صديق لى رافقته للنزهة على أن نسير معا الى احتفال فتح الخليج هذه الليلة .. »

قالت الفتاة : « لعلى أزعجتكما ، على أنى أرجو أن تجيبنى عن سؤالين قبل أن تذهب الى صديقك .. »

قال شفيق : « مرى بما شئت ، وعلى السمع والطاعة .. »

قالت الفتاة : « أريد أولا أن تخبرنى باسمك لأحفظه فى قلبى ذكرا لشهامتك ومروءتك اللتين يعز وجودهما فى شبان هذه الأيام .. كما أريد أن تخبرنى باسم ذلك الخائن ان كنت قد عرفته ؟ .. »

قال شفيق : « أما اسمى فيكفينى فخرا أن تذكريه وهو (شفيق) . وأما ذلك الخائن فأرجو أن تسدلى على فعلته سترا ، اذ لا يليق بكرم خلقك وسامى أدبك أن تنتقمى من لئيم مثله ، فاحسبيها هفوة من هفوات الشباب ، وسأعمل على معرفة اسمه

واخبارك به .. وأرجو قبل أن أودّعك ألا تثقل عليك الاجابة عن سؤال » ..

قالت الفتاة : « مر بما شئت .. فأنا رهينة أمرك .. »

قال شفيق : « هل لى أن أعرف اسمك ؟.. »

قالت الفتاة : « نعم .. اسمى فدوى .. »

قال شفيق : «عاشت الأسماء .. وفدتك روحى» . ثم ضغط يدها مودعا وعاد الى عزيز فى عربته وقلبه يخفق ، وركبتاه ترتجفان ولسان حاله يقول :

ودعته وبودى لو يودعنى   صفو الحياة وانى لا أودعه

وكان عزيز رفيقه قد مل طول الانتظار حتى كاد يتميز غيظا ، واضطرم فؤاده حسدا ، لكنه أخفى عواطفه وتكلف الابتسام ، اذ كان يعرف فدوى منذ أشهر ، وقد مال اليها ، لكنه لم يجرؤ على طلب يدها خوفا من الرفض ، لعلمه انها لا تنظر الى الغنى ولا لحسن الزى .. وتحتقر كل غر متكبر، ولو ملك مال قارون . وكان لسوء طباعه يعد كرم طباع تلك العذراء وانفتها كبرا وتيها لذلك دبّر طريقة لاذلالها بيد أحد السفلة لعله يستطيع بعد ذلك أن يظفر بها .. فلما أخفقت مساعيه ، ورأى ما صنعه شفيق لانقاذها أيقن انها أحبته ، وخشى أن يسرع فى السعى الى الظفر بها فتكون البلية عليه أعظم ، فلاح له أن يحطم أمل شفيق ويجعل الأمر فى يده هو لعله يقوى على تفريقهما فينال ما يتمنى . وقال ل والعربة تسير بهما : « انك ياشفيق قد صنعت مع هذه الفتاة

صنيعا ستبقى مدينة به لك مدى الدهر .. »

وكان شفيق غارقا فى بحار تأمله فلم يفقه كلام عزيز ، وأدرك هذا ما يفكر فيه شفيق .فازداد حسدا له ، ثم التفت اليه متلطفا وقال وهو يتظاهر بالمحبة : « ان مثل هذه الفتاة الطاهرة لا تليق الا لك » فخفق قلب شفيق ولم يستطع بعد ذلك سكوتا ، لكنه هدأ روعه قدر طاقته وخفّف من انفعاله وقال : « أين أنا من هذه الأمنية ؟.. ان بينى وبينها ابعادا ، فأبوها لايستريح الى مصاهرة مثلى ، هذا الى انى لست فى حال تؤهلنى للزواج قريبا »

فقال عزيز : « لايهمّك أبوها فعلىّ ارضاؤه ، لأننا فى عصر قلّ فيه الشبان ، وكثرت البنات .. وانى واثق من أنك لو طلبت الزواج بأية فتاة من بنات الأغنياء لقوبل طلبك بالترحيب ، وحصلت بذلك على مال كثير ، فالعروس الآن تفعل ذلك غالبا ، وهى عادة افرنجية حديثة النشأة فى بلادنا .. »

فقاطعه شفيق قائلا : « أرجو أن تكتم كل ما عرفته عن الفتاة صيانة لها وحفظا لشرفها وشرفى .. »

وفيما هما فى الحديث ، وقفت عربة الفتاة أمام باب حديقة تعطر تلك الأنحاء بشذى رياحينها ، وعلى جدار الحديقة الى جهة الشارع عرائش الورد والنسرين والاقحوان . وكان منظر الحديقة من الخارج غاية فى الجمال ، وفى وسطها قصر بديع الهندسة مرتفع البنيان يدل على وجاهة أصحابه وثرائهم

وبعد قليل عاد سائق عربة عزيز بعد دخول الفتاة الى قصرها ،

فساق العربة بهما الى حديقة الأزبكية حيث ترجّلا ، وذهبا الى مطعم هناك تناولا فيه العشاء ، ثم دخلا الحديقة وأخذا يخطران حول بركتها ..

ومرّا فى الحديقة بمقهى معد للرقص والغناء ، فوقف عزيز ثم أمسك بيد شفيق ودخل به المقهى حيث جلسا الى مائدة هناك . ثم طلب عزيز كأسين من الخمر دون أن يفطن شفيق الى ذلك لما تملك فؤاده من شواغل الغرام . وما أفاق الا على صوت عزيز وهو يناوله كأسا ، فانتبه بغتة كأنه هبّ من نوم عميق والتفت الى ما حوله فاذا الناس جماعات ووحدانا يشربون ، ويطربون ، ويقهقهون .. ويترنح بعضهم طربا لصوت الغناء ، وآخر ينادى بأعلى صوته : « آه .. كمان ياست » . وآخرون يشرب بعضهم نخب بعض ..

فنظر شفيق الى صديقه مندهشا ، وقال له : « أين نحن يا عزيز ؟ .. »

فقال عزيز : « نحن فى محل طرب وانبساط ، خذ هذه الكأس واشربها » . فأجفل شفيق ونهض معتذرا بأنه لا يرتاح لمثل هذا الاجتماع ، فتبسم عزيز ونظر اليه فى سخرية وقال : « ألا تزال صبيا كأولاد المكاتب ، تخاف كأس المدام ؟ .. خذ اشربها ياصاح فان فيها شفاء للناس .. »

فقال شفيق : « أعذرنى لأنى لم أتعوّد شربها .. وأخشى ضررها .. »

فضحك عزيز حتى كاد يستلقى على ظهره ، ثم نادى احــدى المغنيات هناك قائلا : « اسمعى ياست فايقة ، صاحبنا خائف من الكأس .. » فاغتاظ شفيق ومضى عائدا من حيث أتى ، فتبعه عزيز محاولا اقناعه بمجاراته ، فلما رأى منه الاصرار على عدم الرجوع ، تحوّل عن عزمه ورافقه حتى خرجا

— ٢ —

فى دار الاوبرا

خرج شفيق وعزيز من باب الحديقة القبلى فانطلقا حتى بلغا دار الأوبرا ، فوقف عزيز ونظر الى ساعته وقال : « ان الساعة لم تتجاوز التاسعة واحتفال فتح الخليج لا يكون على أتمه الا فى الساعة الحادية عشرة ، فلنقض هاتين الساعتين فى هذا الملهى فانه من أجمل الملاهى ، وستمثل فيه الليلة رواية باللغة الفرنسية.. ولم يكن شفيق قد شاهد التمثيل حتى ذلك الوقت لا فى هــذا الملهى ولا فى غيره ، فقال لصاحبه : « انى أحسن فهم اللغــة الفرنسية ، ولكنى لا أرتاح الا للتكلم بالعربية » . فضحك عزيز وقال وهو يعدل وضع منظاره : « يا للعجب منك يا شفيق ..كيف تكون شابا ذكيا عاقلا تعيش فى عصر التمدن ، ثم لا ترتاح للتكلم باللغة الفرنسية ؟ .. ان جميع المواطنين المتمدنين لا يتكلمون الا بها الآن ، وقد أهملوا اللغة العربية لتعقدها وصعوبة التلفظ بها

حتى صار لا يتكلم بها الآن الا البسطاء الذين لم يتثقفوا .. »

بهت شفيق ونظر اليه نظرة ملؤها الرزانة والكمال ، ثم ابتسم وقال : « انى لأعجب من أمرك يا صديقى .. لكأنى بك تحسب ان التمسك بالتقاليد الشرقية حطة لمقامك ، ولهذا تنكرت للغة بلادك وقومك ، وآثرت الفرنسية عليها .. زاعما أن اللغة العربية لغة عامة الناس وأسافل السوقة .. ان مخاطبتك رجلا عربيا بلغـة أعجمية ليس سوى بدعة تؤدى الى سوء المصير ، وليس فيمن تقلدهم من الفرنجة ــ مهما أتقنوا العربية ــ من يؤثرونها فى التخاطب على لغتهم .. لا .. لا .. انك بصنيعك هـذا تحط من قدر عشيرتك الأقربين الذين لا يعرفون الا لغة بلادهم .. »

فتكلف عزيز الضحك لاخفاء خجله وقال : « ان قولك لأشبه بما نسمعه من الرجعيين فى بلادنا ، ممن لم يخالطوا الفرنجة ولم يدركوا حظا من التمدن ، ولكن ما لنا ولهذا الآن ، هل تريد أن تدخل الملهى أم لا ؟ .. »

فقال شـفيق : « لا بأس من مشـاهدة التمثيل نزولا على رغبتك .. »

قال عزيز : « اذا كنت لا ترتاح للتمثيل نفسه ، فسـتجد فى مشاهدة معدات هذا الملهى ما يسرك ولا شك .. »

ثم ابتاعا تذكرتين للدخول ودخلا الدار ، وشفيق يعجب من الازدحام هناك ومن فخامة الدار وحسن تأثيثها ، حتى السلالم كانت مكسوة ببساط حريرى ، والجدران قد زينت بالمرايا

المذهبة الجوانب الكبيرة الحجم . فلما دخل قاعة التمثيل شاهد فى سقفها ثريا (نجفة) بها مئات من الشموع فضلا عن مصابيح الأنوار الغازية ، وقد فرشت الشرفات (الألواج) كلهـا وفى مقدمتها الشرفة الخـاصة بالخـديو بأحسن الأثاث ، وزينت جدرانها بالمرايا الجميلة المذهبـة . فانبهر شفيق لتلك المشاهد ، على انها لم تكن لتشغله عن التفكير فى أمر فدوى . فلما شاهد فتاة فى ملابس تركية اختلج قلبه واحمر وجهه ، وجعل يحاول جاهدا اخفاء ذلك فلا يستطيع

وكان عزيز يفكر هو الآخر فى أمر فدوى ، ويراقب شفيقا وحركاته ليستطلع عواطفه ، ويدبر الوسائل للايقاع به ، فلما رآه مفكرا بادره قائلا : «فيم تفكر يا عزيزى ؟» . فقال شفيق محاولا اخفاء عواطفه : « انى أفكر فى هذا الملهى البديع وما اقتضى بناؤه وفرشه من الزمن والمال »

فأدرك عزيز ما يحاول اخفـاءه وقال : « لعلك تعجب اذا أخبرتك بأن أفندينا بناه وأثثه فى خمسة أشهر » ..

قال شفيق : « انه لأمر غريب حقا .. ولكن ما الذى حمله على هذه السرعة ؟ .. »

قال عزيز : « حمله على ذلك قدوم ملوك أوربا لحضـور الاحتفال الذى أعده لفتح قناة السويس ، فبنى هذا الملهى اتماما لمظاهر الاحتفاء بهم .. وقد اقتضى هذا نفقات طائلة »

ثم رفع الستار عن الفصل الأول من الرواية فسكتا لمشاهدة

التمثيل ، وأخذ عزيز يسترق النظر الى شرفات السيدات بالمنظار لعله يلمح معصم احداهن ، أو يلمح وجهها من وراء الحجاب

أما شفيق فكان يود انشغال رفيقه بأى شيء كان ، ليعود هو الى التفكير فيما وقع فيه من الحب ، ولم يكن قد عرف الحب من قبل ، ثم حانت منه التفاتة الى صديقه فوجده مصوبا منظاره الى احدى الشرفات ، وهو يضحك والخفــة بادية فى حركاته فخشى أن يهزأ الحاضرون بهما لذلك ، وكان يتميز غيظا ، وعلت وجهه حمرة الخجل ، فالتفت اليه وهمس قائلا : « علام تضحك يا عزيزى ؟ .. »

فقال عزيز وامارات النزق والخفة تبدو على وجهه : « لقد شاهدت من وراء الحجاب معصما كأنه صيغ من بلور ، وكأنى به لو لم يمسك بالأساور لسال من الأكمام سيل الجداول ، وأعتقد أن صاحبته أشارت الىّ به » . قال ذلك وهو يكاد يطير فرحا

فنظر اليه شفيق شزراً وقال : « ما الذى أوجب وضع الحجاب على نوافذ تلك الشرفات ؟ .. »

قال عزيز : « انه لمنع الناس من النظر الى الجالسات فيها ، مراعاة لحرمة الدين والتقاليد »

فقال شفيق : « اذن لا يليق بنا أن نسترق النظر اليهن من وراء الحجاب .. »

فتكلف عزيز ضحكة ليستر بها خجله وسكت ، وبعد قليل عاد الى منظاره فصوّبه الى الشرفة نفسها ، ثم قال لشفيق : «سأتركك

قليلا لأذهب فى مهمة طارئة وأعود بعد دقائق »

فعجب شفيق لتلك الوقاحة ، ولكنه لم يسعه الا السكوت ، ولبث ينتظر عودته متلهيا بمتابعة التمثيل ، فلما طال به الانتظار، أوجس خيفة على رفيقه ، ولم يستطع البقاء فخرج يبحث عنه خارج القاعة فلم يقف له على أثر ، وعاد الى القاعة مغيظا مضطربا فانتظر قلقا حتى دقت الساعة الحادية عشرة ، فنفد صبره ولم ير بدا من الخروج معتقدا أن عزيزا لابد أن يكون قد خرج من الملهى لأمر ما ..

همّ شفيق بمغادرة القاعة بعد أن أسدل الستار على الفصل الأول .. وفى عزمه أن يبحث عن عزيز مرة أخرى فى حجرات التدخين والمشروبات والممرات ، وفيما هو كذلك اذا عبد طويل القامة دقيق العضل ممتلىء الجسم لا شعر فى عارضيه ، عليه ملابس أفرنجية سوداء ، وعلى رأسه طربوش أحمر ، يقف أمامه ملقيا التحية فى أدب ، ثم قال له : « هل يسمح سيدى أن يتكرم علىّ بذكر اسمه الكريم ؟ »

فعجب شفيق من هذا السؤال ، ولم يسعه الا أن يجيب عنه ، فقال وهو يهم بالانصراف : « إسمى شفيق »

فقال العبد : « ان بعض أصدقائك يودون مقابلتك الساعة يا سيدى ، وهم ينتظرون بجانب باب حديقة الأزبكية القبلى »

فعجب شفيق وقال له : « من هؤلاء الأصدقاء ؟ .. »

قال العبد : « عفوا يا سيدى .. لقد عنيت صديقا واحدا .. »

ثم اقترب منه متأدبا وهمس فى أذنه قائلا : « الآنسة فدوى .. »

فخفق قلب شفيق خفوقا سريعا ، واصطكت ركبتاه وأخذته القشعريرة ، لكنه تجلد جهد طاقته ونظر الى العبد نظرة ملؤها الوداعة والشكر وقال : « انى ليسعدنى حقا أن أبادر باجابة هذا الطلب ، غير انى أبحث عن زميل لى كان معى هنا وانصرف منذ حين . ومتى وجدته أو وقفت على سبب غيابه فسأكون طوع أمر الآنسة المصونة » . قال هذا ، ومضى حتى خرج من الملهى فاذا هو بعربة عزيز لا تزال حيث تركاها ، فعلم انه لم يخرج ووقف يفكر فى أمر فدوى ودعوتها اياه فى ذلك الوقت ، فيشتد خفقان قلبه ، ثم يعود فيذكر أمر رفيقه فتحدثه نفسه بأن عليه أن يجيب داعى المروءة فيبحث عنه ، قبل أن يجيب داعى القلب ويذهب لمقابلة فدوى ..

وما زال مترددا ، والعبد ينتظره خارج الدار ، حتى انتصفت الساعة الثانية عشرة ، وهو فى حيرته بين أن يلبى طلب سالبة لبه ، وبين البقاء لانتظار صديقه . وأخيرا تغلب دافع الحب فرأى أن يسير الى فدوى ثم يعود بعد ذلك للبحث عن عزيز ، ونادى العبد وصحبه الى الحديقة ، فلما اقتربا من بابها القبلى رأى هناك مركبة واقفة ، فأدرك انها مركبة فدوى ، وامتقع لونه فتعثر فى سيره حتى كاد لا يقوى على المسير ، وما أقبل على المركبة حتى شاهد فدوى مطلة من النافذة وهى فى أبدع ما تكون من الجمال ، وقد زايلها الوجل والاضطراب .. فوقف خاشعا يتأمل وجهها

الممتلىء بهاء وحيوية ، وعينيها الدعجاوين الممتلئتين ذكاء ودعة ، يحرسهما حاجبان مزججان يكتنفهما لثام أبيض شفاف ، ويتراءى من ورائه مبسم كله معان ، ويتجلى فى وجهها وقار يزينه الحياء

فلما وقعت العين على العين ترامت السهام من الجانبين ، وبادرته فدوى بالتحية مبتسمة .. ثم مدت يدها اليه تصافحه وقد غلب عليها الحياء وأحست بقشعريرة انتظمت كل أطرافها ، وتصبب جبينها عرقا ، ولم تقو على اخفاء اضطرابها ، فلما أدرك شفيق منها هذا ، وقد تصافحت الأيدى ، ارتعدت فرائصه ولم يستطع الوقوف فأسند يده الى نافذة العربة ، وحاول تسكين روعه فلم يستطع . ثم رفع بصره اليها وهمّ بمخاطبتها فاستعصى عليه الكلام ، ولم يقو على استمرار النظر فأطرق حياء ووجدا ، وأخيرا تجلد وقال : « أقدم اليك المعذرة ياسيدتى لتأخرى بضع دقائق عن الموعد الذى حددته ، وما تأخرت الا لأنى كنت أبحث عن رفيق لى ولم أظفر به حتى الآن »

قالت فدوى : « لعله صديقك الذى كان معك فى العربة »

قال شفيق : « نعم.. » فتكلفت الابتسام ، وأرادت أن تتكلم فمنعها الحياء . والتبس الأمر على شفيق فسألها : « هل هناك أمر تعرفينه عن صديقى عزيز ؟ » . فلم تجب وظهر اضطرابها جليا عند ذكر اسم عزيز ، فتشاغلت بتثنية طرف اليشمك بين أناملها وبقيت مطرقة .. فقلق شفيق ، وأدرك أن هناك شيئا لا تريد التصريح له به ، وهمّ بسؤالها ، ولكنه استحيى فأجل

هذا الى ما بعد الحديث الذى دعته من أجله ، وأصاخ بسمعه ينتظر ما تقول ..

قالت فدوى : « ربما تعجب من انى دعوتك الليلة لأخاطبك على انفراد ، وأنت شاب لم يسبق لى معرفة بك من قبل ، فضلا عما تعلمه من عادتنا فى التحجب عن كل رجل الا أقرب دوى قربانا .. وربما تعزو ذلك منى الى الخفة والطيش »

فابتدرها شفيق قائلا : « معاذ الله .. فأنت أرفع من أن تهبطى الى مثل هذا ، وقد خصك الله بكمال الذات والصفات »

فنظرت اليه بعين الحب نظرة مست شغاف قلبه ، ولم تقو على مكاشفته بما فى فؤادها ، فقالت بصوت منخفض : « لا يعرف ما فى القلوب الا الله .. وما جرأنى على أن أدعوك الى هذا الموقف الا الشهامة التى أبديتها لانقاذى من العار ، اذ جعلتنى أحس فضلك وكرم أخلاقك ، وأشعر بأنى مقصرة عن شكرك ، ولا أقول مكافأتك لأنها أمنية لا يمكننى الوصول اليها ، ولو قامت نفسى بين يديك .. فالآن أرغب اليك فى أن تتقدم التى بما تشاء ، لعلى أقوم بشىء من الواجب »

قال شفيق : « كفاك يا سيدتى اطراء .. ولا تدعينى أحس بقصورى عن بلوغ ما تصفينني به .. وقد ذكرت لك انى لم أقصد بانقاذك الظفر بمكافأة .. اذ لم يحملنى عليه الا واجبى كانسان .. فلست أطمع فى غير رضاك ان كنت أستحقه »

فقالت فدوى وقد رمقته بعطف : « هل هذا غاية ما تتمناه

يا شفيق ؟ » ..

فأجابها شفيق وهو مطرق : « ان ذلك غاية ما أستحق ياسيدتى » ..

قالت فدوى : « انما أسألك عما تتمنى .. »

فتنهد شفيق وقال : « ليس كل ما يتمنى المرء يدركه» وكلل العرق جبينه خجلا ، فأدركت هى ما وراء ذلك .. وغلب عليها الحياء ، فأطرقت أيضا ..

وكأنما شجعه هذا ، فواصل حديثه قائلا : « أراك قد تراجعت ، ولم أذكر لك ما أتمناه .. فكيف لو د رته ؟ »

وكأنما شجعه هذا ، فواصل حديثه قائلا : « أراك قد تراجعت ، ولم أذكر لك ما أتمناه .. فكيف لو ذكرته ؟ »

فدنت من النافذة بلطف ، وقد خففت من اضطرابها ، ومدت يدها اليه فتصافحا وأوضحا بالاشارة ما يقصر دونه الخطاب

ثم عاودت الحديث قائلة : « لعلك تعجب لمعرفتى مقرك هذا ، والواقع انى جئت الليلة مع أبى لمشاهدة التمثيل فرأيتك حيث كنت بجانب صديقك ، ولاحظت انك لا تحول نظرك مثله الى شرفات السيدات .. ونظرا لما أشعر به من فضلك علىّ ، أحببت مخاطبتك لأكرر لك الشكر ، فاستأذنت أبى فى الخروج من دار الأوبرا ، وبعثت اليك بخادمى الأمين بخيت الذى أثق فيه كثيرا لما عرف به من الأمانة والبسالة وكرم النفس وصدق الطوية .. وقد أطلعته على ما أبديته نحوى من المروءة والشهامة

فأصبح يحبك محبته لى ، ويعجب ببسالتك وكرم أخلاقك .. ولما كان أبى فى انتظارى الآن ، فيحسن بى أن أودعك وأعود اليه »

فقال شفيق : « وأنا أيضا سأعود للبحث عن عزيز » . ونظر اليها ليرى ما يبدو على وجهها .. فاذا هى مطرقة تريد أن تتكلم ويمنعها الحياء ..

فقال شفيق : « انى أقرأ فى وجهك كلاما ترغبين فى التصريح به ، ويمنعك الحياء .. ويخيل الىّ انه يتعلق بصديقى عزيز ، فلماذا تحجبينه عنى ؟ .. »

قالت فدوى : « ليس فى الأمر ما يوجب التستر ، ولا يمكننى التصريح بأكثر من ان عزيزا ليس من أمثالك »

فقال شفيق : « هل عرفته قبل الآن ؟ »

قالت فدوى : « لم أشاهده الا معك ساعة الغروب فى حال الاضطراب ، ثم فى الملهى حين غادره وتركك وأنت تأمل عودته لحسن طويّتك واخلاصك ، ولكن الاخلاص اذا كان لمن .. » .. ومنعها الحياء فلم تتم جملتها وقالت : « اذا شئت أن تعرف الحقيقة ، فاسأل بخيتا .. والآن أستأذنك فى الذهاب لأن أبى ما زال فى انتظارى ، على انى أطمع فى أن أراك فى موعد قريب »

فبهت شفيق وقد تذكر ما مرّ به هذه الليلة من الأهوال ، وخشى أن تلاحظ ما خامره من الارتباك ، فقال : « انى رهين اشارتك .. ولأن الوقت لا يسمح بأن تتأخرى أكثر من ذلك ، سأتحدث فى هذا مع بخيت.. فعودى انت فى حفظ الله ورعايته

الى أبيك » ..

فمدت فدوى يدها من نافذة العربة وصافحته ، ثم انطلقت بها العربة بعد أن نظرت اليه نظرة أغنته عن كل شرح وبيان ..

بقى شفيق واقفا مكانه وقد فقـد وعيه بذهاب فدوى ، ثم انتبه الى نفسه فمشى عائدا الى الأوبرا حيث وجد بخيتا ينتظره خارجها ، فانتحى به ناحية ، يستطلع منه ما أشارت اليه فدوى مما لم تستطع أن تفوه به ، فقال بخيت : « انى لا أستحيى أن أقول لك يا سيدى ان عزيزا لا يستحق أن يكون صديقا لك ..»

فسأله شفيق : « لماذا ؟ »

فقال بخيت : « لأنه غادر خؤون .. وقد تركك تنتظره على مثل الجمر وسار الى من هى على شاكلته من .. »

فقاطعه شفيق قائلا : « هل علمت أين ذهب ؟ .. »

فقال بخيت : « الواقع ياسيدى انى كنت مع سيدتى فى شرفتها نراقب حركاتكما ، فلاحت منى التفاتة الى بعض الشرفات فاذا واحدة قد أومأت اليه من وراء الحجاب ، ولما خرج هو من عندك خرجت من خلوتها ، ولا أعلم الى أين ذهبا ، وانما أؤكد لك انهما لم يخرجا من الدار ، فاذا بقيت هنا الى انتهاء التمثيل فلا بد من أن تراه خارجا »

فقال شفيق وقد اشتد به الغضب : « يا للغرابة .. كيف يمكن أن يكون ذلك ؟ »

قال بخيت : « ان سمو أدبك يا سـيدى يجعلك لا تظن به

سوءا ، فتعال بنـا ندخل المسرح وأنا أبحث عنه .. فاذا عرفت مكانه ذهبت بك اليه ، وأريتك اياه رأى العين »

ثم دخلا ، ومضى شفيق الى مقعده ، وذهب بخيت ليبحث عن عزيز ، وبعد قليل عاد مهرولا وعلى وجهـه امارات الدهشة . فسأله شفيق عما جرى ، فقال : « لقيت صاحبك وسيدى الباشا فى خلوة يتساران ، وسأرجع اليك بما يدور بينهما » ؛ فذهل شفيق ولبث مبهوتا يفكر فى أمر صديقه . وعاد بخيت لاستطلاع الخبر ..

أما ما كان من أمر عزيز فـانه غادر شفيقا فى خلوته وخرج لمحادثة عجوز شمطاء ، كأنها حية رقطاء .. بجفن أحمر ، وخد أصفر ، ووجه أغبش . وكانت هذه العجوز فى الشرفة التى أشار اليها بخيت ، وهى (دلالة) تبيع المنسوجات ،والمصوغاتللسيدات فى بيوت الأعيان وأرباب المناصب ، وتجيـد الكلام بالتركية والفرنسية . فلما رأت عزيزا رحبت به طمعا فى غناه ، وقالت له : « ما أخبارك ؟ .. »

قال عزيز : « ما أخبارك انت ؟.. والله انت ياخالتى مصدر الهدى والانشراح .. »

فقالت العجوز : « انى رهينة أمرك يابنى .. فمر بما شئت »

فمد عزيز يده الى جيبه وأخرج نقودا فى صرة ووضعها فى يدها قائلا : « مرادى أن أكلفك بقضاء أمر ، أرجو ألا يكون صعبا عليك .. »

قالت العجوز وقد وضعت الدراهم فى جيبها : « ثق يا حبيبى انك فى معزّة ولدى ، وما يهمك يهمني .. وانى عاتبة عليك لما دفعته لى من دراهم .. ولم أقبلها الا مرضاة لك .. »

فقال عزيز : « ليس لنا بركة الا بك يا خالتى ، وأما ما أطلب اليك قضاءه فهو .. هل تعرفين فدوى ؟ .. »

فقهقهت العجوز وقالت : « كيف لا أعرفها ؟ .. لقد عرفت أباها الباشا الموراللى ، وعرفت أمها منذ أتى بها من الشام بعد أن تزوج بها هناك .. وابنتها فدوى بمنزلة ابنتى ، وقد عرفتها منذ نعومة أظفارها .. »

فقال عزيز : « اذن قضى الأمر ، ما دامت فدوى فى منزلة ابنتك ، فأظنك لا تكرهين أن أكون بمنزلة صهرك ؟ »

فسكتت العجوز برهة ، ثم قالت : « ذلك أمر سهل وأرجو ألا يكون الا ما تريد .. فأنت شاب غنى ، وهى لا تطمع فيمن هو أكثر منك مالا وأعظم منزلة .. لكننى علمت منذ بضعة أسابيع انها معقود عليها لأحد شبان العاصمة »

فقاطعها عزيز قائلا : « لم يعقد له عليها ، وانما خطبها من أبيها فلم ترضَ هى به .. وقد أدّى ذلك الى ميله للانتقام منها ، وأصارحك بأنى أحبها »

قالت العجوز : « عليك باسترضاء أبيها ، وعلىّ ارضاء أمها. أما هى فلا أظنها تخالف والديها »

قال عزيز : « وما الذى يرضى أباها ؟ »

قالت العجوز : « انه بخيل يحب المال ، ويستسهل الصعب فى سبيل الحصول عليه .. كما انه يحب الاطراء والمدح »

قال عزيز : « وما عمله ؟ .. »

قالت العجوز : « انه صاحب أملاك كثيرة يعيش من دخلها ، ويقضى معظم أيام السنة فى ضيعة له بمديرية الشرقية »

فقال عزيز : « عليك اذن استطلاع رأى والدتها ، وهأنذا ماض لمقابلة أبيها ، لعلّى أنال منه شيئا » . ثم ودعها وخرج ..

مضى عزيز الى الشرفة التى جلس فيها الباشا فدخل عليه مسلّما محنيا رأسه كتحية الافرنج

فلما رآه الباشا ، رحب به لما يبدو على ملابسه من مظاهر الرفعة والمجد ، ثم أجلسه بجانبه وسأله عن بلده .. فقال عزيز وهو يمضغ الكلام فى فمه ويقطعه شأن أغراب اللغة الذين لا يحسنون التكلم باللغة العربية جيدا : « انى من أهل هذه المدينة يا سعادة الباشا » ..

قال الباشا : « ولكنى أرى فى لغتك لهجة افرنجية .. »

قال عزيز : « ذلك لأنى أسافر الى باريس كل عام لقضاء فصل الصيف فيها .. »

فسأله الباشا : « ما اسم أسرتكم الكريمة ؟ .. »

قال عزيز : « انى يا سعادة الباشا من أسرة جندب ، واسم عبدكم عزيز ... »

فنظر اليه الباشا مندهشا وقال : « من أسرة جندب ؟ .. اذن

أنت قريب السيد جندب المغربى المتوفى منذ عامين ؟ .. »
قال عزيز : « هو أبى يا سيدى الباشا .. »
فانفرجت أسارير الباشا وقال : « رحمه الله ، كان رجلا عاقلا حكيما ، وقد جمع ثروة كبيرة بجده واقتصاده . هل ترك المرحوم أبوك أولادا غيرك ؟ .. »
قال عزيز : « لا يا سعادة الباشا ، اننى ابنه الوحيد .. »
قال الباشا : « وماذا تمارس من الأعمال ؟ .. »
قال عزيز : « انى ما زلت طالبا فى المدرسة ، وفى نيتى أن أنشىء جريدة سياسية بعد التخرج ان شاء الله .. »
فاستبشر الباشا وقال : « حسنا تفعل لأن أفندينا يحب المشروعات العلمية والأدبية ويشجعها كثيرا ، وطالما كافأ رجال العلم والأدب فمنحهم الأموال الطائلة والرتب والنياشين . أما الجرائد فان دوائر الحكومة بفضل توجيهه تشترك فى عدة نسخ من كلٍّ منها » ..
فقال عزيز : « صدقت يا سعادة الباشا ، ولكنى أظن أن ذلك كان دأب سمو الخديو قبل تأليف اللجنة الدولية الخاصة بمراقبة مالية البلاد ، أما الآن فالمراقبان يقومان بمراجعة الحسابات ، وقد غلاَّ يد الخديو فيما يتصل بالنفقات غير الضرورية.. وأخشى أن يحول ذلك دون نجاح مشروعى »
قال الباشا : « نعم .. ان المراقبين أوقفا النفقات غير الضرورية ، غير أن تشجيع الجرائد لايدخل فى أعمال المراقبة ،

هذا الى أن المراقبة قلمّا قيدت أعمال الخديو ، بل ان الوزارة التى أدخلت الدول فيهـا وزيرين أجنبيين أحدهمـا فرنسى ، والآخر انجليزى قلمّا أثرت فى بسط كفه »

قال عزيز : « وما رأى سعادتك فى الحكومة الشورية ؟.. ألا ترى انها قيدت أعمال الخديو ، فبعد أن كان الحاكم المطلق يمنح ويمنع دون معارض ، صار لمجلس النظار حق التـدخل فى كل الاجراءات » ..

فقال الباشا : « لا يعيقنك ولا يثن عزمك شىء ، وما دمت قد عزمت فتوكل على الله ، وما أنت فى احتياج الى الكسب » ..

قال عزيز : « حسنا .. ولكن لدى مسألة أخرى هامة أريد أن أعرضها على سعادتكم .. »

قال الباشا : « وما هى ؟ .. »

قال عزيز : « تعلم يا سيدى ان أبى ترك لى مالا طائلا ، وليس بين ذوى قرباى من يصلح لتولى ادارة هذه الأموال وأكون على ثقة منه ، ونظرا لمـا هو مشهور عن حسن توجيهاتكم أتيت لاستشارتكم فيما أفعل .. »

فاشتم الباشا من كلامه رائحة الربح الكثير ، ولا سيما اذا قدر له أن يكون هو الوصى عليه ، فقرب كرسيه منه وقال له : « يعز علىّ أيها الحبيب ألا أساعدك فى هذا الأمر ، لأن الأمناء قليلون ولا سيما فى هذه الايام .. على انى سأبحث عمن يصلح لذلك ، فان لم نوفّق الى كفؤ أمين ، فانى أتعهد بأن أقوم لك بهذه

الخدمة لأن أباك ــ رحمه الله ــ كان من أحب أصدقائى .. »

فقاطعه عزيز متلهفا وقال : « انها لمنة كبرى من سعادتكم ولكنى أخشى أن يكون فى ذلك اثقال عليكم .. على انّى اذا أسعدنى الحظ بوصايتكم الرشيدة ، فانى أعاهد سعادتكم على رفع هذا العبء عنكم عقب زواجى مباشرة باذن الله »

فكاد الباشا يطير فرحا لعلمه بوفرة الثروة التى آلت الى عزيز من أبيه ، وأنه اذا تولّى الوصاية عليه فسيكون حرًّا التصرف فيها ، ولا سيما اذا تمكن من تحبيب ابنته اليه وتزويجه بها . ولما تصور ذلك اختلج قلبه سرورا ، وتضاعف احترامه لعزيز فقدم له « سيجارة » وتبسط فى الحديث معه . بينما أخذ هذا يدخن وينتقل بنظره من جهة الى أخرى ، ثم يرفع منظاره ويمسحه بطرف منديله ، وفكره مشغول بالبحث عن وسيلة يعرقل بها مساعى شفيق ، ويحول دون استمرار الحب المتبادل بينه وبين فدوى ..

وفيما هما كذلك ، جاء بخيت وقال : « ان سيدتى عادت الى شرفتها يا سعادة الباشا »

فقال الباشا : « حسنا » .. فحنى بخيت رأسه اجلالا وخرج. أما عزيز فعلم ان خروج فدوى لم يكن الا لمقابلة شفيق خارج المسرح .. فازداد حسدا له ، وأعمل فكره حتى اهتدى الى حيلة رأى انها كفيلة بتحقيق هدفه ، فقال للباشا : « هل الأغا الذى خاطب سعادتكم الآن من أتباع فدوى هانم ؟ .. »

فبهت الباشا وقال : « نعم .. وهى ابنتى وكانت قد خرجت بعد استراحة الفصل الأول للترويح عن نفسها ، ثم رجعت .. »

فتظاهر عزيز بالدهشة وقال : « فدوى هانم ابنة سعادتكم ؟»

قال الباشا : « نعم .. هى ابنتى ، هل رأيتها قبل الآن ؟ .. »

فقال عزيز : « عرفتها مصادفة » . وسكت ، فانشغل قلب الباشا ، وطلب الى عزيز أن يبين له كيف كان ذلك ، فتظاهر هذا بالامتناع عن الاجابة ، وقال : « ليس فى الأمر ما يوجب الاهتمام » . فلما ألح عليه الباشا قال : « الحق انه يجب علىّ حبا فى مصلحة سعادتكم ، وصيانة لشرف كريمتكم ، أن أوجه التفاتكم الى أمر هام ، وهو ضرورة العناية بأمر ابنتكم العزيزة، لأنها جوهرة ثمينة لايكفى أن يعهد بأمرها الى الأغوات والخدم ، لأن الأمين بينهم قليل »

فقال الباشا : « صدقت ياعزيزى ، لكنى قد عهدت بأمرها الى أفضل من عرفت من بين هؤلاء ، وبخيت الذى رأيته الآن خادم أمين صادق يحب الفتاة حبا جما ، ويبذل حياته فى المحافظة عليها ، وقد ظهرت أمانته فى ظروف مختلفة » ..

فقال عزيز : « على كل حال ، ليس ما أبديته سوى نصيحة عامة .. وحسبنا هذا الآن ، وعسى أن نلتقى مرة أخرى للمفاوضة فيما دار بيننا » ..

فقال الباشا : « حبذا لو أتيت الىّ فى منزلى غدا » .. ثم نهض عزيز مودعا وانصرف واثقا بأنه ترك فى قلب الباشا أبلغ

الأثر ، بما أظهره من الرقة واللطف والثقة به ، وغيرته على ابنته ..

أى شىء يكون أقبح مرأى
من صديق يكون ذا وجهين ؟
من ورائى يكون مثل عدوى
وهو اذ نلتقى يقبل عينى !

خرج عزيز وترك الباشا يفكر فيما سمعه عن ابنته وقد وجه انتباهه من ذلك الحين الى مراقبتها ، وان كان واثقا بتعقلها وعفافها ، فلم يمنعها شيئا مما اعتادته من حرية الخروج للتنزه ومقابلة صديقاتها .. على أن الجانب الأعظم من اهتمامه كان منصرفا الى ما أمله من الكسب اذا تولى الوصاية على أموال عزيز

وكان بخيت قد سمع كل ما دار بين الباشا وعزيز من الحديث ، فسارع قبل خروج عزيز الى مقابلة شفيق ، وقص عليه حكاية صديقه موجزة ، ثم قال : « لابد من تأجيل اجتماعك بسيدتى ريثما تذهب الشبهة عنها »

فبهت شفيق ، ولكنه لم يقطع بأن مقابلة عزيز للباشا كانت للوشاية به ، وذلك لأنه كان حسن النية ، مصدقا لما وعد به عزيز خلال عودتهما من الجزيرة من معاونته على الزواج بفدوى

ومضى عزيز الى الشرفة التى كان فيها مع شفيق ، فلما لم يجده فيها أخذ يبحث عنه حتى لمحه يتحدث مع بخيت ، فأدرك أن هذا أبلغه كل ما حدث ، لكنه تغاضى عنهما حتى افترقا ثم سار الى شفيق وبادره قائلا وهو يظهر الخجل : « اعذرنى

ياعزيزى اذ أطلت الغياب ، وستعلم نبأه بعد قليـل . والان قد انتصف الليل وانقضى التمثيل ، فهيا بنا نكمل سرورنا بمشاهدة احتفال فتح الخليج .. »

فقال شفيق : « كفانا ما شهدناه الليلة .. ولاشك أن أبى الان فى قلق عظيم لتأخرى ، وقد أنهكنى السهر لأنى لم أتعوده .. »

فقال عزيز ساخرا : « لا يجمل بأحد أن ينام الليلة وهى ليلة فتح الخليج ، أما والداك فما أظنهما يقعدان عن الذهاب لمشاهدة الاحتفال ، فأهل القاهرة جميعـا صـغارا وكبارا يحرصون على مشاهدة هذا الاحتفال .. »

وما زال يحاول اقناعه حتى بلغا مكان العربة فأمسك بيـده وأجلسه فيها ، ثم جلس بجانبه .. ومضت العربة بهما الى فم الخليج ، وكلاهما تائه فى عالم هواجسه

وكانت هـذه أول مرة شعر فيها شفيق بالارتياب فى صـداقة عزيز ، فأراد مكاشفته بما سمعه عنه لئلا يكون متجنيا عليه ، وقال له والعربة منطلقة بهما : « ان الصداقة التى بيننا تقضى على بمكاشفتك بأمر سمعته عنك ، وأرجو ألا يكون صحيحا »

فقال عزيز : « ماذا بلغك ؟ »

قال شفيق : « بلغنى أنك تركتنى وذهبت لمسـامرة احـدى النساء ، وقد أفضى بك الأمر الى الحديث مع بعض الناس بمـا لا يتفق ومصلحتى .. »

فنزع عزيز « سيجارته » من فمه متظاهرا بأنه يتميز غيظا ،

وقال : « انى مسرور لمكاشفتك اياى بما فى ضميرك أيها العزيز ، وسأطلعك على حقيقة الأمر ليتحقق لديك صـدق طويتى لك ، فانى لم أفعل الا ما فيه مصلحتك ، وفاء بوعدى لك بعد أن توسمت ميلك الى فدوى على أثر انقاذك اياها . وقد سعيت لتيسير أمر زواجك بها ، وسلكت لذلك سبيل الحكمة والتعقل ، فقابلت عجوزا محنكة ، لها المام تام بدخائل بيت الباشا ، فأشارت على بمقابلته والتلطف معه فى الحديث ثم التطرق الى الغرض المنشود . وعلى هذا قابلته ونبهته الى وجوب العناية بابنته وعدم السماح بخروجها وحدها . وكنت أرجو أن يسألنى عن الخطر الذى يترتب على ذلك ، فأنتهز الفرصة ، وأذكر له ما كان من أمر انقاذك اياها من خطر العار والموت ، ثم استطرد الى ذكر صفاتك وألمح الى جدارتك بالزواج بها ، ولكنى لم أستطع الوصول الليلة الى هذا الحد ، وسأعود الى ذلك فى فرصة أخرى » ..

وكان عزيز يتكلم مظهرا السذاجة والاخلاص التام ، فلم يسع شفيق الا أن يصدقه وقال : « انى غير طامع فى الظفر بالفتاة ، لبعد ما بينى وبينها »

فالتفت عزيز اليه مظهرا الدهشة وقال : « انك جدير بها وبأعظم منها ، لا أقول ذلك تحقيرا لها فى عينيك لأنها فتاة غنية وقد زينها الله بكمال الذات والصفات ، ولكنك أيضا شاب نادر المثال بعلمك وأدبك وفضلك ، ولو أنك طلبت يد أية فتاة من

بنات الكبراء لنلتها ونلت معها مالا وافرا ، فهذا العصر — كما تعلم — عصر الشبان ، وهم الذين يحصلون على المهر الان لا الشابات » ..

فقال شفيق ساخرا : « ان العلم والأدب والذكاء وما اليها من الفضائل جواهر لا تباع ولا تشترى ، ثم ان (الدوطة) ليست من عاداتنا نحن الشرقيين ، وان فتاة فى جمال فدوى وكمالها وأدبها لا تحتاج الى دفع مهر ، بل ليس أسهل عليها من أن تجد من بين أولاد الأثرياء من يدفع لها أكبر مهر »

فتبسم عزيز وهو يتقد غيرة وحسدا ، وعمد الى تحقير فدوى فى عينى شفيق ، فقال له : « لا أنكر عليك شيئا من ذلك ، ولكن لدى ملاحظة أرجو أن تسمح لى بابدائها ، وهى أن فتاة مثلها لم يكن يحسن بها أن تبقى بالجزيرة وحدها فى الليل الدامس ، وأن تعرض نفسها للخطر الذى عرفته .. »

فشبت نيران الغيرة فى قلب شفيق ، وأحس كأن الاهانة لحقته هو ، ولم ير بدا من دفعها عن مالكة لبه ، فقال وقد بدت علامات الخجل على وجهه : « انها لم تذهب الى الجزيرة لتبقى هناك الى المساء ، وأنت نفسك أخبرتنى بأن سائق مركبتها تواطأ مع الجانى الأثيم على بقائها هنـاك ، فليس فيما حدث ما يحط من قدر أدبها وتعقلها » ..

فلما رأى عزيز ما يتخلل كلام شفيق من الغيرة الشديدة على فدوى ، تلوى مثل الحية ، واشتعل فؤاده حقدا .. لكنه كظم

غيظه ، وخشى ان هو اختلق عليها أكذوبة أخرى أن يقع فى شر أعماله فينكشف أمره وتحبط مساعيه ، فصمت وأخذ يتشاغل بتقليب عصاه فى يده ثم قال : « لم أقل لك ياعزيزى انها بقيت فى الجزيرة حتى ذلك الحين باختيارها .. وانما قلت : ان ذلك التأخير ربما أضر بسمعتها »

قال عزيز ذلك اخفاء لما كاد يظهر من غيظه وغيرته ، ولكن قلبه مابرح يزداد بغضا وحسدا لشفيق حتى حدثته نفسه بأن يفتك به ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك لعلمه أن شفيقا أشد منه بطشا ، فعمد الى الحيلة شأن الضعيف ساقط الهمة المرذول

وصلت العربة بشفيق وعزيز الى ساحة فم الخليج ، وقدانفض الاحتفال ولم يبق فى الساحة الا نفر قليل .. فسر شفيق لذلك ، لأنه كان قلقا لتأخره عن العودة الى والديه ، فقال لعزيز : « هيا بنا ، فقد انقضى معظم الليل وأنا موجس خيفة من قلق والدى على .. »

قال عزيز : « انى أضن بفراقك ياعزيزى ، لأنى لا أفرح الا بمشاهدتك . وقد كانت هذه الليلة لدى من أسعد الليالى . أما وأنت مصر على العودة الآن ، فانى سأصحبك الى المنزل » .
قال ذلك وأمر السائق فمضى بالعربة الى شارع العباسية . وجلسا صامتين فى العربة حتى وقفت أمام باب منزل شفيق ، فسمعا صوتا من احدى النوافذ ينادى : « شفيق .. شفيق .. » فعرف شفيق أنه صوت والدته ، فأجابها بقوله : « لبيك يا أماه »

فقالت : « ما هذا التأخير يا ولدى ؟ .. ألا تدرى أن والديك على أحر من الجمر لطول غيابك . ماعهدتك تصنع مثل هذا » وهرولت للقائه ، فأسرع اليها عزيز وهمّ بتقبيل يديها احتراما فأبت ذلك وردت تحيته ، لأنها لم تكن مسرورة من مرافقتـه لابنها ..

ثم التفتت الى شفيق وقالت له : « هل يليق يا ولدى أن تطيل علينا الغياب دون أن تخبرنا بذلك ؟ .. »

فأجابها شفيق متعجبا : « ألم يبلغكما خبر ذهابى مع صديقى عزيز الى احتفال فتح الخليج ؟ .. »

قالت الأم : « نعم .. لم يبلغنا » فأطرق عزيز متظاهرا بالـكدر ثم قال : « عفوا ياسيدتى ، لابد أن خادمى قد نسى أو توانى فى ابلاغكم الخبر ، وسأعاقبه على ذلك بطرده » . ثم ودعهما وخرج

وسألت سعدى شفيقا : « ألم تقابل أباك يابنى ؟ .. لقد خرج للبحث عنك .. »

فقال شفيق : « لم أقابله يا أماه .. وانى لآسف لما حملتكما من المشقة فى هذه الليلة ، على أنى لم أتأخر الا لوثوقى بابلاغكما خبر ذهابى الى فم الخليج » . فسكتت حتى دخلا المنزل ، ثم سألته : « هل تناولت العشاء ؟ .. »

قال شفيق : « نعم .. »

فقالت الأم : « أما نحن فلم نذق طعاما ولم نعرف طعما للنوم حتى الآن .. » ثم أخذته الى حجرة المائدة ودعته الى الجلوس

لتناول الطعام معها ريثما يعود أبوه ، وجلسا يتناولان الطعام ويتحدثان . فلما أبطأت عودة ابراهيم أعرب شفيق عن قلقه لذلك ، فقالت له أمه : « لعله تأخر لشاغل هام » . ثم سألته عن سبب تأخره هو على غير عادته ، فقال : « ألم أقل لك اننا كنا نشاهد الاحتفال بفتح الخليج .. »

فقالت الأم : « لم أعهد فيك أن تقول غير الواقع ، فقل لى : ماسبب تأخيرك لأنى أعلم أنك لم تكن هناك ؟ .. »

فتعجب شفيق لمعرفتها ذلك وقال : « معذرة يا أماه ، وسأقص عليك الخبر على أن تبقيه سرا ، ولا تطلعى عليه أحدا حتى أبى » ثم قص عليها الحكاية من أولها الى آخرها ، وهى مقبلة على سماعها مستغربة ما صادفه من الحوادث . ولما وصل الى حديث الفتاة احمر وجهه حياء وكاد يمتنع عليه الكلام ، فازدادت أمه دهشة وخشيت عليه من ذلك الغرام ، وهو ما يزال يافعا غض الشباب ..

فقالت الأم : « وكيف أحببتها لأول نظرة وأنت لا تعرف عنها شيئا ؟ .. »

قال شفيق : « أعترف لك يا أمى بأنى أجهل السبب ، ولكنى شعرت نحوها بما لم أشعر به نحو أحد فى هذا العالم ، ولا أخفى عليك أيضا أنى لمست من محبتها لى مالا يقل عن ذلك ، ولكن آه يا أماه » .. قال هذا وكاد يغص بالطعام ، فبادرته أمه قائلة : « لا بأس عليك ياولدى .. مم تشكو ؟ .. »

فترقرقت عيناه بالدموع وقال : « اعذرينى يا أماه .. انى لا أملك حواسي » ..

فقالت الأم : « لا بأس عليك يا بنى ، هون على نفسك ولا تخْف علىّ ما بك .. »

قال شفيق : « انى أحبها يا أماه حبا مفرطا » .. ولم يكف عن البكاء ، فخشيت عليه أمه عاقبة الانفعال .. فأكبت عليه وضمته الى صدرها وقبّلته قائلة : « لا تخجل ياولدي .. ان المحبة اذا اقترنت بالشرف والشهامة لم يكن فيها ما يُخجل ، فسكن روعك واشرح لى كيف تحاببتما ؟ .. »

قال شفيق : « انى أحبها يا أماه حبـا لا أعرف كيف نشأ ، ولـكنى أحس أن له تأثيرا على كل جوارحى وكأنه جـرى فى مفاصلى .. »

فقالت الأم : « كأنى بك تميل الى الزواج منها ؟ .. »

فأطرق شفيق حياء ، ثم رفع وجهه والدموع ملء عينيه وقال : « نعم يا أماه .. انى أميل الى ذلك ، ولكن ماذا ينفع هذا الميل وبينى وبينها فرق عظيم ،وأنا لا أعلم حقيقة مستقبلى ؟ .. »

فرق قلبها له وغلب عليها الحنان ، فقالت : « انى أعرف الفتاة يا ولدى ، وقد سمعت عن أدبها ولطفهـا وذكائهـا من احـدى جاراتنا ، ولا ألومك على حبك لها . لكن لايخفى عليك أن الفتاة من عائلة عريقة الحسب والنسب وذات ثروة عظيمة ، فاجتهد لكى تكون رجلا عظيما جديرا بها ، ولا يأخذ منك اليأس مأخذه ،

فما دمت ذكيا مهذبا صادق القول صحيح المبادىء مقداما فلن يمنعك مانع من الارتقاء واجتياز كل ما يعترضك من الصعاب . ومما يساعدك على نيل طلبك أن حبكما متبادل ، فلا خوف اذن من ميلها الى سواك .. »

فسرى عنه وقال : « ان كلامك أيتها الوالدة الحنون قد أثار فى نفسى أشرف المبادىء ، وسما بأفكارى الى درجة لا أرضى معها التزلف والمذلة ، ولكن آه يا أماه .. أين أنا الان مما تقولين ؟ .. ومن لى بالصبر حتى أتبين مستقبلى ؟ .. »

فقالت الأم : « ان الحب يصنع المعجزات ياولدى ، فكن حازما واعلم أنك لن تنال مرادك الا اذا اجتهدت ونبغت فى دراستك ثم صرت ذا منصب يفى باحتياجاتك ، لأن أباها لا يزوجها طبعا الا لمن يماثلها ثروة ، أو لمن هو من رجال الأعمال ، وما أظنك ترضى أن تعيش على مال أبيها »

فقال شفيق : « كلا يا أماه ، وما أحسبها تبادلنى الحب ان لم أكن كفؤا لها .. على أنها لو رضيت ذلك فأنا لا أرضاه .. »

قالت الأم : « بورك فيك يابنى ، وماذا تعتزم أن تفعل بعد تخرجك فى المدرسة ؟ .. هل تفضل المحاماة أم الطب ؟ .. »

فتنهد شفيق وقال : « ان المحاماة تقتضى أن أدرس لها سنتين فى أوربا ، أما الطب فدراسته تستغرق ست سنوات أو خمس سنوات على الأقل »

فقالت الأم : « كيف يمكننا الصبر على بعدك سنتين وقد

رأيت قلقنا عليك الليلة ، أما الطب فربما استطعت الانتهاء من دراسته فى أربع سنوات »

فقال شفيق : « كل شىء بيد الله يا أماه » . ثم نظر الى الساعة فاذا هى الثالثة بعد منتصف الليل ، فأبدى قلقه لتأخر أبيه . ثم دخل الخادم وقال : « بالباب شرطى معه كتاب لك ياسيدتى .. »

فقالت الأم : «هاته» .. فلما جاءها به دفعته الى شفيق قائله : « انه من المعية السنية » . وارتعدت فرائصها واغرورقت عيناها بالدموع ..

فقال شفيق : « ما الداعى لهذا ، ونحن لم نطلع على مضمونه؟ أتأذنين لى بفضه ؟ » . فأومأت برأسها موافقة

وفضه شفيق فاذا هو من أبيه يقول فيه : « لا تقلقى لغيابى الليلة ، لأنى دعيت وأنا خارج من البيت الى المعينة السنية ، وسأبقى بها الى غد .. فاكتبى لى مع حامل هذه الرسالة عن سؤالى .. هل جاء شفيق أم لا ؟ .. » فلما قرأ الكتاب زال اضطرابهما وقلقهما .. ثم ردا على الكتاب ، وسلما الرد للشرطى ، فانصرف به عائدا من حيث جاء . وبعد أن لبثا صامتين قليلا اقترب شفيق من والدته وسألها : « مامعنى هذه الدعوة فى مثل هذا الوقت ؟ .. وما علاقة أبى بالمعية السنية ،وهو ليس من مستخدمى الحكومة المصرية ولا من أصحاب الأملاك ؟ .. »

فقالت الأم : « لا يخفى عليك ياولدى ان أباك منمستخدمى قنصلية انجلترا ، وان لهذه الدولة مطامع فى مصر تسعى لتحقيقها

بالاشتراك مع فرنسا ، مما أصبح معه مركز الخديو فى خطـر ، وبما أن أباك من محبى الحكومة المصرية فلعل المعية استقدمته لمباحثته فى بعض تلك الشئون ، كما فعلت مثل ذلك من قبل . ولهذا لا خوف عليه باذن الله ، وانما خشيت أول الأمر أن تكون الدعوة من الخديو رأسا ، ولاتخفىعليك عواقب مثـل هـذه الدعوة » ..

ثم نهضا وغادرا حجرة المائدة للنوم ، ولم يبق من الليل الا القليل ..

قضى شفيق بقية ليلتــه يفكر فى فدوى ، وفيما دار عنها من الحديث بينه وبين والدته . وقد اطمأن قلبها على ولدها وزوجها فعادت الى التفكير فى أمر الصندوق ، وساءها أن تأخر فتحـه بسبب ماحدث تلك الليلة وصممت على محاولة فتحه عقب عودة زوجها ..

وفى الصباح التالى عاد ابراهيم الى المنزل سليما معافى ، وما رأى شفيقا حتى سأله عن سبب تأخره بالأمس ، فاكتفى هذا بأن أخبره بأنه كان يشاهد الاحتفال بفتح الخليج ولم يخبره بأمر فدوى ، فعنفه أبوه على ذهابه دون علمه ، فاعتذر شفيق ملقيا التبعة على خادم عزيز ، وأيدته أمه فى ذلك . ثم مضى شفيق الى المدرسة كعادته ، فما كاد يغادر المنزل حتى طلبت سـعدى الى زوجها أن يفتح الصندوق حسب وعده

فقال ابراهيم : « أنصح لك ياسـعدى أن تعدلى عن هـذا

الأمر .. »

فقالت سعدى : « انك كلما زدت تمنعا ، لم تزدنى الا رغبة فى فتحه » ..

فقال ابراهيم : « لست أجهل ذلك ، ولكنى مازلت أنصح لك بالكف عن هذا الطلب » . ولما أصرت سعدى على فتح الصندوق أخرج من جيبه مفتاحا صغيرا ، ثم التفت يمنة ويسرة للتحقق من خلو المكان من الرقباء ، وتناول الصندوق ووضع فيه المفتاح ويده ترتعش ، وسعدى تحدق فيه ببصرها .. فلما رفع الغطاء انتشرت منه رائحة كريهة ، لكن سعدى لم تبال ، وأطلت لترى مافيه فلم تجد سوى خصلة من الشعر قد اغبر لونها لطول عهدها بالصندوق ، ومدت يدها لتلمسها فمنعها قائلا : « حسبك النظر ولا تمدى يدك » . فكفت يدها وتفرست فى شعر تلك الخصلة فاذا هو كث يتخلله أثر دماء ، فأخذتها الرجفة وامتقع لونها ، ومالت الى معرفة سر تلك الخصلة ، لكنها لم تجرؤ على مخاطبة زوجها فى هذا الشأن لما اشترطه عليها من قبل ، فسكتت وبقيت عيناها معلقتين بالخصلة الرهيبة العجيبة ، حتى أغلق زوجها الصندوق وأعاده الى مكانه

ولاحظ عليها شدة التأثر فقال : « هل رأيت كيف ازددت قلقا ؟ .. »

فقالت سعدى وقد زاد اضطرابها : « نعم .. وسأبقى فى قلق عظيم ان لم تطلعنى على سر تلك الخصلة ، ولاشك فى أنى

الجانية على نفسى ، لكنك أرحم بى من أن تتركني نهبا لهذا القلق المقعد المقيم » ..

فنظر اليها وعلى وجهه أمارات الحزن والكآبة كأنه تذكر مصائب قديمة كانت قد نسيت على طول المدى ، ثم قال لها : « لقد أخلصت لك النصيحة فلم تقبلى ، فأنا برىء من تبعة ما تقاسينه من القلق .. على كل حال لابد من مجىء وقت أطلعك فيه على ذلك السر مفصلا ، فأقصرى ناشدتك الله .. اذ لا فائدة من الحاحك وليس الأمر فى يدى » . قال ذلك ونهض فبدل ثيابه وخرج الى عمله . وترك سعدى مشغولة الخاطر منقبضة النفس ، وقد تحولت طلاقة وجهها الى عبوس ، ولم يكن ابراهيم أقل منها انقباضا ، وقد زاد فى قلقه تذكره أحزانا كادت تزول من ذاكرته

— ٣ —

بعد الامتحان

مضت أسابيع وعزيز يتردد على الباشا مواصلا الحديث معه فى أمر ادارة ثروته ، ثم حان موعد الامتحان فى المدرسة الثانوية ، وتم ذلك باحتفال شائق فى سراى درب الجماميز حضره الخديو يحف به الوزراء والأعيان كالعادة ، وتقدم التلاميذ للامتحان الشفوى فى حضرته ، فكان يراقب مقدرة كل منهم ، الى أن جاء دور شفيق فأحسن أجوبته مما إسترعى انتباه الخديو ، فأعجب بذكائه وفطنته وبما يزينهما من الرزانة والكمال ،

فدعاه اليه على مشهد من الحاضرين وسأله : « ما اسمك ؟ » .
فقال شفيق : « عبد سموكم شفيق ابراهيم .. »
وأسر كبير الياوران الى الخديو قائلا : « ان أباه من مستخدمى قنصلية انجلترا » . فابتسم الخديو مظهرا انه يعرفه ، ثم التفت الى شفيق قائلا : « أحسنت يابنى أحسنت » . ثم صرفه فعاد الى مكانه فرحا لما ظفر به من اعجاب الخديو ، وتصفيق الحاضرين تهنئة له ..

وعلى أثر انتهاء الاحتفال دعا ناظر المدرسة اليه أبا شفيق ، وكان بين الحاضرين ، فأبلغه أن الخديو أمر بارسال شفيق الى أوربا لاتمام دراسته فيها على نفقة الحكومة ، فتلقى ابراهيم هذه البشرى بالدعاء للجناب العالى ، وبدت على وجهه علامات السرور لما حازه ابنه من رضا ولى الأمر ، ثم أتى شفيق الى أبيه وقبل يده ، وخرجا والناس ينظرون الى شفيق معجبين بنباهته وذكائه ، ولا سيما أنه رغم فوزه لم تأخذه هزة الطرب ، أو تبد على وجهه علامات الخفة

أما عزيز فكاد حسده وحقده يقضيان عليه.. ولكنه كظم غيظه وهنأ شفيقا بما ناله من الانعام والتقدير السامى

وكان فرح سعدى عظيما بنجاح ابنها ، وان ساءها انه سيفارقها الى أوربا .. وقد أخذ شفيق يخفف عنها ويهون عليها ، وقال لها : « لا يخفى عليك يا أماه أننى حين أعود بعد ثلاث سنين أو أربع متمما دراسة المحاماة ، سيسهل على الظفر بأحد

المناصب الهامة فى القضاء التى يتمناها-كثيرون فلا ينالونها »
فقالت سعدى : « ومتى يكون السفر ؟ »
قال شفيق : « ما أظن أنه يكونِ قبل بضعة أسابيع » . فسكتت مسلمة الأمر لله ..
وكان الباشــا أبو فدوى ممن حضروا الامتحان ، فأعجب بنبوغ شفيق وذكائه ولطفه..فلما عاد الى بيته وجلس الى المائدة مع أسرته ، أخذ يروى ما شاهده فى الامتحان ، وأطنب فى الثناء على شفيق ، فلمــا سمعت فدوى اسم مالك لبها اختلج قلبهــا فتشاغلت بتقطيع فاكهة كانت أمامها ، ولم ترفع نظرها الى أبيها اخفاء لمــا كاد يظهر على وجهها من علامات الوجــد ، وأنصتت لتسمع بقية الحديث ..
وفى صــباح اليوم التــالى تلقفت جريدة الأهرام وأخــذت تتصفحها حتى استقر نظرها على رسالة العاصمة ، فقرأت فيها : « قد أنعمت الحضرة الفخيمة الخديوية علىجناب الشاب الأديب شفيق أفندى ابراهيم ، بالبعثة الى الديار الأوربيــة لدرس فن المحاماة فى أعلى مدارسها ، على نفقة الحكومة السنية . وذلك لما شاهده سموه من ذكاء هذا الشاب ونشاطه » فاختلج قلبها فرحا لعلمها أن شفيقا متى صار قاضيا كان جديرا برضاء أبيها وقبول خطبته لها .. لكنها أشفقت أن يكون فى غيابه ما يضعفه حبه لها ، فذهبت الى حجرتها ودعت بخيتا لتطلعه على ما خامر قلبها من الوساوس .. ولم تكن تستطيع أن تكاشف بأسرارها

أحدا من الناس الا هذا العبد الأمين ، فقالت له : « هل سمعت بما تم فى أمر شفيق ؟ .. »

قال بخيت : « نعم .. قرأت ماجاء عنه فى جريدة الأهرام .. »

فقالت فدوى : « ان نجاحه قد سرنى وزاد قدره فى عينى ، غير أن سفره الى أوربا قد يمتد الى أربع سنوات ، ولا يدرى أحد ماياتى به الزمن خلالها . وقد قيل : (الدهر متقلب) وأوربا بلاد تشغل الأم عن رضيعها كما تعلم » . ثم تنهدت ونظرت الى بخيت كأنها تستطلع رأيه ، فبـادرها قائلا : « انى قد آنست ياسيدتى من شفيق شهامة ومروءة فوق ماسمعت عنه ، فاذا هو عاهدك لاينكث بعهده ، فقلب المحب الصادق لايميل الى غير حبيبه ، وقد فهمت أنه يحبك مثل حبك له أو أكثر... فان رأيت ان اتفق معه على موعد تجتمعان فيه ، لعلك تثنيه عن السفر ، فذلك أمر يسهل على تحقيقه »

فأطرقت برهة ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « حسـنا تفعل يابخيت ، ولكن يحسن أن تترقب فرصة يكلفك فيها أبى قضاء أمر ما خارج المنزل ثم تتوجه الى شفيق ، فان أبى يراقبنا كما تعلم منذ اجتماعه بذلك الشاب المتفرنج »

فقال بخيت : « لعل الاحتفال بالمولد أفضل فرصة لاجتماعكما ولكنى أخشى أن يذهب سيدى الباشا اليه أيضـا وعلى هذا أرى أن تذهبى بمركبتك الى قصر النزهة فى نهاية شارع شبرا ، وليكن ذلك فى اليوم العاشر من هذا الشهر ، وهناك تجتمعان فى

الحديقة ويخلو لكما الجو »

فقالت فدوى : « نعم الرأى ما رأيت »

خرج شفيق من بيته فى اليوم العاشر من الشهر ، قاصدا الى العباسية للترويح عن نفسه . وكان يسير مطرقا كمن يفكر فى أمر ذى بال لا يحول بصره الى شىء من البنايات المزخرفة والحدائق الغناء التى على جانبى الشارع ، لانشغاله بتصوراته الغرامية ، وبينما هو على هذه الحال اذ اعترضه بخيت وألقى عليه التحية ، فرفع بصره اليه .. وما عرفه حتى خفق قلبه شوقا وهياما الى مالكة روحه ولبه ، ثم سأله : « ما وراءك ؟.. »

فقال بخيت : « جئتك بأمر من سيدتى ، وقد أسعدتنى الصدف بلقياك هنا » ..

قال شفيق : « هات ماعندك »

قال بخيت : « ان سيدتى قرأت فى جريدة الأهرام نبأ الانعام عليك من الحضرة الخديوية ، فسرت لفوزك وان ساءها قرب سفرك الى أوربا »

فقال شفيق : « ان للضرورة أحكاما .. وماحيلتى ، والمثل يقول : (تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن) ؟ .. »

قال بخيت : « انها تود مقابلتك قبل سفرك »

فظهرت علامات الدهشة والاستبشار على وجه شفيق ، وقال: « متى ؟.. وأين ؟.. ألم تحدد الزمان والمكان ؟ .. »

قال بخيت : « فى أصيل اليوم بقصر النزهة فى شبرا .. »

فقال شفيق : « سأكون هناك فى هذا الموعد ، فأبلغها هذا مع تحيتى وأشواقى » .فودعه بخيت وعاد ليخبر سيدته بما كان ..

وفى الموعد المحدد ركب شفيق عربة مضت به الى شارع شبرا ، وهو يومئذ من أجمل متنزهات القاهرة ، يشرف على أرض قليلة السكن تتخللها مروج خضراء وحدائق غناء ، وعلى جانبية أشجار باسقة ملتفة الاغصان . وكان الخديو يخرج الى هذا الشارع فى موكبه كل يوم جمعة تتبعه جماعات من الأمراء والعظماء فى مركباتهم .. فيزدحم الناس هناك لمشاهدة الموكب . أما فى الأيام الأخرى ، مثل اليوم ، فلا يكون روّاد الشارع كثيرين . فلما وصلت العربة الى قصر النزهة لم يحاول أن يدخله لعلمه بامتناع ذلك الا على بعض الناس ، ونظر الى الساعة فاذا موعد الاجتماع ما زال ممتدا الى نصف ساعة ، فأمر السائق بأن يمضى بالعربة للنزهة فى تلك المنطقة ريثما يحين الموعد

ولما اقتربت العربة من منتصف الشارع ، شاهد عربة فدوى مقبلة من بعيد ، فخفق قلبه وأخذته رجفة الحب ، وعلا وجهه احمرار الخجل ثم أعقبه اصفرار الوجل . وفيما هو كذلك رأى فارسا ملثما قد اعترض سائق عربتها وأمره أن يعرج بها الى مضيق هناك ، فأدرك أنه يريد شرا بحبيبته ، فارتعدت فرائصه من الغيظ واشتعل قلبه غيرة عليها ، فأمر سائق عربته بالاسراع حتى وصل الى ذلك الموضع ، وصاح بذلك الفارس الملثم قائلا :

« مكانك أيها الوغد،كيف تجرؤ علىاعتراض طريق السيدات؟»
وهم بالنزول من العربة ، لكنه رأى ذلك الفارس الملثم وقد حول عنان جواده وولى هاربا ، فبقى فى العربة وأومأ الى فدوى بالتحية ، فردت تحيته بمثلها ، ثم انطلقت العربتان حتى وقفتا أمام القصر ، ونزل بخيت ليدبر وسيلة للدخول ، ولبث شفيق وفدوى فى انتظار عودته وهما يتبادلان النظرات وفيها ما يغنى عن كل بيان ، وان كان خوفهما من عيون الرقباء قد حملهما على أن يكون ذلك بحساب

وفيما هما فى ذلك ، اذ سمعا قعقعة عربة قادمة فحولا بصرهما اليها ، وشد ماعجب شفيق اذ تبين انها عربة عزيز ، فأوجس خيفة من مجيئه ، كما تشاءمت فدوى منه ، وأنزلت ستار نافذة عربتها وهى ترتجف من الغيظ

وأوقف عزيز عربته بعد قليل بجانب عربة شفيق ، ثم نزل وحياه تحية المشتاق ، فلم يسع هذا الا رد التحية ، وان ثقلت عليه مقابلته . ثم اقترب منه عزيز وقال : « لقد سررت جدا لأئتلاف قلبيكما ، ولا أحب أن أثقل عليكما فاسمح لى بالذهاب»

فشكره شفيق وسأله عما جاء به الى هناك ، فقال : « خرجت للنزهة فأسعدنى الحظ بلقياكما مصادفة » . ثم ودعه وعاد الى عربته فانصرف بها ..

لم يكن مجىء عزيز مصادفة ، ولكنه كان منذ ليلة الأوبرا يرقب حركات فدوى بمساعدة العجوز دليلة ، فلما عرف انها

خرجت للنزهة فى ذلك اليوم تواطأ مع ذلك الفارس الملثم على أن يعترض طريقها لارهابها ، ثم يأتى هو لنصرتها وانقاذها ، معتقدا انها بذلك تحبه محبتها لشفيق ..وقد فعل ذلك وهو لايعلم شيئا عن الموعد المحدد بين الحبيبين . وكان مختبئا ، حين اعترض شريكه المجرم عربة فدوى .. فلما رأى شفيقا مقبلا لم يجرؤ على الظهور الا بعد انصراف المركبتين معا الى قصر النزهة ، حيث لحق بهما

وعاد بخيت متهللا الى فدوى وشفيق ، وأخبرهما بأن ليس فى القصر أحد من الحرس والخدم ، اذ خرجوا مع الجند الى نظارة المالية لطلب المتأخر من رواتبهم

فقالت فدوى : « ومتى كان هذا ؟ » . وتهيأت للنزول فأخذ بخيت بيدها وأنزلها ، ثم توجهوا جميعــا الى الحديقة ، وقال شفيق : « ان الجنود المصريين اتحدوا وبعثوا من ينوب عنهم الى سراى المالية يطلبون رواتبهم فأمسكوا برئيس النظار ، ثم انتهى الأمر بتفرقهم حالما شــاهدوا الخديو اسماعيل مطلا من احدى نوافذ السراى ، وخاطبهم بكلمات قليلة »

فقالت فدوى : « انى لم أسمع بحدوث مثل هذا من قبل »

فقال شفيق : « ان هذا لم يحدث الا بعد أن صارت الحكومة المصرية حكومة شورية »

وكانا يتحدثان وهما يسيران الهوينى نحو الحديقة ، وبخيت يتقدمهما ، فلما دخلاها وجداها حديقة غناء ملتفة الأشجار ، زاهية الأزهار ، يانعة الثمار ، تتخللها ممرات مفروشة بالرمال

والحصى ، والماء موزع فى جنباتها ، وفيها مرتفع صناعى يزيدها روعة وبهجة .. فسارا اليه ، ولم يدهشهما شيء من تلك المناظر الآخذة بمجامع القلوب لاشتغال فؤاديهما بما هو أسمى من ذلك

ونظر شفيق الى فدوى فاذا هى قد زادها خجل الحب بهاء وجمالا ، فأبرقت عيناها والتمع وجهها ولازمتها رجفة الحب فأطرقت ، ولم تقو على رفع نظرها اليه . ولم يكن هو أقل منها اضطرابا . وبقيا على ذلك حينا ، والحياء يمنع فدوى من النظر الى وجهه أو مخاطبته ، فأخذت تشغل نفسها بتلك المناظر لعلها تهدىء بعض الشيء من هياج عواطفها واضطرابها لأنها لم تتعود مجالسة الشبان ولا مخاطبتهم .. ولا سيما اذا كانت المجالسة على انفراد ، اذ عاشت عيشة التحجب المتبعة عند الأتراك .. فان أباها ، وان لم يكن منهم ، كان يتخلق بأخلاقهم ويحافظ على عاداتهم ، فشبت فدوى على ذلك

وما زالا على هذا الاضطراب حتى وصلا الى المرتفع ، وقد كساه الزهر وظلله الشجر .. فجلسا على مقعدين متقابلين يفصلهما ممر الحديقة الضيق ، ولبثا زمنا لا يجرؤان على افتتاح الحديث بل يكتفيان بالنظرات ، ثم تجلدت فدوى وقالت : « لقد سرنا ما قرأناه فى الصحف عن سبق أقرانك ونيلك انعام الخديو »

فأطرق شفيق خجلا ولم يجب بكلمة ..

فقالت فدوى : « على ان بعض الناس ساءهم هذا الأمر لما يترتب عليه من الاغتراب فى أنحاء الممالك الأوربية بضع سنين ».

قالت هذا وخنقتها العبرات ، ولكنها تجلدت وأحبت تمام الحديث فلم تستطع ..

وكان شفيق مطرقا ينكث الأرض بغصن جاف فى يده اخفاء لعواطفه ، فلما سمع منها ذلك أدرك مرادها ، فقال : « الحق ياعزيزتى انى لم أسر بهذا الانعام تمام السرور لأنه سيبعدنى عن أعز الناس ، وأنت عندى أعز الناس ، ولكن عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، ولعلى أوفق فى سفرى هذا بما يجعلنى أقرب الى استحقاقك مما أنا الآن .. »

فقالت فدوى : « انك فى الحقيقة فوق ما أستحق وأكثر مما أتمنى ، فنحن لانقدر الناس بأموالهم ، وانما بصفاء جوهرهم وحسن أدبهم وشهامتهم .. وأنت قد زينك الله بصفات نبيلة ، لو وزعت على جماعة لكفتهم .. بل انك غنى بالمواهب التى يختص الله بها من يشاء من عباده »

فالتفت اليها شفيق وقد تلعثم وقال : « ان الله اختصك بكمال الذات والصفات فلا يحيط بوصفك محيط ، لصفاء عنصرك وسمو أدبك » ..

فظهر اضطرابها جليا مع محاولتها اخفاءه ، وأخذت تحاول تخفيفه متظاهرة بالنظر لى أزهار الحديقة ، ثم أطرقت قليلا ورفعت بصرها الى شفيق وقالت : « انى عاجزة عن تقدير عواطفك الكريمة التى لا أستحقها » . ثم سألته : « الى أى بلاد أوربا تعتزم السفر ؟ .. »

فقال شفيق : « الى باريس فى فرنسا ، أو لندن فى انجلترا غالبا .. »

فقالت فدوى : « هل وافقت السيدة والدتك على ذلك ؟ .. »

قال شفيق : « نعم .. ولكن موافقتها ليست الا اذعانا لحكم الضرورة .. »

فتنهدت فدوى وهى مطرقة تنثر وردة بأناملها اللطيفة ، ثم قالت : « انى لأعجب كيف يمكنها البقاء لحظة بعيدة عنك ولكن .. » وسكتت كأنها تريد كتمان شيء ، فبادرها شفيق مستفهما عما سكتت عنه ، فقالت : « ولكن قد يمكنها الصبر على بعدك لأنها والدتك وأنت ولدها .. »

فقال شفيق مندهشا : « ماذا تعنين بذلك يا فدوى ؟ .. »

قالت فدوى : « لا أعنى شيئا وانما .. » وسكتت ..

فقال شفيق : « قولى يا عزيزتى ولا تكتمى عنى شيئا .. »

فهمّت فدوى بأن تجيبه فخنقتها العبرات ، وكأنها المقصودة بقول الشاعر :

ترنو اليه بعين الظبى مجهشة وتمسح الطلّ فوق الخد بالعنم

فازداد خفقان قلب شفيق ونظر اليها مشجّعا ، وأخذ يطيّب خاطرها ويخفف عنها حتى سكنت عواطفها قليلا ، فمسحت دموعها ورمته بسهم من لحظها كاد يقضى عليه ، فقرّب مقعده منها وخاطبها بألطف عبارة قائلا : « ألا تريدين أن تخبرينى بما عنيته بقولك ؟ .. »

قالت فدوى : « ان والدتك تستطيع أن تصبر على بعدك لأنها لا تخاف أن تتخذ لك والدة سواها ! »

وكانت فدوى تخاطبه وهى تكاد تذوب خجلا حتى انها لم تستطع أن ترفع نظرها اليه ، فأدرك ما ترمى اليه وقال : « لعلّى أولى منك بخشية المستقبل ، اذ قد يتهيأ لك من هو أفضل منى كثيرا .. »

فقالت فدوى وقد ظهرت على وجهها امارات البشر : « قلت لك اننا لا نقدّر الناس الا بما هم عليه من الأخلاق والمواهب .. والآن ما دمت مسافرا الى أوربا ألا تترك لنا تذكارا منك ؟ .. »

قال شفيق : « ألا يكفى انى سأترك قلبى ؟ .. »

قالت فدوى : « ذلك أكثر مما استحق ، وانما أريد منك تذكارا حسيا ، يبقى لدى شاهدا على ما دار بيننا .. »

فقال شفيق وقد بلغ منه الهيام مبلغا عظيما : « ماذا أعطيك وقد وهبتك قلبى وكل عواطفى ؟ .. » ثم أمسك بيدها وقال : « أعاهدك يا فدوى بالشرف والمحبة الطاهرة التى بيننا على أن أحافظ على حبك حتى الموت ، ولا أرضى عنك بديلا » . فأجابته فدوى ولسانها يتلعثم قائلة : « وما تذكارك عندى ؟ .. »

فقال شفيق : « ليس لدى الآن ما يليق بمقامك الا هذا .. » ثم قدم لها زرا من أزرار قميصه الذهبية منقوشا عليه الحرف الأول من اسمه فتأملته معجبة به ، ثم مدت يدها الى دبوس ذهبى مرصع كان فى صدرها ونزعته وقدمته له قائلة : « خذ هذا

الدبوس لتذكرنى كلما نظرت اليه .. »

فأخذه شفيق وتأمله فاذا هو على هيئة المرساة ، متقن الصنع لطيف الهيئة ، فتبسم ونظر اليها شاكرا وقال : « ان هذه المرساة رمز للأمل ، وأؤكد لك أن أملك فى محله »

دار بينهما كل ذلك الحديث ، وكل منهما يحذر أن يمس ثوب الآخر اجلالا للطهارة والعفة ، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فنهضا يتهاديان فى الحديقة والشمس ترمقهما مودعة من خلال الأشجار والأزهار ..

وفيما هما فى ذلك جاء بخيت مسرعا وقال لشفيق : « ودع سيدتى واخرج من الباب الآخر للحديقة ، وقد قلت لسائق عربتك أن يذهب وينتظرك هناك لأن سيدى آت ، فلعل أحدا وشى بكما اليه » . فودع شفيق فدوى على عجل وخرج مسرعا من الباب الآخر صيانة لشرفها ، وعرج من هناك حتى بلغ الشارع على مسافة من الحديقة .. فوجد العربة تنتظره فركب وعاد الى منزله ..

أما فدوى فتكدرت لهذه المفاجأة ، ولكنها تجلدت واستمرت سائرة فى الحديقة كمن يتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة وبخيت بجانبها ، ثم سارا يريدان الخروج .. فاذا هما بأبيها يقابلهما داخلا ، فسارعت اليه وقبّلت يديه

وكان عزيز بعد أن تركهما قد أخذ يبحث عن وسيلة للايقاع بشفيق .. فلاح له أن يذهب الى أبيها ويغريه بالمجىء الى قصر

النزهة ، فذهب اليه وحادثه فى موضوعات مختلفة ، ثم قال له :
« هل لك أن نسير معا للنزهة فى شارع شبرا ؟ .. »
فقال الباشا : « لا بأس ، ولا سيما ان ابنتى ذهبت الى هناك فعسى أن نلتقى بها ونعود معا »
وفى طريقهما الى هناك أخذ عزيز يحدثه عن فدوى ووجوب رعايتها كلما خرجت ، وقصده أن يثبت صدق كلامه لدى الباشا حين يرى شفيقا وفدوى معا فى الحديقة ..
ولما اقتربت بهما العربة من هناك خشى عزيز أن تظهر مكيدته لشفيق ، فتظاهر أمام الباشا بأنه نسى شيئا فى المنزل واستأذنه فى العودة لاحضاره ثم اللحاق به فى قصر النزهة ، فأذن له ، وواصل هو سيره حتى دخل الحديقة ، ولكنه لم يجد فيها مع فدوى غير بخيت . ولما سألته عن سبب مجيئه قصّ عليها الخبر ولكنه لم يذكر اسم عزيز ، فأدركت انه هو بعينه وقد فعل ذلك ليوقع بها وبشفيق ، لكنها تجاهلت ذلك . ولبثوا ساعة هناك حتى يئس الباشا من عودة عزيز ، فركبوا عربة فدوى وعادوا الى منزلهم ..
أما شفيق فلما وصل الى البيت كاشف والدته بما كان من أمره مع فدوى ، وأوصاها بكتمانه وبأن تجتمع بها أثناء غيابه ما استطاعت .. وتذكرها بوعدها له لئلا يضعف البعد عهدها ، فوعدته بذلك ..
وبعد بضعة أسابيع ، صدر الأمر بسفر شفيق الى فرنسا

لدراسة المحاماة فيها تنفيذا لرغبة الخديو ، فتقــدم أبوه الى الجناب العالى راجيا أن يسمح بارساله الى انجلترا لأنه يعرف اللغة الانجليزية جيدا .. فأذن له بذلك

ولمــا علم عزيز بقرب سفر شفيق ، اشتد به الحسد وحدثته نفسه بأن يفتك به أو يسعى الى هلاكه بمكيدة أثناء سفره الى لندن ، ثم استقر رأيه على أن يكون ذلك فى الاسكندرية ، حيث يكون شفيق بعيدا عن أهله وأحبائه ، فلما كانت ليلة سفره ذهب اليه وأمضى عنده معظم الليل مظهرا له عظيم أسفه على فراقه ، ثم أخبره بأنه سيودعه فى الغد الى الاسكندرية ، فشكره شفيق وعد ذلك منه منّة كبرى

وفى صباح اليوم التالى توجه عزيز الى المحطة حيث بقى مع شفيق فى القطار بعــد أن ودعه أبوه وبعض أقاربه وعادوا ، وقضيا معظم الطريق فى الأحاديث عن مصر وفدوى ، وعزيز يحاول اظهار رغبته فى زواج شفيق بها ، ويعده بالسعى لاتمام ذلك ..

ولما وصل بهما القطار الى الاسكندرية ساعة الغروب ، ركبا عربة الى فندق على شاطىء البحر ، ولم يكن شفيق قد زار الاسكندرية من قبل ، فلما استراحا وغيّرا ثيابهما قال له عزيز : « هلم بنا الى المدينة لنقضى جانبا من الليل فى مشاهدة أسواقها وبهجتها وزخرفها ترويحا للنفس من وعثاء السفر » .. فوافقه شفيق على ذلك ، وسارا حتى بلغا ساحة المنشية .. فدهش شفيق

لما شاهده من عظمة المدينة وسعة شوارعها واشراقها بأنوار المصابيح الغازية التى جعلت ليلها نهارا ، كما أعجب بحوانيتها المضاءة بالأنوار ومبانيها الشاهقة المزخرفة

والمنشية بقعة مستطيلة الشكل ، فيها كثير من شجر اللبخ ، وفى منتصفها تمثال هائل لمحمد على الكبير ، يقوم على قاعدة مرتفعة من الرخام الأبيض ، ويمثله على هيئة فارس شيخ وقور متسع الصدر كبير اللحية ، على رأسه عمامة كبيرة ، وقد ارتدى الجبة والقفطان وامتطى جوادا فارها ، وتقلد سيفا منحنيا ، وقد وضع يده اليمنى على فخذه الأيمن وكأنه ينظر جهة المدينة ليتأمل بهاءها ورونقها .. فأعجب شفيق بهذا التمثال ، وأخذ يطيل التأمل فى دقة صنعه ، ويتحدث مع عزيز عن صفات صاحبه ، وعزيز يتظاهر بالاصغاء فى حين انه يفكر فى تدبير مكيدة يهلكه بها .. فلما رآه مأخوذا بمناظر الاسكندرية أخذ يمتدحها له ويطنب فى ذكر محاسنها ، ثم خطر له أن يذهب الى حان ويسقيه خمرا حتى يغيب عن وعيه فيفتك به ، ولكنه تذكر أن شفيقا لا يتعاطى شيئا من أنواع الخمور ، وأنه يستنكف من مجالسة كلّ من يتعاطاها

وفيما هما يتهاديان على رصيف المنشية ، مرّا بمقهى ازدحم بالجالسين فيه ، وهم يشربون منقوع عرق السوس ، وكان صاحب المقهى شيخا ذا عمامة بيضاء ، شد وسطه بحزام فوق جلبابه حتى لا يتعثر بأذياله لكثرة حركته ، واسمه محمود .. وكان عزيز يعرفه من قبل ، فقال لشفيق : « هلم بنا نشرب شيئا

من منقوع عرق السوس فانه لذيذ منعش » . فمضى شفيق معه حتى دخلا المقهى ، ولم يحصلا على ما طلباه من المشروب الا بعد طول الانتظار لكثرة الزحام ..

ولاحظ شفيق أثناء جلوسهما هناك ان رجلا فى ثياب غريبة الزى كان يقتفى أثرهما عن بعد ، فلما دخلا المقهى لحق بهما وجلس على مقربة منهما وطلب من الشيخ محمود كوبا من ذلك المشروب فجىء به اليه . وكان الجالسون هناك قد تجمعوا جماعات وأخذوا يتسامرون .. وفيهم الافرنج ، والأتراك ، والوطنيون ، وغيرهم من مختلف الأجناس والملل ، بعضهم يتحدثون عن البورصة ، والأسعار ، والأرباح ، وآخرون يتحدثون فى السياسة ، أو عن الملاهى .. وجميعهم فرحون لا تسمع منهم الا ضحكا وقهقهة .

ولم يشأ شفيق أن يكاشف عزيزا بما خالجه من الريبة فى أمر ذلك الرجل لئلا يظن به الجبن . فلما غادرا المقهى وأخذا طريقهما الى الفندق الذى اختاره للنزول به الى أن تأتى الباخرة برنديزى بعد ثلاثة أيام ، لاحظ شفيق ان ذلك الرجل يتبعهما الى الفندق فقلق وأوجس خيفة ، لكنه تجلد وحمل ذلك على محمل الاتفاق لسلامة نيته . فلما انفردا فى غرفتهما طلبا العشاء وأمضيا بعض الوقت فى الحديث ، ثم أوى كل منهما الى فراشه

وكانت هذه الليلة أول ليلة يقضيها شفيق بعيدا عن والديه ، فتواردت عليه الأفكار وتاه فى عالم تصوراته ، فجفاه الكرى حتى

لم يطق الاضطجاع فنهض وجلس على كرسى بجانب السرير ، ثم خرج الى غرفة الاستقبال لعله يجد شيئا من الجرائد ، فوجد صحيفة الاهرام فأتى بها وأقبل على قراءتها حتى انتهى الى برقيه قرأ فيها : ان الباخرة برنديزى ستصل الى الاسكندرية صباح اليوم التالى قبل موعدها المحدد ، وستبرح الميناء عند الظهيرة.. فاهتز ارتياحا لتلك المصادفة وتخلصا من الانتظار على غير جدوى، ونهض لتوه وشرع فى ترتيب ثيابه وأوراقه بحقائبه ، وكان بينها دبوس فدوى فخفق فؤاده لرؤيته وترقرقت عيناه بالدموع ، فقبل الدبوس وحفظه فى مأمن ، ثم نظر الى الساعة فاذا هى الثانية بعد منتصف الليل .. فاضطجع على فراشه ، وبقى كذلك حتى الصباح » ..

وجاء عزيز وهو لا يدرى شيئا من أمر أرقه ، وكان هو قد أمضى ليله فى اعداد المكيدة للفتك به .. فلما وجده مرتديا ثياب السفر سأله عن السبب ، فأطلعه شفيق على الجريدة ، فأسقط فى يد عزيز ، وخشى حبوط مسعاه .. فأخذ يحبب اليه الاقامة فى الاسكندرية أياما ، ثم السفر بعد ذلك فى باخرة أخرى ، فقال شفيق : « لو اننى خيرت لاخترت الاقامة بهذه المدينة الجميلة ولكننى الآن على أهبة سفر طويل ومشقة عظيمة .. وخير البر عاجله » ..

فلعن عزيز ، فى سره ، الساعة التى وصلت فيها الباخرة برنديزى لأنها أحبطت كل مساعيه ، وكظم غيظه ، ثم أخذ يساعد

شفيقا فى التأهب ، حتى حان موعد رحيل البـاخرة فركبا قاربا للوصول اليها ، وركب معهما رجل عرف شفيق انه هو الرجل الذى تعقبهما بالأمس ، فسكت على مضض .. وفى عزمه أن يعنى بالوقوف على حقيقة أمره اذا كان مسافرا معه على تلك الباخرة

ولم يمض الا قليل حتى أبحرت الباخرة بشفيق ، وعاد الرجل مع عزيز فى القارب نفسه .. فظل شفيق يحدق فى الشاطىء بعينيه حتى حال الأفق بينهما

وبقى شفيق بضعة أيام وهو لا يكاد يختلط بأحد ، الى أن وصلت الباخرة الى مرسيليا ، فنزل اليها مع النازلين ، ومن هناك ركب القطار الى باريس ، ثم الى ميناء الهافر على خليج المانش حيث ركب سفينة بخـارية شقت به الخليج حتى وصلت الى دوفر ، فركب منها القطار الى لندن

— ٤ —

الثورة العرابية

رجع عزيز الى القاهرة بخفى حنين ، نادبا سوء حظه وفشل مكيدته لعرقلة مساعى شفيق أو الحط من قدره فى عينى فدوى ، وكان قد ازداد تعلقـا بحبها ، وأصبح فى شر حال .. وكأنه المقصود بقول من قال :

تريدين قتلى لا تريدين غيره   ولست أرى قصدا سواك أريد

وقال لنفسه أخيرا : « لا داعى لليأس ، وما زال فى الوقت متسع لعمل ما يقربنى من فدوى ، ويبغض شفيقا اليها .. »

وفى مساء الأربعاء ٢٥ يونيو عام ١٨٧٩ ، كان الناس فى القاهرة يتحدثون عن اضطراب السياسة المصرية ، لحقد دولتى انجلترا ، وفرنسا على الخديو ، وتوقع الكثيرون تنازله عن العرش .فتمنى عزيز أن يتم ذلك ، ظنا منه أن هذا يترتب عليه الغاء الأمر الصادر بارسال شفيق الى لندن . ومضى يستطلع الاخبار ، ثم توجه الى منزل فدوى ليقف على رأى أبيها فى تلك الاشاعات .. فلما استقر به الجلوس معه قال : « هل سمع سعادة الباشا بالاشاعات التى ترددت عن توقع تنازل الخديو ، بمساعى انجلترا وفرنسا؟»

فقال الباشا : « ان ابراهيم باشا المرسل من قبل أفندينا الى الآستانة فى هذا الشأن ، قد أرسل برقيات أكد فيها رضا الباب العالى عن الخديو ، ولكن ممثلى الدولتين ما زالا ينصحان له بأن يتنازل عن العرش لابنه توفيق »

فقال عزيز : « وما سبب حقد الدولتين عليه الى هذا الحد ؟ »

قال الباشا : « لا يخفى عليك يا ولدى ان الخديو اسماعيل أنفق الأموال الطائلة لتحسين حال البلاد وجعلها أشبه بالبلاد الأوربية . وقد اضطره ذلك الى الاستدانة من هاتين الدولتين وغيرهما ، فبلغ مقدار الدين على الخزانة المصرية نحوا من تسعين مليون جنيه . ولما رأت الدول ذلك خشيت ألا يفى دخل الحكومة المصرية بسداد هذا الدين ، أو أن يكون فى حساباتها ما يريب ،

فبعثت كل من انجلترا وفرنسا رقيبا من قبلها لذلك .. ولكن التدخل لم يقف عند هذا الحد ، بل جاوزه الى جميع أعمال الحكومة بدعوى ان لاجراءات الحكومة أثرا فى ميزانية البلاد وفىأداء دينها تبعا لذلك . وهكذا صارت حكومة الخديو شورية أى يسيرها مجلس النظار ، بعد أن كان الخديو مطلق التصرف ، ثم أدخلوا فى هذا المجلس ناظرين أجنبيين : أحدهما انجليزى ؛ والآخر فرنسى . وحدث أن قرر مجلس النظار فصل بعض الجنود اقتصادا للنفقات، فثار المفصولون وجاء ضباطهم الى نظارة المالية وأمسكوا برئيس النظار وناظر المالية وهددوهما .. ولولا ظهور الخديو اذ ذاك فى شرفة المجلس لما أبقوا عليهما ، فان كلمة واحدة منه أوقفتهم عند حدهم . وأخيرا رأى الخديو أن وجود الناظرين الأجنبيين يضيق عليه الخناق فعزلهما وولى ناظرين وطنيين ، فغضبت الدولتان وحقدتا عليه ، وسعتا ضده فى الآستانة وما زالتا تسعيان ، والناس بين يائس ومتفائل »

وغادر عزيز قصر الباشا بعد انتهاء السهرة ونفسه تحدثه بأن تغيير الخديو لابد منه ، وبأن بعثة شفيق ستلغى تبعا لذلك ، فيقل شأنه فى نظر فدوى وأبيها ، ويخلو له هو الطريق

وفى الصباح التالى استيقظ عزيز على أصوات المدافع مؤذنة بتنازل الخديو اسماعيل عن الحكم وتولية ابنه محمد توفيق خلفا له ، فلبث ينتظر ما يكون ..

كان بين ضباط الجيش المصرى حينذاك ضابط يقال له أحمد

عرابى ، وطنى النزعة ، ينتمى الى احــدى القــرى فى مديرية الشرقية ، وقد التحق بخدمة الجيش فى عهــد سعيد باشا .. وما زال يترقى حتى بلغ فى عهد الخديو توفيق رتبة الاميرالاى

وكان فى الجيش المصرى بعض الضباط الشراكسة ، يستأثرون غالبا بالرتب العليــا ، أما المصريون فقلمــا يتجاوزون رتبــة الاميرالاى ، كما كانوا حتى عهد الخديو اسماعيل قلّما يباح لهم اظهار ما يخامر قلوبهم من الأسف لاستئثار الأجانب دونهم بتلك الرتب . فلما تولى الخديو توفيق ، رأى الضباط المصريون انه أكثر حبا لمصلحتهم ، وقد أنعم عليهم بالرتب العالية ، فشرعوا فى اظهار مكنونات قلوبهم نحو الأجانب ، وطالبوا باعطائهم حقوقهم كاملة ولم يكن الخديو توفيق يكره ذلك ، ولكن بعض كبــار الضباط المصريين لم يطيقوا صبرا ، وسرعان ما تحوّل الأمر الى ثورة عمّت البلاد

وكان رؤساء الثورة ثلاثة ضباط هم : أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال ، فتعاهدوا على السعى للاستئثار بادارة أمور بلادهم بأنفسهم ، وابعاد الأجانب عن خدمة الحكومة ، ولا سيما الجيش .. وكوّنوا لذلك جمعيات سرية ، مؤيّدين فى ذلك من جميع الضباط المصريين . ونظرا الى رغبة الخديو توفيق فى تعزيز جانب المصريين ، كان يجيب مطالب هؤلاء الضباط فيما يرى فيه مصلحتهم ، فبدأ بعزل ناظر الجهادية وكان شركسيا ، ولكن الضباط الثائرين تطرقوا الى التدخل فيما وراء ذلك ،

يؤيدهم ناظر الجهادية الجديد الذى خلف الشركسى ، وكان وطنيا متحالفا مع عرابى وجماعته سرا ، فأخذوا يعقدون الاجتماعات السرية فى منزل عرابى عاملين على تحقيق ذلك

وكانت جريدة « الطائف » لسان الحزب الوطنى فى ذلك الحين قد نشرت كلمة قالت فيها : « ستحتفل البلاد فى ٢١ جمادى الاولى عام ١٢٩٨ (٢٠ ابريل عام ١٨٨١) فى سراى قصر النيل احتفالا كبيرا ، لما أنعم به الجناب العالى من زيادة رواتب الضباط ، والعساكر ، وتعديل القوانين العسكرية » . فلما قرأ عزيز هذا الخبر اعتزم أن يشهد ذلك الاحتفال ، ليرى ما يتمّ فيه ..

ولما انتظم عقد الاجتماع بحضور النظار ورؤساء الجيش نهض ناظر الجهادية وخطب ممتدحا انعام الخديو ، ثم قام بعده رجل قصير القامة خفيف شعر اللحية سريع الحركة فألقى خطبة مماثلة. وسأل عزيز من يكون هذا الخطيب ؟ .. فقيل له : انه رئيس مجلس النظار . وأخيرا وقف للخطابة رجل يرتدى زى الضباط ، ربعة ، ضخم العضلات ، أسمر اللون ، فاستقبله الحاضرون بالتصفيق وعلت الضوضاء ثم صمت الجميع حين بدأ فى الكلام ، فبدأ بشكر الخديو والنظار ، ثم أفاض فى حثّ المصريين على محبة الوطن والعمل على رفع شأنه . والحاضرون يعقبون على كل فقرة من خطبته مضفقين فرحين

فعجب عزيز من بلاغة الخطيب وشدة الاحتفاء به ، وسأل ضابطا أمامه من يكون هذا الخطيب ؟.. فضحك الضابط ساخرا

وقال : « كيف لا تعلم من هذا البطل ؟ .. انه أحمد عرابى بك رجل الوطن » ..

وكان عزيز قد سمع عنه ولم يره الا فى تلك الساعة ، فلم يسعه الا السكوت حتى انتهى الاجتماع وانفض الجمهور ، فخرج وكله اعجاب ، بالنفوذ العسكرى وارتفاع مقام رجال الجيش ، وود لو يلتحق به ليكتسب الرفعة والمجد ، ولا سيما بعد القانون الجديد الذى منح الوطنيين فى الجيش امتيازات عدة . هذا الى استطاعته بفضل غناه أن يترقى فى مدة قصيرة فيصير ضابطا كبيرا ، وينال حظوة فى عينى فدوى وأبيها ..

أخذ عزيز يسعى فى سبيل تحقيق أمنيته ، بقراءة القوانين العسكرية وحضور الاستعراضات ، ومتابعة أخبار الجيش ، الى أن كانت حادثة عابدين ، يوم اجتمع الجند فى ساحة القصر بمدافعهم وأسلحتهم ومعهم ضباطهم ، فكان فى مقدمة من توجهوا الى مشاهدة الحادث من الوطنيين والأجانب ، وقد راعه منظر هذا الاجتماع العسكرى الرهيب ، وأخذ ينقل بصره حيث شاء بين الجموع التى احتشدت خلف الجند فى الساحة وفى نوافذ البيوت المجاورة وفوق أسطحها

ثم جاءت مركبة الخديو يتقدمها الياوران فوقفت أمام شرفة (السلاملك) بالقصر ، والتفت الخديو الى عرابى الذى كان فى مقدمة الضباط على جواده فأشار اليه أن يقترب ، فتقدم على جواده وسيفه ما زال مشهرا فى يده ، والضباط حوله للمحافظة

عليه .. فأمره الخديو باغماد سيفه ، وبأن يترجّل ويتقدم وحده ففعل ، ثم خاطبه الخديو قائلا : « ألم أك سيدك ومولاك ؟ .. »

فقال عرابى : « بلى .. »

قال الخديو : « ألست أنا الذي رقّيتك الى رتبة أميرالاى ؟»

قال عرابى : « بلى .. ولكن بعد ترقية نحو أربعمائة .. »

قال الخديو : « وما هو سبب حضورك بالجيش الى هنا ؟..»

قال عرابى : « لأعرض مطالب عادلة .. »

قال الخديو : « وما هى هذه المطالب ؟ .. »

قال عرابى : « اسقاط الوزارة ، وتأليف مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام .. »

فقال الخديو : « كل هذه المطالب ليست من شئون العسكرية» ثم مضى الى داخل القصر ، وجاء قنصل الانجليز ، فقال لعرابى : « ان اسقاط الوزارة من سلطة الخديو ، وطلب تأليف مجلس النواب من سلطة الأمة ، ولا وجه لزيادة عدد الجيش لأن البلاد فى طمأنينة ، فضلا عن ان مالية البلاد لا تساعد على ذلك . أما التصديق على قانون العسكرية الجديد فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه ، وأما عزل شيخ الاسلام فلا يكون الا بأسباب »

فقال عرابى : « اعلم أيها القنصل ان مطالبى هى مطالب أهل البلاد ، وقد أنابونى للسعى فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوتى وأولادهم ، وهم القوة التى ينفذ بها كل ما

يعود على الوطن بالمنفعة .. واعلم اننا لن تتنازل عن هذه المطالب، ولن نبرح هذا المكان ما لم نأخذ عهدا على أن تنفذ »

فقال القنصل : « اذن أنت تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، الأمر الذى يخشى منه على استقلال بلادكم ؟ »

فقال عرابى : « ذلك لن يكون .. ومن ذا الذى ينازعنا فى اصلاح شئوننا الداخلية ؟.. اننا نقاومه أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا .. »

قال القنصل : « وأين تلك القوة التى ستقاوم بها ؟ .. »

قال عرابى : « فى وسعى أنأحشد فى زمن يسير مليونا من العساكر طوع ارادتى .. »

قال القنصل : « وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت ؟ .. »

قال عرابى : « أقول كلمة أخرى .. »

قال القنصل : « ما هذه الكلمة ؟ .. »

قال عرابى : « لا أقولها الا عند اليأس .. »

ثم انقطعت المحادثات بين الفريقين نحوا من ثلاث ساعات ، تداول القناصل والخديو والنظار أثناءها داخل القصر ، وعزيز يفكر فيما سمعه من حديث عرابى وما شهد من جرأته ، فاذا الأمر قد استقر على اجابة مطالب عرابى وتنفيذها تدريجيا ، لأن بعضها يحتاج الى مخابرة الباب العالى . ولكن عرابى أصر على اقالة الوزارة قبل انصرافه فأقيلت ، ودعى شريف باشا لتأليف وزارة جديدة فقبل ، بعد أن تحقق ما اشترطه من تعهد رؤساء

« فقال القنصل : اذن انت تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، الامر الذى يخشى منه على استقلال بلادكم ؟ » . . .

الحزب العسكرى بالامتثال لأوامره ، وتقديم عمد البلاد ضمانة على ذلك ..

وزادت رغبة عزيز فى الالتحاق بالجيش بعد هذا الذى رآه من نفوذ كلمة رجاله . ولكنه رغب فى استطلاع رأى فدوى قبل ذلك فذهب الى دليلة العجوز وأطلعها على مراده ، فقالت : « سأستطلع رأيها وأنبئك بما يكون » ..

وفى اليوم التالى ذهبت العجوز الى قصر الباشا كعادتها وأخذت تعرض على النسوة ما حملته من السلع ، ومن بينهن فدوى وكانت بملابس البيت التى زادتها بساطتها جمالا وروعة ، فمدت العجوز يدها وأخرجت مشطا مصنوعا من سن السمك وقدمته لها قائلة : « هل لك أن تتنازلى يا سيدتى بقبول هذه الهدية الصغيرة لكى تتشرف بمس هذا الشعر الجميل ؟ .. وما جرأنى على تقديمها الا ما يقال من ان الهدية على قدر مهديها » . فأعجبت فدوى بأدب الدلالة العجوز ولطفها ، وقبلته مرضاة لها . ثم أخذت مع بقية نساء القصر فى مشاهدة السلع المعروضة ، وبعد شراء ما انتقينه منها ، جلسن يتبادلن مختلف الاحاديث حتى تطرقن الى حادثة عابدين ، فقالت دليلة الدلالة : « ان رجال الجهادية هم زهرة البلاد ويدها اليمنى ، وبهم تفخر الأمة ، وعليهم حماية الحصون ودفع أعداء الوطن »

فقالت دليلة : « اذن أتفضلين ياسيدتى الضابط فى الجيش ،

أم التاجر ؟ أم العالم ؟ » . وتبسمت ، فأدركت فدوى انهـا تريد محادثتها فى شئون الخطبة والزواج ، وعلت وجههـا حمرة الحياء فأطرقت ولم تجب

واكتفت العجوز بما سمعته من ثنائها على رجال الجندية ، فعجّلت فى الانصراف وعادت الى منزلهـا حيث كان عـزيز فى انتظارها هناك ، فقالت له : « أبشر ياولدى لقد قضى الامر .. »

قال عزيز : « وكيف كان ذلك ؟ »

قالت دليلة : « انها تحب رجال الجندية فافعل مابدا لك »

فتنهد عزيز وقال : « هـذا ما كنت أرجـوه ياخالتى » . ثم ودعها وخرج معتزما الذهاب الى منزل فدوى لاستطـلاع رأى أبيها أيضا ، مؤملا أن يجده مثلها محبا للجندية

فلما دخل عليـه رآه منقبض النفس بادى القلق ، فابتدره قائلا : « هل حضرتم سيادتكم يوم عابدين ، وشاهدتم ماكان من فـوز رجال الجيش ؟ . لقد حبب هـذا الى أن ألتحق بالجيش ، فما قولكم ؟ .. »

قال الباشا : « ان الخدمة العسكرية من أشرف الخدمات ، ولكنها محفوفة بالاخطار »

فقال عزيز : « لا خطر فيها الا أيام الحرب »

قال الباشا . « نعم .. ولكنك غنى عن هذه الخدمة بما عندك من الثروة .. وافرض ان حربا نشبت ، وأنت فى الجيش .. فماذا تفعل ؟.. » ..

فتظاهر عزيز بالبسالة وقال : « فى هذه الحالة أقوم مغتبطا بما يفرضه علىّ واجبى ، ووطنيتى . ولا بد دون الشهد من ابر النحل » ..

فانطلت خدعته على الباشا وقال له : « اذا كان لابد لك من ذلك ، فانى أعطيك كتاب توصية لعرابى بك فهو صديقى ؛ ليتوسط لك لدى ناظر الجهادية فيقلدك منصب ضابط »

ثم كتب الباشا خطابا الى عرابى بك أوصاه فيه بأن يشمله برعايته ومعاونته » . فأخذ عزيز الخطاب ، وودع الباشا وخرج قاصدا الى منزل عرابى بك . فلما بلغه وجده غاصا بالناس بين منتظر أمرا ، ومتظلم من أمر ، وهم يدخلون اليه الواحد بعد الآخر فيقابل كلا بحسب مقامه ويجتهد فى ارضاء الجميع

ولما جاء دور عزيز دخل على عرابى بك وقد زرّ ثوبه تأدبا، فقابله بالبشاشة واللطف ، وبعد تلاوة الكتاب قال له : « لعلك عزيز أفندى جندب ابن المرحوم السيد جندب المشهور ؟ .. »

قال عزيز : « نعم .. »

فأجلسه عرابى بك بجانبه وقال له : « ماذا حملك على الانتظام فى صفوف الجندية وأنت فى غنى عنها ؟ .. »

قال عزيز : « حملنى على ذلك رغبتى فى خدمة الوطن .. »

فأعجب به عرابى بك وقال : « بورك فيك من محب مخلص لمصر ، مع ان أباك مغربى الأصل على ما أعلم .. »

قال عزيز : « ان جدى ـــ رحمه الله ـــ جاء من بلاد المغرب

للخدمة فى الجيش ، فأقام بمصر واتخذها وطنا له »

فقال عرابى : « حسنا .. ولكن من كان فى مثل مركزك المالى. لابد من أن يتعهد بتقديم المساعدة المالية للجهادية عند الاقتضاء خدمة لمصلحة البلاد »

فبهت عزيز وندم على مسعاه فى ذلك السبيل ، ولكن لم يسعه الا الموافقة مرغما فقال : « أنا وما أملك طوع أمر سيادتكم .. »

فشكره عرابى بك وأطنب فى الثناء على شهامته ، ثم قال له : « أن مثلك يستحق التشرف بخدمة الجندية » . وأمر فكتب له خطابا الى ناظر الجهادية يوصيه به خيرا ، فأخذ عزيز الخطاب ومضى به الى الناظر فوعده بانجاز طلبه .. وبعد حين عيّن فى رتبة ملازم ، وارتدى الحلة العسكرية ذات الأشرطة الصفراء القصبية على الكمّين ، وبدأ التدريب على الحركات العسكرية ..

— ٥ —

مذبحة الاسكندرية

كانت فدوى بعد سفر شفيق مشغولة البال دائما ، لا تفتأ تفكر فيه ، ولا ترتاح الا الى الحديث عنه أو استطلاع أحواله ، فكانت تجتمع أحيانا بوالدته دون أن تكشف لها عما فى قلبها من الحب له .. ولكن حالها لم تكن لتخفى على والدة شفيق ، فكانت تتلقاها بالحفاوة والترحيب ، وتحدثها عن نجاحه وما ذكرت الجرائد الوطنية عنه ..

خرجت فدوى بعربتها ذات يوم الى شارع العباسية للترويح عن النفس والمرور ببيت الحبيب . وفيما كانت العربة سائرة بها وبخيت أمامها ، لاحظت من النافذة فارسا يحاذى جواد مركبتها، فأشارت الى بخيت أن يأمر السائق بسرعة المسير ، غير ان ذلك الفارس الطفيلى ظل سائرا بمحاذاة المركبة بعد ذلك ، فاغتاظت فدوى وتحدثت فى ذلك مع بخيت فأمر السائق بايقاف العربة ، حتى يمضى ذلك الفارس الثقيل . ولكن هذا ما كاد يسبق العربة ويلحظ وقوفها حتى كر راجعا الى أن حاذى المركبة أو كاد ، وتبينت فدوى انه من رجال الجهادية ، لما عليه من ملابس الضباط ، وكان قد أمال طربوشه على جبينه حتى يظهر شعره المصقول ، وحاول النظر الى فدوى فأنزلت ستار النافذة وانزوت داخل العربة .

فلما رأى بخيت تماديه وشراسته ، تفرّس فيه فاذا هو عزيز ، فصاح فيه قائلا : « ماذا تريد يا أفندى ؟ .. »

فقال عزيز : « أريد أن أحيى السيدة .. »

قال بخيت : « ان العادة لم تجر بمثل هذا ، والأليق بك أن تمضى لشأنك وتحفظ شرف الحلة التى تلبسها .. »

فقال عزيز : « تأدب يا هذا ، واعلم انك تخاطب ضابطا محترما » . قال هذا بصوت عال لتسمعه فدوى ظنا منه انها متى عرفت مكانته ترفع الستارة وتنظر اليه ..

فقال له بخيت : « قد تدلنا ملابسك على مقامك ، ولكن رجال

الحرب لا يصقلون شعرهم ، ولا يتطيبون تطيّب ربات الخدور ، ثم هم لا يعترضون المارة هكذا . ولولا احترام حلة العسكرية التى ترتديها لأذقتك ما لم تذقه طول حياتك .. »

فانتفض عزيز من الغضب والخجل وقال : « ليس من مقامى مخاطبة العبيد ، وانما أنا سأخاطب سيدتك .. »

فقال بخيت : « احفظ مقامك وامض لشأنك فهذا خير لك »

قال عزيز : « قل لسيدتك ان شفيقا لا يزال غرا من تلاميذ المدارس ، فليس هو أولى بالمحادثة من ضابط فى الجيش .. »

فاشتد غضب بخيت ، وصاح به محتدا : « اخسأ يا وغد ، ولئن لم تذهب لأذيقنك الوبال »..قال ذلك وأمر السائق بالعودة بالعربة الى البيت ، فعاد بها . وبقى عزيز واقفا بجواده وقد ذهل لحبوط مسعاه ، فلما عاد الى صوابه ، أخذ يعزى نفسه بأن فدوى لم تخاطبه حذرا من بخيت لئلا يطلع أباها على ذلك

والواقع انها عنفت بخيتا لاطالة الكلام معه الى ذلك الحد ، فقال لها : « ياسيدتى انه ثقيل يرجو ما يقصر عن نيله ولا يراه حتى فى المنام ؛ وقد خيل اليه ان ملابس الجندية ترفع قدره فى عيون الناس ، ولم يفطن الى أن المرء بأصغريه (قلبه ولسانه) لا بملابسه ، ولكن مهلا ياسيدتى فسأريه ما لم يره طول حياته ، ولولا حرمة وجودك لأذقته الهوان » .

فقالت فدوى : « ألا تعلم ان لرجال الجيش فى هــذه الأيام شأنا عظيما ، ولهم الأمر والنهى ، وأخشى اذا علم أبى بالأمر أن

يلومنا ، فالاعراض التام عن ذلك الوقح كان أفضل وأسلم »

فقال بخيت : « لا ريب أن ظفر رجال الجيش بما طلبوه يوم حادثة عابدين يعد فوزا تاما ، ولكن عرابى أخذ ، بعد سفره بآلايه الى رأس الوادى ، يبث مبادئه بين مشايخ عربان القرية وغيرهم ، ويحثهم على الاتحاد والتحالف . وهذا ما أوجب حذر حكومتى انجلترا ، وفرنسا . وقد علمت انهما بعثتا الى الخديو تبديان استعدادهما للمساعدة فى كل ما يؤدى الى تأييد سلطة سموه » ..

فقالت فدوى : « وما الذى أوجب تدخل هاتين الدولتين فى مصالح البلاد ؟ .. »

قال بخيت : « ان لهما على هذه الديار دينا ، وهما يزعمان أن التدخل ضرورى للمحافظة على حقوقهما » ..

ولما وصلت بهما العربة الى المنزل ، أوصت فدوى بخيتا بأن يكتم الأمر عن أبيها ، فقال : « سمعا وطاعة »

عاد عزيز بصفقة المغبون ، وقد ازدادت هواجسه وأضناه حبه لفدوى وحسده لشفيق ، فرأى أن يسعى للانتقام من بخيت حتى لا يكون حجر عثرة فى سبيل تقربه من فدوى . وفيما هو يفكر فى ذلك صدرت له الأوامر بالرحيل مع ضباط آخرين الى الاسكندرية ، فصعب عليه الأمر وأحس بثقل الخدمة العسكرية التى لا مرد لأوامرها ، فسار الى الاسكندرية تاركا قلبه فى العاصمة ..

ووقع الخلاف على أثر ذلك بين مجلس النواب والوزارة ، ثم اشتد الخـلاف حتى أدى الى استقالة الوزارة وتأليف وزارة جديدة برياسة محمود سامى البارودى ، وتقلد أحمد عرابى نظارة الجهادية فيها مع منحه رتبة لواء فصار (باشا) منذ ذلك الحين . وبهذا ارتفعت منزلة الحزب العسكرى واستفحل أمره

ثم أجريت حركة تنقلات فى الآلايات ، فجاء الآلاى الذى فيه عزيز الى القاهرة ، وسعى عرابى فى ترقية بعض الضباط فكان من بينهم عزيز ورُقِّي الى رتبة يوزباشى ، ولا تسل عن اعجابه بهذه الترقية ولا سيما بعد أن استفحل أمر العسكريين وأصبحت سلطة الحكم فى أيديهم ، مما أدى الى خوف الدول الأوربية على مصالحها بمصر ، فاتحدت دولتـا انجلترا وفرنسا .. وقدمتـا للحكومة الخديوية مذكرة طلبتا فيها اقالة الوزارة وابعاد عرابى ورفقائه زعماء الثورة مع حفظ أوسمتهم ورتبهم وألقابهم

ولم تجد الوزارة بدا من الاستقالة ، وكانت مدرعات الدولتين راسية حينئذ فى ميناء الاسكندرية ، فاستقالت فى يوم ٢٦ مايو عام ١٨٨٢ .. ولكن العرابيين لم يقبلوا هذا ، وما لبثوا الا قليلا حتى أعادوا الوزارة بالقوة ، وأخذ عرابى باشا يتابع ارســال المنشورات الى قناصل الدول الأجنبية ، ضامنا فيها حفظ الامن والسلام ..

وفى ١١ يونيو من ذلك العام ، قامت فى الاسكندرية فتنة قتل فيها كثير من الوطنيين والافرنج ، فصدرت الأوامر من الحكومات

الأجنبية الى رعاياها بالهجرة من مصر على الفور ، فى سفن أعدت لذلك على نفقة تلك الحكومات . وكان سرور عزيز بهذه الهجرة عظيما ، لأن والدى شفيق كانا من رعايا انجلترا ، فلا بد من سفرهما ، وبذلك تضطر فدوى الى الاذعان لرغبته

وذهلت فدوى حين علمت بأمر تلك المنشورات ، ودخلت الى بخيت وقالت له : « ان والدى شفيق سيغادران هذه الديار .. فماذا تكون حالى اذا اضطر البعاد شفيقا الى اهمال العلاقات والمودة بيننا ؟ » . ثم تنهدت من كبد حرى وتأوهت ، وأخذت فى البكاء ..

فلما شاهد بخيت هذا المنظر ، كاد أن يشاركها البكاء ، لكنه تجلد وقال لها : « خففى من اضطرابك ياسيدتى فليس الأمر كما تتوهمين .. ان شفيقا قد خصّه الله بأرقّ العواطف ، ومن كان مثله لا ينقض عهدا » ..

فلما سمعت فدوى اسم حبيبها ، رفعت رأسها كأنها هبت من نوم عميق ، وخجلت من نفسها ، فقال لها بخيت : « الى أين تظنين أن يتوجّه والدى شفيق ؟ .. »

فقالت فدوى : « قد فهمت من والدته انهما سيذهبان الى لندن لأن شفيقا هناك »

فصمت بخيت مفكرا ، ثم قال : « وما المانع ياسيدتى من أن تكتبى اليه مبدية رغبتك فى الاطلاع على أحواله ، فعسى أن تكون النتيجة على خلاف ما تظنين ، وما الأمر الا لله .. »

فقالت فدوى : « أخشى أن تحمله كتابتى اليه على المخاطرة بنفسه فيحضر الى هنا ، والبلاد كما تعلم من الهياج والاضطراب فأكون قد جنيت عليه وعلى نفسى .. »

فقال بخيت : « الأفضل أن تستطلعى رأى والدته » . فاستصوبت فدوى رأيه وأرسلته اليها لتحديد وقت يمكنها من الاجتماع بها فيه ..

ولما اجتمعتا ودار الحديث بينهما ، أدركت سعدى غرضها من الاجتماع .. فذكرت لها ان الاسطولين الانجليزى والفرنسى فى ميناء الاسكندرية منذ أيام ، ولكنهما لن يعملا شيئا الا اذا رأيا خطرا على حياة الخديو ، فحينئذ يلجآن للقوة لحمايته .. ولو كلفهما ذلك هدم ثغر الاسكندرية وخراب مصر كلها . ثم تطرقت من ذلك الى حديث السفر ، فقالت : « أما نحن فقد عزمنا على الهجرة خوفا من الخطر على حياتنا ، وان لم نكن من الأجانب .. والأغلب أن نسافر الى لندن حيث نشاهد شفيقا »

فأجهشت فدوى بالبكاء ، وأطرقت حياء ، وظهر اضطرابها جليا رغم محاولتها اخفاءه .. فضمتها سعدى الى صدرهاوقبّلتها والدموع ملء عينيها ، ثم قالت لها : « خففى عنك يا ابنتى ، ان الذى فرقكما قادر على أن يجمعكما فى وقت قريب .. »

فقالت لها فدوى : « اعذرينى ياسيدتى لما ظهر من اضطرابى فقد غلبت علىّ عواطفى » ..

وفيما هما فى ذلك اذ جاء بخيت تبدو عليه اللهفة وقال : « ان

سيدى الباشا قد بعث الينا بالاسراع الى البيت ، لأنه تلقى من عرابى باشا أمرا بالذهاب الى الاسكندرية حالا ، ولا بد له قبل ذهابه من مشاهدتك .. »

فنهضت فدوى وودّعت سعدى ، فسألتها هذه : « هل لديك رسالة أو خبر لشفيق ؟ .. »

فخجلت فدوى أول الأمر ، ثم تجلدت وقالت : « بلغيـه ما تشائين من السلام ، واذا أردت أن تكتبى الىّ بعد وصـولك فليكن الكتاب باسم بخيت وهو يوصله الىّ »..ثم ودّعتها ثانية وخرجت وهى تحاول اخفاء اضطرابها لئلا يلحظ عليها أبوها شيئا ، على انها لم تستطع ذلك . فما وصلت الى البيت حتى لحظ أبوها أثر الدموع فى عينيها وسألها عن السبب ، فقالت له : « حين علمت بأمر سفرك فى هذا الاضطراب السياسى لم أستطع حبس الدمع » . فطيب خاطرها وهوّن عليها وقال لها : « انى مسافر اذعانا لأمر رئيس الحزب العسكرى ، وليس فى الأمر ما يدعو الى غير الاطمئنان ، وسأوصى بخيتا بك وبكل من فى القصر » . ثم ودع الجميع وسافر الى الاسكندرية بالقطار

وكان سبب سفره ان عزيزا بعد تحققه من قرب هجرة والدى شفيق ، أخذ يسعى فى ابعاده هو أيضا ليخلو له الجو ، ويرغم فدوى على قبوله ، فوشى به الى عرابى زاعما ان هناك خطرا فى بقائه بالقاهرة بعد سفر الجند الى الاسكندرية لشدة رغبته فى مخـابرة الأجانب ، فأصـدر اليه عرابى أمرا بأن يسـير الى

الاسكندرية فى أسرع وقت ..

وتمكن عزيز من البقاء بعد ذلك فى القاهرة لعله يحصل على فدوى أثناء الانقلاب السياسى . وكانت قد كاشفت بخيتا بأنها تخشى اعتداء بعض الجنود على المنزل بدسيسة من عزيز ، فلم يستبعد ذلك ، ولكنه أكد لها انه غير ممكن ، ليدخل الى قلبها الاطمئنان ..

وذات يوم من أيام شهر يوليو عام ١٨٨٢ ، جلست فدوى فى غرفتها تفكر فيما هى فيه ، وكانت والدتها فى غرفة أخرى مشغولة ببعض الشئون ، فسمعت فدوى رنين جرس الدار ، ثم جاءها أحد الخدم يقول : « ان دليلة الدلالة بالباب »

فأذنت بادخالها ، ثم رحبت بها وأجلستها ، وأخذت تتفرج على ما معها من السلع ، ثم دار الحديث حول شئون مختلفة الى أن قالت دليلة : « ان جنودنا سيغلبون جنود الفرنجة ، لأن البوارج لا تزال فى مياه الاسكندرية تنتظر عقد المؤتمر فى الآستانة ، ولكن مولانا السلطان غير راض بعقده »

فقالت فدوى : « وماذا تظنين أن تكون نتيجة هذه الأعمال؟»

قالت دليلة : « النتيجة أن تتحرر البلاد من العنصر الأجنبى ، فتبقى مصالح الحكومة فى أيدى أبناء الوطن ، وسيتم كل ذلك بهمة الجهادية المصرية التى ألبستنا المجد والفخر فنطلب من الله أن يؤيدها بالنصر ويكلل أعمالها بالنجاح »

فقالت فدوى : « كل شيء بيد الله » . قالت هذا وعادت الى

تقليب ما أمامها من السلع .. فأخرجت الدلالة العجوز من جيبها علبة صغيرة فتحتها فاذا بها خاتم من الذهب ، قدمته دليلة لها ووضعته فى بنصرها بدعوى تجربة اتساعه ، فلما تأملته فدوى لمحت على فصه نقشا فقرأته فاذا هو « تذكار عزيز » . فنزعته على الفور من يدها ، وقد احمر وجهها وبدت عليهـا امارات الغضب ثم رمت به اليها قائلة : « خذى خاتمك .. »

فقهقهت دليلة وقالت مظهرة المزاح : «ماذا أغضبك يا ابنتى ؟»

قالت فدوى : « لم يغضبنى شىء .. ولكنني فهمت ان الخاتم ليس للبيع ، ولكنه تذكار .. »

قالت دليلة : « وماذا يمنع أن تقبليه على انه تذكار ؟ »

فقاطعتها فدوى قائلة : « لا تتكلمى يا دليلة .. واعلمى ان مثلنا لا يقبل تذكارا من أبناء الأزقة .. فخذى تذكارك وأعيديه الى أصحابه .. »

فنظرت اليها دليلة مستعطفة ، وقالت : « لا تحكمى يا سيدتى قبل أن تعرفى الحقيقة »

فقالت فدوى وقد أخذ التأثر منها مأخذا عظيما : « لا حاجة بى الى اطالة الكلام ، فاذهبى من حيث أتيت » . ثم تركتهـا وتحولت عنها ، فخرجت العجوز لا تلوى على شىء ..

وبعد قليل جاء بخيت فأطلعته فدوى على ما كان ، فقال لها : « لا يزال هذا اللئيم على غيّه ، فلعنة الله على دهر يستنسر فيه البغاث » ..

لبثت سعدى بعد انصراف فدوى تفكر فى أمرها وفيما جمّلها الله به من رقة العواطف ودقة الاحساس وكمال الذات ولطيف الصفات .. فازدادت محبة لها ، وتحققت من سعادة ابنها اذا هو ظفر بها .. ولم يكن زوجها ابراهيم قد أطلع على شيء من أمر فدوى وشفيق ، فلما صدرت الأوامر بهجرة الرعايا الاجانب ، أوصى زوجته سعدى بالتأهب للسفر الى مدينة لندن لزيارة شفيق ، وشرعا فى اعداد الامتعة سهلة الحمل ، ووضعها فى الصناديق لارسالها بالسكة الحديدية الىالاسكندرية .. وفيما هما فى ذلك وقع نظر سعدى على الصندوق المعهود فخفق قلبها وتاقت الى معرفة ما فيه ، فقالت لزوجها : « اننا مسافرون على بركة الله ، ولا ندرى ما نصيب فى سفرنا هذا من خير أو شر ، لذلك أرجو أن تطلعنى على حكاية هذا الصندوق .. »

فوجم ابراهيم ، ثم قال : « أما اطلاعك على تلك الحكاية فقد ذكرت لك انه لم يجىء أوانه .. ولكن .. » وسكت مفكرا ، ثم عاود الحديث فقال : « ولكنى من جهة أخرى أخاف أن أصاب بسوء فى سفرى هذا ، فينمحى خبر هذه الضفيرة من العالم .. اذ لا يعلم حقيقة أمرها الا أنا ، فأمهلينى ريثما أعود اليك » . قال ذلك ودخل غرفته وأغلق بابها وزوجته تنتظره خارجها ، وهى لا تدرى ماذا يفعل

وبعد ساعة خرج مكفهر الوجه ، وفى يده ورقة مختومة ، فاقترب من سعدى وأمسك بيدها قائلا : « اقسمى لى بمحبة

ولدنا الوحيد شفيق انك تحفظين سرا ما أقوله لك فى شأن هذه الورقة » . فلما أقسمت سعدى قال لها : « اليك هذه البطاقة المختومة على ألا تفضّيها الا اذا أصابنى مكروه فى سفرنا هذا أو بعده ، فعند ذلك تفضّينها وتطلعين على ما فيها ، وأطلب اليك العمل بمقتضاها والحرص عليها » ..

فتناولتها سعدى وهى ترتجف تأثرا ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، ثم قالت : « لا أرانى الله فيك مكروها » . وجعلت البطاقة فى جيبها ريثما تختار لها مكانا آخر أمينا تحفظها فيه

ومضى الليل وهما يعدان معدات السفر ، وكان خادمهما أكثر اهتماما منهما لأنه اشتاق الى رؤية سيده شفيق ، وكان يحبه حبا مفرطا .. وفيما هو يهيىء الأمتعة ، قال له ابراهيم : « هل أنت مسرور لذهابك معنا يا أحمد ؟ .. »

فتف الخادم أمامه متأدبا وقال : « كيف لا .. وأنا مشتاق الى رؤية سيدى شفيق ، ويعلم الله انى لا أنسى كرم أخلاقه أبد الدهر ، وقد شكرت الله لوجوده طوال هذه المدة خارج البلاد ، حرصا على حياته »

فقال ابراهيم : « هل تعنى بهذا انه نجا من مخالب الثورة العرابية ؟ .. »

قال الخادم : « كلا يا سيدى ان ذلك ليس محل خوفى ، ولكننى كنت أخاف عليه من دسائس صديق له .. رافقه الى الاسكندرية » . قال ذلك وهو يتميز غيظا

فقال ابراهيم : « ماذا تعنى .. ومن هو صديقه هذا ؟ .. »

قال الخادم : « هو عزيز الذى تعرفه ، ولقد كنت مشفقا على سيدى شفيق من كيده ومكره ، فلما علمت بمرافقته اياه الى الاسكندرية لم يهدأ لى بال ، حتى رافقتهما متنكرا الى الاسكندرية .. ولم أرجع حتى ركب سيدى الباخرة على مرأى منى .. »

فعجب ابراهيم وقال : « انك كثير الوساوس يا أحمد ، وما الذى نخشاه على شفيق من هذا الشاب وهو أعز أصدقائه ؟ »

قال الخادم : « ربما كنت غير مصيب ، ولكن قوة خفية دفعتنى الى ذلك » . قال ذلك وعاد الى ترتيب الأمتعة وحزمها واستمر على هذا الحال طول الليل ..

لبثت فدوى بعد سفر والدى شفيق على أحر من الجمر ، وهى تنتظر كتابا من سعدى . وبعد ثلاثة أسابيع تلقى بخيت كتابا باسمه ففضه ، فاذا طيه آخر باسم فدوى .. فلما تناولته اختلج قلبها فرحا وارتعشت يداها حتى لم تقو على فضه ، فدخلت غرفتها وأغلقت بابها حذرا من الرقباء .. ثم جلست على مقعد هناك وفضت الكتاب بيدين ترتعشان فرحا فاذا هى تقرأ فيه :

« من لندن شارع اوكسفورد رقم ٥٦ ، الى القاهرة فى ٥ يوليو عام ١٨٨٢ :

« عزيزتى فدوى .. وعدتك بأن أكتب اليك حال وصولى الى هذه الديار بما يكون بعد مشاهدتى ولدى شفيقا ، ولكننى

أخبرك وأنا أكاد أفقد الصواب بأنه مرَّ بنا ثلاثة أيام من يوم وصولنا ونحن نبحث عنه فى سائر أنحاء انجلترا فلا نقف له على أثر .. وقد أخبرنا صاحب الفندق الذى كان مقيما فيه أنه خرج صباح يوم من أيام الاسبوع الماضى ولم يعد ، وما زلنا ساعين فى البحث عنه ولكننا لم نوفق .. فاذا عرفت عنه شيئا ، فأبرق الينا بذلك مشكورة بالعنوان المثبت فى أعلى هـذا الكتاب ، وسنخبرك بما يتم والسلام .. سعدى »

وما كادت فدوى تنتهى من قراءة الكتاب حتى خارت قواها وارتعدت فرائصـها ، ثم صرخت وارتمت على الارض مغشيا عليها ، وسمع بخيت صـوتها فسارع اليها وقد أذهله الأمر ، وأخذ يرشها بالماء حتى أفاقت .. فراح يسألها عن السبب ، وهى لا تعى شيئا وتواصل نواحها ، فبحث عن الكتاب حتى رآه فلما اطلع عليه اغرورقت عيناه بالدموع .. لكنه أخفى اضطرابه وأقبل عليها مخففا من اضطرابها ، وهى تصعد الزفرات ، فقال لها : « اصبرى يا مولاتى عسى أن يأتى الله بالفرج .. واكتمى ما بك لئلا ينكشف الأمر ، فان والدتك لا تلبث أن تأتى » ..

وأمرت فدوى بخيتا بأن يأتيها بدواة وقرطاس ، وجلست الى منضدة وكتبت لسعدى ردا على كتابها قالت فيه :

« من القاهرة فى ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢ .. الى لندن

« سيدتى المحترمة : قرأت كتابك بدموع الحزن والاسف ، وطالعته بقلب يتقلب على نار الجزع .. كأن الدهر قد ندم على ما

وهب فحملنى ما لا أستطيع عليه صبرا . أما أنت أيتها الوالدة فلا أذاقك الله لوعة ولا سقاك حسرة ، فان نبــأ اختفاء شفيق أورثنى من القلق ما لم أذق مثله ومن اللوعة ما لم أكابده ، فلا غرو اذا انفطر له قلبك ، وسبح دمعك ، وتفتت كبدك وأنت والدته ..

« على انى آملة فى رحمة الله ألا يخيب أمل والدة حنــون وصديقة مخلصة ، وهو الذى أذن بما كان ، وله القدرة على جبر قلوبنا ، وحاشاه أن يأذن بهــلاكنا حسرة وجزعا .. على انى أسألك أن تعلمينى برقيا بما تعلمين عنه . واذا عرفت عنه شيئا فسأخبرك به .. اعذرينى على التمادى فى مكاشفتك بعواطفى ، اذ ليس لدى من أكاشفه سواك ، وأختم الكتاب بتقبيل يديك .. ودمت سالمة لولدك .. فدوى »

وبعد أن أتمت قراءة الكتاب ختمته وعنونته وسلمته لبخيت ليضعه فى صندوق البريد ، ثم عادت الى البكاء ، فقال لهابخيت: « لا تقنطى من رحمة الله .. ان لندن مدينة عظيمة تحتوى على زهاء خمسة ملايين من الناس ، فلا بدع اذا اختفى شــفيق عن أهله فيها بضعة أيام »

وبقيت فدوى قلقــة الى أن جاء وقت الأصيل ، فقال لهــا بخيت : « هل لك ياسيدتى أن تركبى العــربة للنزهة فتفرجى كربك .. »

رفضت ذلك أولا ، ثم رأت فى ذلك اخفاء لقلقها وجزعها عن

والدتها ، فأرسلت اليها بخيتا ليخبرها بذهابها للنزهة ، ثم ركبت معه العربة وخرجا ..

– ٦ –

ضرب الاسكندرية

مرت فدوى فى عربتها بجهات الأزبكية ، واذا الناس فى هرج يتحدثون ويتساءلون ويتسارون ، والجنود يخطرون فى الطرق مرحا ورؤوسهم تكاد تلمس السحاب عجبا وتيها .. فأوقف بخيت المركبة وسأل بعض المارة فقيل له : « ان بعض المهاجرين قدموا من الاسكندرية ، وقالوا ان الاسطول الانجليزى أطلق مدافعه على حصونها فهدمها ، ثم أنزل العساكر اليها واحتلها ، ففرّ العرابيون الى كفر الدوار ليتحصنوا ويستعدوا لملاقاة العدو بعد أن أحرقوا الاسكندرية ، أما جند القاهرة فلم يصدقوا الخبر لأن جرائدهم كالطائف والمفيد كانت تعلن عكس ذلك تشجيعا لهم . ولذلك كانوا يمرحون فى الاسواق فرحين مزهوين بالنصر المزيف ، ولا سيما الذين هاجروا منهم من الاسكندرية فرارا من الانجليز .. فانهم كانوا يتحرشون بالمارة من الغرباء ويوقعون بهم كل سوء ، حتى صار هؤلاء لا يخرجون الى الاسواق الا متنكرين بملابس الوطنيين حرصا على حياتهم ، وقد شكا أهل

القاهرة لضباطها من تصرف جالية الاسكندرية فبذل قصارى الجهد لتلافى تلك الاعتداءات » ..

كما علم بخيت ان جماعة من المشايخ طافوا بالشوارع وعلى صدورهم مآزر ملونة وبأيديهم مباخر ، وهم يهتفون داعين لعرابى وحزبه بالنصر وحبوط مساعى الافرنج

فعاد بخيت الى سيدته بهذه الأنباء ، وأشار عليها بالعودة الى المنزل فقبلت مشورته ، ووجدت والدتها فى انتظارها فحيتها وأبلغتها ما سمعته عن ثورة الاسكندرية وهى ترتعد من الخوف ، فلما سمعت والدتها ذلك امتقع لونها ثم قالت : « ما العمل الآن ؟ .. طالما رغبت الى أبيك أن يهاجر من مصر الى دمشق الشام فنقيم بها عند أهلى حتى تهدأ الأحوال هنا ، ولكنه أبى الا البقاء .. وها قد ذهب الآن الى الاسكندرية ؛ فلا ندرى ماذا حدث له .. »

فقالت فدوى : « لعله أبى الهجرة خوفا على أملاكه من الضياع أثناء هذه التقلبات .. ولا أخاله ظن أن الثورة تبلغ هذا المبلغ ، أما ذهابنا الى الشام فما أحلاه لو تمّ لأننى شديدة الميل الى مشاهدة مسقط رأسك ومقر أهلك .. فقد بلغت هذا المبلغ من العمر ولم يسعدنى الحظ برؤيتهم »

فتنهدت والدتها وخنقتها العبرات ، فلما رأتها فدوى على هذه الحال اضطرب فؤادها .. وظنت أن هذا التأثر خوفا على أبيها من مذبحة الاسكندرية ، فأخذت تهوّن عليها لتهدّى اضطرابها ،

وأخبرتها بدخول الانجليز الى الاسكندرية وان الجميع فى سلام وطمأنينة ..

فرفعت الأم نظرها الى فدوى وقالت : « لم يكن اضطرابى كله ياحبيبتى على والدك .. اذ لاخوف عليه باذن الله لأنه معروف عنـد زعماء الثورة ، وانما تأوهى لذكرى أثارت الحنين الى الوطن » ..

فقالت فدوى :« ما هذه الذكرى يا والدتى ؟ .. »

فقالت الأم : « تذكرت ضياع أخ لى منذ تسع عشرة سنة أثناء الحادثة المشئومة التى حدثت فى دمشق سنة ١٨٦٠ .. ولم أكن عرفت أباك بعد »

فقالت فدوى : « كيف ذلك يا أماه ، وهـل لم تقفوا على خبره ؟ .. »

فقالت الأم : « اعلمى يا ابنتى اننى من أسرة معـروفة فى دمشق ، وكان لى أخ غض الشباب حسن السيرة ، شهم شجاع ، وكنا نعيش فى بسطة ورغد فى كنف والدينا ، حتى كانت سنة ١٨٦٠ ، فاشتعلت ثورة فى دمشق قام فيها فتيان المسلمين على النصارى بمذبحة هائلة دارت فيها الدائرة على النصارى ، وكان خالك فى جملة أولئك الفتيان .. فخرج صباح يوم فى جملة من خرج للقتل والفتك ، ولم نعد نراه أو نسمع عنه شيئا واحسرتاه ، وبقيت وحدى مع والدىّ (جدّيك) . وفى السنة التالية للمذبحة

جاء أبوك الى دمشق فتعرف الى أبى وخطبنى ، ثم تزوجنا وجئت معه الى مصر .. »

***

فلما سمعت فدوى كلام أمها عن فقد أخيها ، تذكرت فقد شفيق فلم تكف عن البكاء ، وقالت فى نفسها : « ترى كيف حال والديه ؟ ... » ثم خشيت أن تلاحظ أمها شيئا من اضطرابها فسألتها قائلة : « كيف استطعت الصبر يا أماه على بعد والديك طوال هذه المدة ، مع قصر المسافة بين مصر وسورية ، اذ أن قطعها لا يحتاج الى أكثر من أيام ؟ .. »

فتأوهت والدتها من كبد حرى وقالت : « أطلب الى الله أن يمن علينا باللقاء لترى جديك العزيزين » ..

ما برح عزيز يزداد هياما بفدوى رغم الاهانة التى لحقته من بخيت فى شارع العباسية ، وقد رأى أن ينتقم لنفسه فيستعمل ما لديه من الوسائل الدنيئة لاستطلاع أسرار خصمه ويتخذها سلاحا يطعنه بها ، فذهب الى المفتش الذى أقامه العرابيون فى مصلحة البريد لمراقبة الرسائل المتبادلة بين أعيان البلاد ورجال حكومتها ، وأوصاه بأن يطلعه على كل كتاب يرسل الى شفيق أو أبويه فى انجلترا ، بدعوى ان عرابى باشا يريد ذلك ..

ثم أقام على فدوى رقباء ليخبروه بوقت خروجها من بيتها ، ليسعى الى استجلاب رضاها بأية طريقة ، كما قصد الى صديقته دليلة وعرض عليها الأمر فقالت له : « لا أظن ان فدوى تفضل

سواك ، فأنت شاب غني بالمال والجاه .. وقد حصلت على أرقى مناصب الحكومة ، ولكنك لا تعرف من أين تؤكل الكتف ، فالجنس اللطيف يؤخذ بالملاطفة لا بالعنف ، فطب نفسا يا ولدى وقر عينا ، واذا هى أصرّت على عنادها فأنا كفيلة بحصولك عليها بأية وسيلة » ..

فشكرها عزيز وقال : « لكنى أخشى أن يصدر الأمر بسفرى الى الاسكندرية بغتة ، فماذا أصنع ؟ .. »

قالت دليلة : « ان الاسكندرية الآن فى خطر عظيم اذ تتهددها مدرعات انجلترا وفرنسا ، كما ان ذهابك اليها يعرقل مساعينا فى شأن فدوى » ..

قال عزيز : « ما كل ما يتمنى المرء يدركه .. وكنت قد عولت حين انتظامي فى سلك العسكرية على أن أستقيل من الخدمة اذا شعرت باقتراب الخطر ، ولكنى ارتقيت فيهـا وصرت عظيما فى أعين الناس ، والقوانين العسكرية لا تجيز الاعفاء من الخدمة فى وقت الحرب ، فلا بد لى من البقاء .. ومتى انتهت مهمتى عدت الى القاهرة لاستئناف مساعينا »

ذهبت دليلة كعادتها كل يوم الى بيت عزيز ، فرأته يخطر فى غرفته ذهابا وايابا .. وفى يده رسالة ينظر اليها وسمات الاضطراب بادية على وجهه ، فلما رآها رحب بها ثم مد يده اليها بتلك الرسالة وقال : « هل تعلمين ممن هذا الكتاب ياخالة ؟ .. انه من فدوى الى والدة شفيق .. »

فسألته دليلة : « وماذا فيه ؟ .. »

قال عزيز : « فيه كل خير ، فقد اختفى حبيبها شفيق من لندن ، ولم يعثر والداه على أى أثر له .. »

فقالت دليلة .. « هذه خطوة كبيرة فى سبيل تحقيق آمالنا ، وحبذا لو أطلعت أباها على هذه الرسالة فيتحقق من محبتك له ، وغيرتك على شرف ابنته فيزداد بك ثقة ، ومتى أظهرت له بعدئذ ميلك الى مصاهرته فانه لا يتردد فى اجابة طلبك ، ولو فرضنا انها لم تقبل فانه يجبرها على القبول لأنه غيور كما تعلم .. »

فلما سمع عزيز كلام العجوز أخذته هزة الطرب وقال : « لا أشك فى ان الباشا يرغب كثيرا فى مصاهرتى ، لكننى كنت أخشى أن ترفض فدوى فأرجع بصفقة المغبون ، أما الآن وقد وقعت فى الشرك فما أظن أنها تستطيع رفض أمر أبيها ، ولا سيما بعد أن انكشف له ما بينها وبين شفيق »

وفيما هما فى الحديث ، أتاه الخادم بكتاب ففضه فاذا هو من أركان حرب عرابى يطلبون اليه فيه أن يعد عددا من الخيل ومقدارا من المئونة مساعدة للجيش ويقدمها فى أقرب وقت ، ثم يسافر الى الاسكندرية . فلما قرأ الكتاب تغيرت ملامح وجهه فقطب جبينه وجلس على مقعد أمامه معتمدا رأسه بيده كأنه وقع فى أمر عظيم ، فسألته العجوز عما حدث فلم يجبها أولا ، ثم أخبرها بالأمر ، فهونته عليه وقالت : « ان أوامر العسكرية لا مرد لها ، ولا سيما فى مثل هذه الأحوال ، فسافر الى الاسكندرية

واعتمد علىَّ فى مراقبة حركات فدوى واستجلاب رضاها »

وفى اليوم التالى سافر عزيز قاصدا الاسكندرية ، فلما وصل الى كفر الدوار علم ان عرابى لا يلبث أن يأتيها بجنده من ضواحى الاسكندرية ليتحصن فيها ويستعد للدفاع ، فخشى أن يلتحم الجيشان هناك فيصيبه سوء ، وتبادر الى ذهنه أن هذا سيعود بالنفع على شفيق ان كان لا يزال على قيد الحياة فسول له حسده أن يبحث عن مكان أبى فدوى ويرسل اليه بكتابها الى والدة شفيق ليهيج فيه عاطفة الانتقام ويعرقل مساعى شفيق ، وعلم بالبحث انه لايزال فى الاسكندرية ، ثم ورد أمر من الخديو الى عرابى فى كفر الدوار يستقدمه الى الاسكندرية ، ويأمره بالكف عن الأعمال الحربية وحشد الجند لأن الجنرال سيمور أميرالاى الحملة الانجليزية قد صرح باستعداده للجلاء عن الاسكندرية اذا تحقق من وقف الاستعدادات الحربية . فسرَّ عزيز بذلك لأنه يمكِّنه من السفر الى الاسكندرية ، ولكن عرابى لم يذعن لذلك الأمر ، وكتب الى وكيل الجهادية بالقاهرة يخبره بما حدث ، فجمع هذا أعيان العاصمة ورجال حكومتها ، وبعد المفاوضة استقر الرأى على وجوب مواصلة الأعمال الحربية ، وبعثوا لجنة مؤلفة من ستة مندوبين لمخاطبة الجناب العالى فى ذلك ، فسافرت اللجنة من القاهرة ومرَّت على عرابى فى كفر الدوار لتبلِّغه عن مهمتها . فرأى عزيز أن يسافر معها الى الاسكندرية ، ولا سيما أن السكك الحديدية فى مصر كانت بعد

ضرب الاسكندرية لا تسير قطاراتها الا بأمر العرابيين . واستطاع عزيز أن يحصل على الاذن له بذلك

ولما بلغ عزيز الاسكندرية ، ذهل لما حل بتلك المدينة العظيمة من الدمار على أثر الحريق الذى ذهب بأعظم مبانيها ، وأحال حى المنشية الى آكام من الأتربة والأحجار . وكان الدخان لايزال يتصاعد منها ، وحوانيتها العظيمة التي كانت مملوءة بالأقمشة ، والملابس ، والحلى ، والمجوهرات ذهبت طعاما للنار ، والنهب ، فتعجب عزيز لهذا الانقلاب السريع .. وكان لا يشاهد فى أثناء مسيره من المارة الا رجال الشرطة الانجليز ، بعضهم يركبون الخيل ، وبعضهم مشاة ، وكلهم مسلحون يطوفون بالبلد حفظا للأمن ..

واهتدى عزيز أخيرا الى المنزل الذى يسكنه الباشا والد فدوى ، لكنه ما كاد يهم بالدخول حتى أحاط به نفر من الجنود الانجليز وأمسكوا به ، وكانوا آتين للقبض على الباشا لاتهامه بأنه من العصاة المختبئين . فلما رأوا عزيزا بملابس الجيش المصرى ظنوه قادما بدسيسة من عرابى وأتباعه الى الباشا ، فقبضوا عليهما وساقوهما موثوقين الى المحافظة بعد أن ضبطوا ما وجدوه معهما من أوراق ..

وفى الطريق لمح الباشا عزيزا فعرفه ، وظن انه الواشى به .. أما عزيز فكان يلعن الساعة التى أتى فيها الى الاسكندرية ويندب سوء حظه ، وقد اكفهر لونه واصطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه

حتى كاد يقع من شدة الخوف . ولم يكن الباشا أقل منه اضطرابا

وبينما هما سائران مع الجند الانجليز فى حى المنشية تصدى لهم ضابط انجليزى فأوقف الجند وتأمل الرجلين الموثوقين . ثم خاطب الجند الانجليز باللغة الانجليزية فتركوهما له ، وسلموه ملف الأوراق وانصرفوا .. بينما أشار هو اليهما أن يتبعاه ، فسارا معه حتى خرج بهما من شوارع البلدة الى جهة المسلة فأدخلهما بيتا فى منعطف هناك وأغلق الباب ، فتحقق لديهما دنو الأجل ، وانهما مسوقان لا محالة الى القتل ، على ان الضابط الانجليزى ما لبث أن رفع قبعته وخاطبهما باللغة العربية قائلا : « السلام عليكم .. » فذهل كلاهما لهذه المفاجأة وتأملاه فخيل اليهما انهما يعرفانه ، ثم عرفه عزيز فألقى بنفسه عليه قائلا : « شفيق .. أخى شفيق .. ما أسعد هذه المصادفة ! .. » ..

فقال شفيق : « نعم .. وقد رأيتكما فى خطر ، فسعيت الى انقاذكما من مخالب الموت .. »

فقال الباشا : « اننا مدينان لك بحياتنا أيها الشهم الباسل ، فاطلب ما شئت لعلنا نقوم ببعض الواجب علينا .. »

فقال شفيق : « حسبى مكافأة أن وفقنى الله لانقاذكما من الموت أو الاهانة » . ثم حل وثاقهما ودعاهما الى الراحة ، ودخل هو الى غرفة أخرى وفض ملف الورق ليرى ما يحتويه .. فعثر على الكتاب المرسل من فدوى الى والدته .. فما قرأه حتى هاجت عواطفه وأخذته رجفة الحب ، ولم يستطع الوقوف فجلس على

مقعد هناك ، وهو يكاد يغيب عن الوجود . وصبر الى أن هدأت عواطفه ، ثم أرسل خادما من عنده ليدعو الرجلين الى مقابلته ، فلما حضرا أكرمهما ، ثم سألهما عن سبب وجود هذا الكتاب بين أوراقهما .. فتدارك عزيز الأمر وقال : « كان بين أوراقى أيها الحبيب » . واقترب منه وأشار اليه بأن يخلو اليه ليحدثه بالأمر ، فلما انفردا بادر عزيز بما فطر عليه من الدهاء والكذب قائلا : « ما برحت أذكر أيها العزيز ما تفرضه علىّ واجبات الصداقة والاخاء .. وقد سعيت الي ما وعدتك به من تسهيل أمر زواجك بفدوى ، فبقيت مدة أتردد على بيت الباشا حتى تسنى لى أن أساعد بخيتا فى ايصال رسائلها لك الى البريد سرا لأن أباها لم يكن يأذن لأحد فى مخاطبتها غير بخيت ، وهذا لم يجرؤ على ايصال الرسائل الى البريد خوفا من اطلاع الباشا عليها فينتقم منه . أما أنا فلم أخاطب الباشا بشىء من مقاصدك خوفا من انك لا تريد ذلك . وهذا الكتاب أعطانى اياه بخيت ، لأوصله الى البريد ، ولما كانت ادارته الآن بيد العرابيين ، خشيت أن يرسلوا الكتاب فأبقيته معى على أن أضعه فى أحد مكاتب البريد الافرنجية ضمانا لارساله .. ومما رغّبنى فى المجىء أيضا الى الاسكندرية ان الباشا مقيم بها فاغتنمت الفرصة ، وجئت الى بيته .. فما بلغته حتى قبض الجند الانجليز علينا .. »

فشكره شفيق وقبّله قائلا : « لقد أوليتنى فضلا عظيما أيها الصديق الحميم ، وأرانى عاجزا عن تأدية واجب الشكر لك ..

غير انى أرجو ، وقد قلدتنى هذه المنّة ، أن تخبرنى عن حال فدوى .. »

قال عزيز : « هى على ما تريد من الكمال والجمال » . فأخذ شفيق كلامه مأخذ الاخلاص ، وظنه صادرا عن شعور كريم ومحبة صادقة ، ثم حوّل نظره الى ملابس عزيز العسكرية وقال له : « أراك قد انتظمت فى سلك الجندية » فقصّ عزيز عليه حكاية انتظامه فى الجيش.. وأدخل ماشاء من الأكاذيب الملفقة ، ثم قال لشفيق : « وأراك لابسا ملابس الضباط الانجليز .. فكيف كان ذلك ؟ »

فقال شفيق : « اننى حين سمعت بالثورة العرابية ، وما أصاب الديار المصرية من اختلال الأحوال ، أشفقت على فدوى أن ينالها سوء .. فتطوعت لمرافقة الحملة الانجليزية كى أشاهد الأهل والأحباب ، ولعلّى أستطيع خدمتهم ولا سيما فدوى ، لأن حبها شغل كل جوارحى . ولا يخفى عليك أن انتظامى فى سلك الجندية الانجليزية كان من رابع المستحيلات لو لم استعن بوساطات كثيرة ، ولو لم أكن ممّن يجيدون اللغتين : العربية،والانجليزية، فأقوم أحيانا مقام المترجم .. ولى أمل عظيم اذا نلت حظوة عند رئيسى أن أحصل على عمل دائم بالجيش الانجليزى ، وأترك مهنة المحاماة . فما رأيك ياصديقى ؟ .. وهل أكاشف الباشا الآن بحقيقة حبى لفدوى أم .. ؟ »

فقاطعه عزيز قائلا : « أرى من الأفضل أن تترك هذا الأمر

لى فأدبّره بما تقتضيه الحكمة .. »

فقال شفيق : « اننى أشكر وفاءك ، وأرجو اذا رجعت الى العاصمة قبلى أن تبلّغها تحياتى وتخبرها بأنى لا أزال على العهد، وعما قليل أكون عندها وسأكتب لها رسالة فى الغد .. »

فقال عزيز : « ان رسائلك قد لا تصل اليها بالبريد لاختلال الأحوال كما أخبرتك ، فاذا شئت فكلفنى أن أنقل رسائلك اليها ، وحبذا لو أعطيتنى علامة منك .. »

فقال شفيق : « لدى علامة لا أحب أن يطّلع عليها أحد غيرك لأنك تعلم ما بيننا » . ثم أخرج الدبوس من جيبه وأراه عزيزا قائلا : « هذا الدبوس أخذته منها فى حديقة قصر النزهة تذكارا للحب والولاء ، فاذا أريتها اياه فهو خير علامة .. »

فقال شفيق : « لدى علامة لا أحب أن يطّلع عليها أحد غيرك لأنك تعلم ما بيننا » . ثم أخرج الدبوس من جيبه وأراه عزيزا قائلا : « هذا الدبوس أخذته منها فى حديقة قصر النزهة تذكارا للحب والولاء ، فاذا أريتها اياه فهو خير علامة .. »

فأظهر عزيز استحسانه لهذا الاقتراح ، وشكر شفيقا على ثقته به ...

ثم عاد الاثنان الى الباشا ، ودفع شفيق الأوراق اليهما ونسى كتاب فدوى بينها ، وقال لهما : « اذا أردتما الذهاب فهاكما شعار الأمان المصطلح عليه هنا ، وهو كلمة (السلام) .. ».

فخرج الاثنان ينفضان غبار الموت عن منكبيهما حتى أتيا مخبأ

الباشا ، وعزيز يعجب لهذا الاتفاق العجيب ويقول لنفسه : « ألا يزال على قيد الحياة ، والله لئن حمى وطيس الحرب لأسعين الى قتله .. »

أثنى الباشا على عزيز اعتقادا منه انه نجا من الموت بسببه ، فشمخ هذا بأنفه وقال : « ان ما فعله معنا هذا الرجل انما هو مكافأة لما لى عليه من صنع الجميل ، لكننى سررت لاتفاق وجودك معى » .

ثم نظر عزيز الى الباشا كمن تذكر أمرا ذا بال وقال : « ولدى أمر أرجو ألا يثقل على مسامع سيدى ، ولا أزيدكم علما بغيرتى على شرفكم وشرف كريمتكم ، وقد أتيت من القاهرة لهذه الغاية .. ولعل سعادتك تذكر ليلة كنا فى دار الأوبرا ، ولمحت لك بشىء عن وجوب العناية بأمر خروج فدوى ؟ .. »

فقال الباشا : « نعم .. أذكر ذلك ، فماذا عندك عن هذا الأمر ؟ .. »

قال عزيز : علمت أن أحد شبان العاصمة سعى الى اغوائها ، وهى لصفاء جوهرها وسلامة نيتها وقعت فى شراكه ، حتى انها تعلقت بحبه ، وحينما قامت الثورة العرابية سافر ذلك الشاب الى لندن وشرع يراسلها من هناك لكى تراسله ، وقد وقع فى يدى كتاب منها الى والدته ، فجئت به اليك حتى تثق فى اخلاصى .. »

ثم أحضر عزيز الأوراق وأخرج الكتاب المعهود وأعطاه اياه ،

ففضه الباشا وقرأه . وما انتهى الى آخره حتى صار ينتفض من شدة الغضب ويلعن ابنته ، فقاطعه عزيز قائلا : « ان طيبة قلبها وحسن طويتها غشيا على بصرها ، ولا أكتمك سرا انى معجب بخصالها الحميدة .. وقد تعلق قلبى بها لصفاء جوهرها وطيب عنصرها ، فهل تريد أن تجعلنى فى مكان ذلك الغر الخائن فأكون لها زوجا ولك صهرا ، وعند ذلك تكون لى بمثابة الأب ، وتضع يدك على جميع أموالى ؟ .. »

فاستبشر الباشا ببلوغ مراده ، وقال له على الفور : « انك لتفضلها كثيرا وهى لا تستحق أن تكون لك زوجة ، وانى أعد قبولك الزواج بها شرفا لها ولى »

فقال عزيز : « العفو يا سيدى ، انها مهما يكن من أمرها لم تخرج عن الأصل الكريم والعنصر الشريف ، وأحسب نفسى سعيدا اذا عاهدتنى على الزواج بها »

فقال الباشا : « قد وهبتها لك زوجة فبورك لك فيها .. »

فابتهج عزيز لنجاح مسعاه ، ونسى بغضها ونفورها منه وحبها شفيقا وائتلاف قلبيهما على حب صادق .. ثم أتى الخادم يدعوهما للطعام فذهبا وجلسا الى المائدة ، فقال الباشا : « ما أخبار جنودكم ؟ .. »

قال عزيز : « هم يتأهبون للدفاع فى كفر الدوار .. »

فقال الباشا : « انكم لم تحسنوا التصرف فى الأمر كما كان يجب ، ولقد كانت أعمال العرابيين أول الأمر حسنة المظاهر ،

كريمة الغاية .. أما الآن فاننى أخشى أن ينجلى الأمر عن ضرر يلحق بالبلاد » ..

فقال عزيز : « اننا لم نطلب يا سعادة الباشا الا مطالب عادلة تعود على الوطن بالنفع العميم .. »

فقال الباشا : « هب ان جميع مطالبكم عادلة ، فكيف تريدون تنفيذها مرة واحدة فى يوم واحد ؟.. ان الله فى عباده سنّة لا محيد عنها ، والاصلاح مهما يكن بيّنا لا يمكن ادخاله الا تدريجيا ، وفضلا عن هذا فقد بالغتم فى انكار فضل ولى النعم الذى لم يظهر لكم من أعماله منذ اعتلى الحكم الخديوى الا كل حسن نافع ، فانه رجل مخلص لرعيته محب لمصلحتها ، ساهر على خيرها ، فكيف تقولون : انه يسعى الى بيع الوطن ! .. »

فقال عزيز : « لم نقل ذلك الا بعد أن رأيناه يقبل تأليب الدول الأجنبية علينا »

فقال الباشا : « وماذا كان يصنع بعد أن ثارت القوةالعسكرية عليه ؟ .. وهل يخفى عليكم أن للحكومات الأجنبية مصلحة مادية فى هذه البلاد ، ومصلحته من مصلحتها ؟ .. ألا تذكر ما نقلته لى يوم حادثة عابدين عندما صرح قنصل انجلترا لعرابى بأن اصراره على عناده يحمل الدول الأجنبية على التدخل لاخماد الثورة ؟.. ولقد صرحت الدولة الانجليزية بعد دخولها الاسكندرية بأنها سترحل عنها حالما يتحقق وقف حشد الجيوش والمظاهرات الحربية » ..

فقال عزيز : « انهذه الدولة تريد الاستيلاء على هذه البلاد»

قال الباشا : « لا أظن ذلك صحيحا ، وقد علمت انها اقترحت ابعاد عرابى وصحبه قبل تفاقم الخطب مع بقاء رتبهم وألقابهم ورواتبهم فلم يقبل ، ولو قبل لانحلت المشكلة على أهون سبيل، على انه اذا أصغى اليوم الى ما قيل له لانحلت المشكلة وعاد الجنود الانجليز من حيث أتوا ، أما اذا أصر على مراده فان ذلك يعود وبالا علينا »

فقال عزيز : « لا يخفى على سعادتك اننا ندافع بأعمالنا هذه عن حقوق مولانا السلطان صاحب البلاد »

قال الباشا : « ومن قال لك ذلك ؟ .. انك لا تلبث الا قليلا حتى تسمع بصدور المنشورات المؤذنة باعتبار عرابى باشا عاصيا، وها هو ذا الجناب العالى قد صرح بعصيانه ونحن ليس لنا قدرة على مواجهة القوات الانجليزية ... »

فقال عزيز : « اذا كان الجناب العالى يحب الرعية ، فلماذا يقبل مساعدة الدول الأجنبية ؟ .. »

قال الباشا : « قلت لك : انه لا يمكنه غير ذلك ، ولا بد انه فعل هذا مضطرا ، فبمن كان يستنجد بعد أن انقلبت عليه القوة التى كان يستنجد بها وقت الحاجة ؟ .. وفيم كان حرقكم الاسكندرية ؟.. »

فقال عزيز : « انحرق الاسكندرية لم يكن الا تنفيذا للخطط الحربية القاضية باتلاف ما يتحقق قرب وقوعه فى يد العدو .. »

فقال الباشا : « ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا به .. وحينئذ تتأكد من صدق قولى .. والآن ما الذى اعتزمت أن تفعله ؟.. »

قال عزيز : « سأعود مع الوفد العرابى الى كفر الدوار ؛ ومن هناك أغتنم الفرصة لأعود الى القاهرة »

فقال الباشا : « يلوح لى ان العرابيين اذا أصروا على الدفاع ومخالفة أوامر الخديو فان الحرب لا تنتهى الا بعد زمن طويل . وبذا تطول اقامتك بكفر الدوار أو بغيرها من المراكز الحربية . أما أنا فلست آمن الخطر فى مرافقة الحزب العسكرى ولا سيما بعد أن أبعدونى من القاهرة ، ولهذا ترانى قلقا على أهلى فى مصر ، وأخشى أن ينال فدوى ووالدتها سوء وأنا بعيد عنهما » .

فقال عزيز : « أما خوفك على أهلك فلا أخالفك فيه ، واذا شئت فانى أسعى فى سرعة انتقالى الى القاهرة ، ومتى صرت هناك أتعهد لك بالمحافظة على راحتهن ما استطعت ، غير انى أخشى ألا يثقن بى لعدم علمهن بموافقتك عليه ورغبتك فيه » ..

فقال الباشا : « انى أعطيك كتابا منى .. »

وفى صباح الغد سلمه الباشا كتابا منه الى زوجته ، قال فيه :

« بعد السلام ... قد اضطرنى بقائى فى الاسكندرية وتعذر حضورى الآن الى القاهرة ، وما أخشاه عليك وعلى ابنتنا فدوى اذا — لا سمح الله — حدث حادث فى القاهرة أن أسأل ولدى عزيز أفندى أن يكون عندكم مشجعا لكم وقائما بمهامكم ، لأنه من رجال الجيش ، وهو من أخص أحبائى . وقد تطوع كرما منه

للقيام بهذه المهمة .. فينبغى أن تعتبريه كولدك ؛ واعتمدى عليه فى كل مهمة ريثما أحضر .. والسلام »

فتناول عزيز الكتاب ، ثم ودع الباشا وخرج الى حيث اجتمع برجال الوفد العرابى وعاد معهم الى كفر الدوار ، ثم الى القاهرة

وظلت فدوى أسبوعين تنتظر ردا من والدة شفيق ، فلما يئست من وصول الرد استولى عليها القلق والحزن حتى صارت لا تستسيغ طعاما ولا شرابا ، فخارت قواها وهزل جسمها واكفهر لون وجهها الأبيض وكادت تغور عيناها فى وجهها . ولم يكن لها مؤنس فى خلوتها الا البكاء .. على أن خادمها الأمين كان لا ينفك يعزيها ويخفف كربها باحياء آمالها فى المستقبل . ودخل غرفتها مرة فاذا هى مكبة على البكاء .. فدنا منها ، وقال لها يطيب خاطرها : « خففى عنك ياسيدتى ، ولا تيأسى .. فالله الذى جمع قلبيكما قادر على أن يجمع بينكما ، وقد تعاهدتما على حب طاهر مقدس تعززه الشهامة والشرف وتصونه عزة النفس وكرم الأخلاق ، فلن يخيب الله لكما أملا »

وبينما هما فى ذلك أتت خادمة تدعى فدوى الى مقابلة والدتها فقال لها بخيت : « اغسلى وجهك ياسيدتى وأخفى اضطرابك ، لئلا تلاحظ شيئا منه سيدتى والدتك .. » فنهضت فدوى وهى لا تزال تائهة فى أحزانها فغسلت وجهها ، ثم شغلت نفسها بترتيب أثاث غرفتها الى أن يزول اضطرابها . ولكن الخادمة عادت تقول لها : « ان سيدتى والدتك قلقة لتأخرك » .. فمضت معها الى

والدتها فى قاعة الاستقبال ، فلما كادت تبلغ القاعة رأت ضابطا من ضباط الجيش يهم بالخروج منها ، فأجفلت لأنها كانت بثياب البيت وانزوت حياء الى أن خرج ، ثم دخلت القــاعة فسألتها والدتها عن سبب تأخرها ، فقالت : « كنت مضطربة البال بسبب القلق على أبى لوجوده معرضا للأخطار فى الاسكندرية .. »

فطيبت والدتها خاطرها ، وقالت : « ان الاسكندرية الآن أكثر أمنا من كل أنحاء البلاد ، وقد جاءنا رجل من أخصاء أبيك وأعز أصدقائه بكتاب منه .. كلفه فيه بالاهتمام بأمرنا خشية أن تمتد نيران الحرب الى هنا .. »

فأدركت فدوى ان ذلك الرجل هو الضابط الذى لمحته خارجا فارتعدت فرائصها ، لكنها أخفت اضطرابها ولم تقل شيئا فقالت والدتها : « يظهر لى ان هذا الشاب غيور همام فانه جاءنا توا قبل أن يذهب الى بيته ويغير ثيابه ويستريح من مشقة السفر ، وانى لمغتبطة بمجيئه واهتمامه بنا لأننا فى حاجة الى من يحمى ذمارنا أثناء هذه التقلبات السياسية ، وهو ضابط فى الجيش ، ففى استطاعته أن يجنبنا الأخطار باذن الله. وقد أتانا أيضا بكتاب من أبيك ينطوى على ثقته به وكفاءته للقيام بهذا الأمر .. »

ودفعت الكتاب الى فدوى فتناولته وتلته الى أن أتت على آخره ثم ردته اليها صامتة ، وقد تأثرت كثيرا . وأحست بانقباض شديد ، فعادت الى غرفتها حتى لا ينكشف أمرها لوالدتها . فلما شاهدها بخيت لاحظ شيئا من اضطرابها ، فقصت عليه الحكاية

« ولم تكف عن البكاء فألقت بنفسها على سريرها ..
وبقيت طول يومها مشغولة الفكر بهذا الحادث الجديد .. »

فقال : « اذا لم يكن للمرء زاجر من نفسه فماذا تفيد الاهانة والتعنيف ؟ .. على ان هذا الغر قد سعى بنفسه الى هلاكه ، سواء عندنا ، قرب منا أم بعد ، فلن يجرؤ على مخاطبتك أو رؤيتك ، فدعيه وشأنه الى أن يقضى الله بما يشاء .. »

فتأوهت فدوى من فؤاد مكلوم وقالت : « ان قلبى يحدثنى بأن مجيء هذا النذل ينذر بخطر قريب » . قالت ذلك وألقت رأسها بين يديها ، ولم تكف عن البكاء فألقت بنفسها على سريرها .. وبقيت طول يومها مشغولة الفكر بهذا الحادث الجديد

وفى صباح اليوم التالى جاءت دليلة الى فدوى مستبشرة ضاحكة ، فلما رأتها فدوى تشاءمت من رؤيتها وكرهت مخاطبتها ، ولكن العجوز أقبلت عليها كأنها لم تبال بنفورها منها وقالت : « أرى سيدتى لا تزال غاضبة علىّ ، وأنا لم آت الا بما فيه خيرها ، ولم أقصد الا ما أراده أبوها .. »

فقالت فدوى : « ما الذى تعنين من هذا القول ؟ .. »

قالت دليلة : « أعنى الخاتم الذى رميته فى وجهى منذ بضعة أيام ، فستلبسينه الآن بيد من لاتستطيعين مخالفته .. »

فنظرت فدوى اليها شزرا وقالت : « من الذى يستطيع ذلك ؟ »

قالت دليلة : « اذا أذنت لى قصصت عليك الخبر .. ان سيدى الباشا أباك قد سمح بخطبتك لمن أردت الباسك خاتمه فامتنعت عن ذلك ونهرتنى .. »

فنفرت فدوى وقالت لها : « هل بلغ بك الأمر أن تخاطبينى

بمثل هذا ؟ .. اقصرى ولا تضيعى حرمة شيخوختك .. »

فقالت العجوز : « لعله لا يصعب عليك سماع كلامى يا سيدتى ، فانى لم آت لأثير فيك ثائرة الغضب بل لأطلعك على حقيقة الأمر .. لعل قلبك يرق لذلك الشاب الذى لا يريد من الدنيا الا رضاك »

فقالت فدوى : « لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام ، فليس ذلك من شؤونك »

قالت دليلة : « انى لا آتيك الا بالخبر اليقين ، وهذا كتاب يكشف لك حقيقة الأمر ويطلعك على طوية من تعلّق قلبك بحبه ويريك الشراك التى نصبها لك فوقعت فيها لصفاء قلبك .. »

فاضطربت فدوى عند سماعها هذا الكلام ، وقالت : « ماذا ؟ ألا تكتّفين عن العودة الى مثل هذا الكلام ؟ .. »

فقالت العجوز : « انى أقابل اهانتك بالصبر لأننى كنت فتاة مثلك لا أنقاد الا لما تصوره لى خيالاتى ، فخذى هذا الكتاب واقرئيه ، وستعلمين بعدئذ صدق خدمتى لك »

فأخذت فدوى الكتاب وفضّته ، ويداها ترتعشان فقرأت فيه :

« حضرة السيدة فدوى ..

« ان الموجب الأول لارسال هذا الكتاب اليك هو عظم حبى لك ، ولولا هذا الحب الذى بلغ فى نفسى مبلغ الهيام ، وما لقيته من اكرام أبيك الجليل القدر لأوقعتك فى شر أعمالك ، غير أن

فؤادى المتيّم بحبك لم يطاوعنى على ذلك رغم انك تماديت فى الجفاء والنفور ولم تبالى بما أظهرته لك من اللين والملاطفـة ، وكلما سعيت الى التقرب منك قابلت هذا باهانتى واذلالى ، وأنا لم أقترف ذنبا يوجب هذا .. غير إنى أطلعت على ما نصبه لك بعضهم من الشراك ، فاعلمى يا حبيبتى أن الذى قد وهبته قلبك غلام غر لا يعرف له حسبا ولا نسبا ما خلا والديه ، فهل يليق بك وأنت ابنة أصل كريم ، ومجد وسؤدد ، أن تسلمى زمامك الى من لا يعرف جده ، ولا وطنه ، ولا هو من النـاس فى مقام يليق بك ويرضى أباك ؟ .. إن من كان هذا أصله لن يعرف لك قدرا ، ولا يقدر لك مقاما ، ولولا ذلك ما أذاع أمرك بين الناس وجعلك مضغة فى أفواه العامة . وما تزعمين انه عاهدك عليه سرا تتداوله الألسنة فى الفنادق والمقاهى ، ولم يبق أحد لم يبلغه خبر قصر النزهة ، وحكاية الزر والدبوس . وقد كتمت كل ذلك عن أبيك صيانة لحرمتك ، فاعلمى الآن انك قد صرت خطيبة لى بأمر أبيك ، فاذعنى لهذا الأمر ، ودعى الانقياد لذلك الغلام . واذا حاولت الاستمرار فى غرورك فأنت الجـانية على نفسك ، وما لا ترضينه طوعا ستنقادين له كرها ... والسلام ... محبك عزيز»

***

فما أتمت فدوى قراءة الكتاب حتى خارت قواها واكفهر لون وجهها ، فالتفتت الى دليلة وقالت لها : « لقد تمادى هذا اللئيم تماديا ليس وراءه حد ولا نهاية .. وأراك متممة لمبادئه الخسيسة ،

فاخرجى من هذا البيت ولا تعودى اليه أبدا » . فخرجت دليلة وبقيت فدوى فى حيرة ممـا قرأته من أمر الدبوس والزر ، ثم أطلعت بخيتا على الحكاية ، فقال لها : « لا تصدقى ما ذكره أو يذكره هذا الخائن ، فانه كاذب مخادع »

— ٧ —

اجتماع الحبيبين

بعد بضعة أيام عاد الباشا أبو فدوى الى القاهرة ، فسـارع عزيز الى زيارته ، فبالغ الباشا فى اكرامه وتبجيله ، فلما بلغ فدوى ذلك خشيت سوء العاقبة

وبعد يومين خلا الباشا الى فدوى وفاتحها فى أمر خطبتهـا لعزيز ، وأطنب فى مدح صفاته ومروءته ، وانه قد نجاه من الموت فى الاسكندرية ، الى أن قال لها : « وقد وعدته بأن يكون لك زوجا » ..

فقـالت فدوى : « لا أسـتطيع أن أرفض أمرا لك يا أبى العزيز ، الا اننى أرجو الامهال فى هذه المسألة .. »

فقال الباشا : « وما الفـائدة من الامهال وقد عرفت هـذا الشاب معرفة جيدة ، وهو الذى أنقذنى من الموت على يد أحد أصحابه .. هذا الى أنه رجل ذو ثروة واسعة .. ؟ »

فقالت فدوى : « ان البلاد الآن فى خطر ، والأفكار مضطربة، فيحسن التريث فى الأمر حتى تهدأ الأحوال .. »

قال الباشا : « ان ذلك لا يوجب الامهال ، ولابد من اتمام الأمر ، فالشاب ممن يليقون بنا .. »

فقالت فدوى : « ولكن .. » وخنقتها العبرات فلم تستطع أن تتمّ عبارتها ..

فبادرها أبوها قائلا : « لا حاجة بنا الى التردد .. وقد قضى الأمر ووعدت الرجل بذلك .. »

فلم تستطع فدوى جوابا من شدة الغضب ، فانفجرت بالبكاء. فغضب الباشا منها وانتهرها قائلا : « ما معنى هذا البكاء ؟ .. لعلك تريدين خداعى بدموعك ، فلا حاجة بنا الى الاطالة فالغد موعد عقد الزواج .. »

فترامت على يدى أبيها تقبّلهما وتقول : « ارحم يا أبى ابنتك المسكينة .. واسمح لها بكلمة » .. فأحس بالحنان الأبوى ، وانعطف قلبه نحوها ، وقال : « تكلمى .. »

فقالت فدوى : « والدى .. لا تظلم ابنتك ولا تحمّلها ما لا تطيق .. »

فقال الباشا : « ماذا ؟ .. هل تجرؤين على مخالفة قولى ؟ »

قالت فدوى : « ما عوّدتك أن أخالف لك أمرا ، ولكن .. »

فقاطعها والدها وهو يتميز من شدة الغضب : « كفى .. لا تزيدى .. أتظنين انى لم أطلع على مكاتبتك لذلك الشاب الغر الشقى ؟ .. »

فقاطعته فدوى قائلة : « مهلا يا أبى ولا تظلم ابنتك ، فالموت

أهون عليّ من قبول هذا الأمر » ..

قال الباشا : « لا يعنيني هذا ، ولا يهمني غير وعدي ، ولابد من انجاز وعدي .. هل فهمت ؟ .. »

فأوشكت فدوى أن تفقد صوابها من شدة التأثر ، لكنها تجلدت وقالت بصوت ضعيف ونغمة حزينة : « الموت أحب اليّ من هذا .. »

فانتهرها والدها قائلا : « أنتيجة التربية يا فدوى أن تعقّى أباك وتخالفى أمره ؟ .. »

فقالت فدوى : « معاذ الله أن أعق أبى ، وانما أطلب اليك الامهال ريثما تختبر من خدعتك مظاهره .. »

فقال الوالد : « عبثا تحاولين ، فغدا موعد عقد الزواج .. قبلت أم لم تقبلى .. »

ثم تركها وخرج لايلوى على شيء .. وأخذ يهتم بمعدات عقد الزواج . وبقيت فدوى تتقلب على نار الأسى ، وتندب سوء حظها ، فتراءى لها أن تستنجد بوالدتها ، فلما ذهبت اليها وأطلعتها على الأمر اجابتها قائلة : « خير لك أن تذعنى لأمر أبيك ، فانه لا يسعى الا لما فيه خيرك ، ولا ينبغى أن تخالفيه ، فأنت أقل خبرة منه ، وهو لا يريد بك سوءا » . فعادت فدوى الى غرفتها وقد عصر الأسى روحها ، وبقيت بياض النهار ،وسواد الليل تتقلب على مثل الجمر .. فلما كان الصباح أعد الباشا معدات الفرح من الطعام والشراب ، وأعدت فدوى جرعة سامة

أخفتها بين ثيابها .. حتى اذا تحققت من وقوع عقــد الزواج تجرعتها لتتخلص من حياة تسخّر قلبها فيهــا لغير من يحبه ويهواه ..

أما عزيز فأخذته نشوة الطرب لما ناله من الظفر بمأربه ، فدعا من استطاع من أصدقائه الى الاحتفال ، وارتدى أفخر ما لديه من الملابس ، متناسيا حالة البــلاد التى كانت فى خطر عظيم ، فالجنود المصريون كانوا فى التل الكبير يتوقعون هجوم الانجليز عليهم ، ولكن عزيز ما كان يفكر الا فى نفسه . ولو ســاعدته الأحوال لجــاء بالمغنين والمغنيات . وما حان وقت العصر حتى امتلأت القاعات فى قصر الباشا بالمدعوين ، فلما تأكدت فــدوى من حقيقة الأمر نالها اليأس فخلت الى نفسها فى غرفتها تندب سوء حظها ، وأرسلت تستقدم بخيتا وأطلعته على ما اعتزمته من تجرع كأس السم ، فقال لها : « كلا .. لا تفعلى هذا ياسيدتى ولاتبيعى حياتك رخيصة .. ان هذا الخائن لن يبلغ ما يريد ، وأنا حىّ أرزق ، فلا بد لى من أن أخطف روحه قبل أن يدركك بصره ، وبعد ذلك سواء عندى مت أم بقيت حيا ، لأنى أكون قد قمت بواجبى وخلصت نفسا طاهرة من العذاب والموت .. »

وكان بخيت قد أعد مسدسا ليطلقه على عزيز ، ثم على نفسه فيموت الاثنان فداء لفدوى ..

وبينما كان بيت الباشا غاصا بالجماهير احتفالا بعقد القران ، جاءه خادم يقول : « ان بالباب جاويشا فى يده كتاب لسعادتكم »

فخرج الباشا وتناول الكتاب فاذا هو مكتوب بايعاز من عرابى باشا فى قصر النيل يقول فيه : « ان امتلاك جنود العدو حصون التل الكبير يقضى على جميع أمراء العسكرية والملكية وأعيان البلاد بالحضور حالا الى سراى فصر النيل ، للمباحثة فى الاحتياطات اللازمة لمنع العدو من دخول مدينة القاهرة .. فيجب حضوركم حالا الى السراى المشار اليها .. من قصر النيل يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢ »

فلما قرأ الباشا الكتاب تغيَّر لون وجهه ، وأمر باحضار العربة وركب ، وركب معه من حضر من أعيان البلاد الى قصر النيل . فلما وصلوا رأى الباشا قاعات القصر ملأى بالأمراء والأعيان وهم يتفاوضون فيما يتخذونه من الاحتياطات لمنع العدو ، وكثرت الآراء ، وتعددت وتناقضت ، فنهض أحد الباشوات وكان من الذين لا يزالون محافظين على الولاء للخديو فعنف العسكريين على عصيانهم ، وحرضهم على وجوب التماس العفو من مولاهم ، ووافقه كثيرون ممن حضروا ، فألّفوا لجنة لتكتب عرضا بطلب العفو ، فكتبته وأرسلته مع وفد خاص الى الاسكندرية

وبعد مغادرة الوفد القاهرة أصرَّ بعض الحاضرين على وجوب الدفاع وقرروا انشاء خطوط دفاعية فى ضواحى القاهرة ، فذهب عرابى باشا لتنفيذ ذلك فى العباسية . وكانت العاصمة حينذاك فى اضطراب كبير خوفا من حدوث مثل ما حدث فى الاسكندرية من حريق وخراب ..

أما عزيز فلم يكن له هم الا الظفر بفدوى ، فلما أقبل المساء ولم يأت الباشا خشى أن يعرقل الانقلاب السياسى مساعيه ، ولا سيما اذا جاء شفيق الى العاصمة ووقف على خيانته .. فيعمل على الانتقام منه ، فسوّلت له نفسه أن يأتى بزمرة من الرعاع يهدد بها فدوى ويختطفها غصبا ، وهكذا فعل . فلما وصل الى باب غرفتها وهمّ بالدخول اعترضه بخيت ، ولكنه قاومه بالقوة ، وهجم مع رفاقه يريدون فتح الباب قهرا . فلما رآهم بخيت على هذه الحال أطلق رصاص مسدسه على عزيز فأصاب جنبه فسقط على الأرض ، وعلت الضوضاء ، وهجم من كانوا معه على بخيت بالعصى ، فدافع عن نفسه حتى كاد يقع على الأرض . وكانت فدوى قد اضطربت لهذه الضوضاء واطلاق الرصاص ، فتناولت كأس الجرعة السامة ويداها ترتعشان وفرائصها ترتعد ، ثم أخرجت تذكار شفيق وجعلت تقبّله وتذرف العبرات قائلة : « على الدنيا ومن فيها السلام .. الوداع ، الوداع أيها الحبيب ، اذا كنت لا تزال من أهل الحياة ، واللقاء اللقاء ، اذا كنت قد انتقلت الى أهل البقاء » .. ولم تقو على الوقوف ، فألقت بنفسها على المقعد خائرة القوى ، وسمعت ضجة أعقبها سكون وصوت رخيم ينادي : « ما هذا ؟.. أين فدوى ؟.. من هؤلاء يابخيت ؟.. وكيف يجرؤون على انتهاك حرمة البيوت ؟ » . فلما سمعت فدوى هذا الكلام خشيت افتضاح أمرها ورفعت الكأس الى فمها ، فسمعت ذلك الصوت نفسه يقول : « أين فدوى ؟ .. من يظلم

هذا الملاك ؟ » .. فبهتت وأخذتها الدهشة لأن هذا الصوت كان يشبه صوت من تحب ، ورغبت فى استطلاع الحقيقةقبلأنتتجرع السم ، وتصورت ان حبيبها عاد اليها .. ثم عاد الصوت مرة أخرى يقول : « اذهبوا ولا يبقى منكم أحد » . وبعد بضعة ثوان لم تعد تسمع صوتا ، ثم فتح الباب ودخل ضابط فى زى انجليزى ، فلما رأته اضطربت من جديد ، ولكنه بادرها قائلا باللغة العربية : « لا تخافى يافدوى ، أنا شفيق .. »

وكانت فدوى لا تزال جالسة والجرعة السامة فى يدها ، فلما سمعت ذلك وقعت الجرعة من يدها وقالت : « شفيق ؟ .. شفيق ما زال على قيد الحياة ؟ .. » وسقطت على الأرض مغشيا عليها فرشّها شفيق بالماء حتى أفاقت ، وأجلسها على المقعد ، وهو يقول : « خففى من اضطرابك » . فلما تأكدت انه هو شفيق لم تلبث أن صاحت قائلة : « شفيق ، حبيبى شفيق ، لقد حفظ الله حياتى فأرسل الىّ ملاكى الحارس » .. فأخذ شفيق يهدّىء من روعها ويلاطفها الى أن هدأ جأشها ، وعاد اليها صوابها

نهض شفيق ليرى ماذا تمّ لعزيز، فاذا هو يئن من ألم الجراح، وقد همّ بخيت بأن يقضى عليه ، فمنعه شفيق وأمره بنقله الى غرفة لاسعافه ، فقالت فدوى : « هل تريد احياء خائن أراد بك سوءا ؟ .. »

فقال شفيق : « تمهلى يا حبيبتى ، فهذا الشاب كان من أصدقائى وهو الآن طريح الفراش بين حى وميت ، والواجب

يقضي عليَّ أن أعامله معاملة الجريح فى وقت الحرب »

ثم أمر شفيق بنقله الى غرفة أخرى ، وضمّد جراحه حتى أفاق ، فلما رأى شفيقا عند رأسه بكى ، وشعر بما أساء به الى هذا الباسل ، فهمَّ بأن يلقى بنفسه على قدميه طالبا المغفرة ، فمنعه شفيق وطيب خاطره قائلا : « لابأس عليك ياعزيز ، أنا أعلم انها هفوة صدرت منك فلا أؤاخذك بها ، فاضطجع ريثما تستريح وسأعود اليك » . ثم تركه وعاد الى فدوى

وكان رجال الشرطة قد سمعوا صوت اطلاق الرصاص والضجة التى أعقبت ذلك ، فجاء بعضهم الى القصر ، فشاهدوا شفيقا بداخله مرتديا ملابسه العسكرية الانجليزية ، وكانوا قد سمعوا بدخول الانجليز مدينة القاهرة فى ذلك المساء ، فظنوه فعل ذلك عمدا ، ولم يستطيعوا عمل شىء ..

أما والدة فدوى فلما سمعت الضوضاء واطلاق الرصاص ، اضطربت وخرجت فرأت الازدحام ، ثم رأت ضابطا انجليزيا يدخل غرفة فدوى فخشيت عليها ، ونادت الخدم وأمرتهم أن يمنعوه ، فلم يجرؤ أحد منهم على ذلك ، فظنت أن الانجليز دخلو القاهرة وجاءوا للقتل والنهب ، فبقيت فى قلق عظيم على ابنتها ، الى أن أتى زوجها الباشا فأطلعته على الخبر .. فصار ينتفض من شدة الخوف والغضب ويفكر فى مخرج ليخلص ابنته ، واذا ببخيت قد أتى اليه ودلائل الفرح والبشر بادية على وجهه وقال : « لم لا يدخل سيدى ؟ .. » فدخل الباشا غرفة ابنته فاذا هى

جالسة مع ذلك الضابط ، فاستاء لما كان يجب عليها من التحجب عن الغرباء ، ولا سيما انه كان يعهد فيها المحافظة على تلك العادة، غير انه لم يقو على ابداء ملاحظة فى هذا الشأن فنسب دلك الى شدة خوفها ، فلما اقترب منهما وتفرس فى وجه شفيق عرف، أنه هو الذى نجّاه من الموت فى الاسكندرية ، فسارع الباشا الى تحيته وقال : « أهلا وسهلا ، انى لا أنسى فضلك مدى الحياة ، ما هذه المصادفه السعيدة ؟ .. ومتى جئت ؟ .. »

قال شفيق : « جئت هذا المساء مع الجيوش الانجليزية .. »

فقال الباشا : « هل على المدينة من بأس منهم ؟ .. »

قال شفيق : « لا .. لأنهم دخلوها وأقاموا الحراس فى كل جهاتها ، واحتلوا القلاع والحصون ، ولا يلبثون أن يقبضوا على عرابى .. وها قد تمّت نبوءة قائد الحملة الجنرال ولسلى بأنه يدخلها فى ١٤ سبتمبر »

أما فدوى فدهشت لترحيب أبيها بشفيق ، ولكن امارات الوجل كانت لا تزال بادية على وجهها بعدما قاست من الأهوال والمفاجآت ..

ولم يكن الباشا قد علم بسبب اصابة عزيز ، وخيّل اليه انه أصيب خلال دفاعه عن فدوى ضد ذلك الضابط « الانجليزى » الجالس معهما ، فأسف لما أصابه وأوجس خيفة من ضياع الثروة التى أوشك أن ينالها ، وهمّ باستطلاع الخبر فبادرته فدوى وكانت قد استردت هدوءها وقالت : « ان بخيتا هو الذى ضربه

يا أبى ، ويا ليتها كانت الضربة القاضية .. »

فتعجب والدها وسألها : « وكيف كان ذلك ؟ .. »

فقالت فدوى : « قبل أن أقصَّ عليـك الخبر ، أرجو أن تخبرنى كيف عرفت هذا الضابط ؟ .. »

فقال الباشا : « انه هو الذى أنقذنا من الموت فى الاسكندرية أنا وعزيز .. »

قالت فدوى : « هل تعرف أن اسمه شفيق ؟ .. »

فبهت والدها اذ تذكر هذا الاسم ، وقال : « لعله الذى علمت عنه من عزيز ؟ .. »

قالت فدوى : « نعم .. هو هذا الملاك الحارس الذى أنقذك من الموت مرة ، وأنقذنى منه مرتين ، وأنقذ ذلك الخائن مرارا »

فخجل شفيق وقد أذهله لطف حديث فدوى حتى أوشك أن يغيب صوابه بنشوة الحب ، فقالت له وهى ترمقه بنظرات تنطق بأنها لا تخشى فى حبه لوم اللائمين : « اذا ذكرت بسالتك فلا أزيدك الا رفعة لأن أعمالك المتجددة مع الأيام ناطقة بذلك ، فلا تحسب شكرى لك على ما أوليتنى من الفضل ثناء عليك » ولم تدع له مجالا للكلام بل وجَّهت الخطاب الى أبيهـا قائلة : « هل تلومنى بعد هذا يا والدى اذا كنت ... » وكادت تتلعثم فأتم أبوها عبارتها قائلا : « اذا كنت تحبينه .. أليس كذلك ؟ » فخجلت فدوى ، ولكنها استأنفت الكلام فقالت : « لا أجهـل يا أبى ان وجودى بالقرب منه محظور فى عرفنـا ، غير انى لا

أستحيى أن أقول بأنه يجب معاملة هذا الشهم ، وقد أنقذنى من الموت مرتين ، معاملة أقرب الناس منى .. فاعتبر مقابلتى له بهذه الصورة كمقابلتى لأقرب أقربائى .. »

فنهض الباشا حينئذ الى شفيق وقبّله ومدحه ، فكرر شفيق ما حضره من عبارات الشكر والامتنان لما أظهره له .. ثم أخذوا بأطراف الحديث عن عزيز وأعماله حتى انكشفت للجميع مساعيه وخبث جوهره ، فأسف الباشا على ثقته به قدر أسفه على فقد ثروته بهذا الحادث ، ثم سأل الباشا شفيقا عن أسرته ، فقال : « ان أبى اسمه ابراهيم ، وهو من مستخدمى قنصلية انجلترا فى القاهرة ، وقد قضى حتى الآن فى خدمتها زهاء ثمان عشرة سنة »

فدهش الباشا لذلك وخشى ألا يكون مسلما ، فقال : « ومن أى الطوائف هو ؟ .. »

قال شفيق : « هو من الطائفة الاسلامية »

فازداد الباشا دهشة وقال : « هل يكون مسلما ويقضى فى خدمة الحكومة الانجليزية جل عمره ؟ .. »

فقال شفيق : « ان لتقربه من قنصل انجلترا فيما يلوح لى سرا حرص على اخفائه ولم أعرفه .. »

فقال الباشا : « أظن أن هذه البلاد ليست بلادكم ؟ .. »

فقال شفيق : « أعترف لك بجهلى الحقيقة فى هذا ، لكنى أرجح أن أبى جاء من الشام » ..

فرأى الباشا أن يوجّه الحديث الى ناحية أخرى لئلا يضايق

شفيقا ، وعاد الى الحديث فى أمر عزيز ، ولكنه أضمر أن يبحث عن حقيقة حسب شفيق وسببه قبل اتمـــام أمر الزواج . فقال الباشا : « ان خيانة هذا الرجل تستوجب القتل »

فقالت فدوى : « لا شك فى ذلك ، وانى لأعجب كيف سعى شفيق الى اسعافه ؟ .. »

فقال شفيق : « ألم يكن هذا الشاب من أصدقائى ، بل كان رفيقى فى المدرسة ؟ .. فلا يليق بى أن أقابل اساءته بالشر .. »

فقالت فدوى : « وهل يستحق هذا الخائن غير القتل ، وقد أبدى لك ما أبداه من الشر والعدوان ؟ .. »

فقال شفيق : « أى فضل للعاقل على الجاهل اذا هو قابل الجهل بالجهل ، والشر بالشر .. وما الانتقام الا شأن الضعيف الساقط ، وهذا المسكين قد نال ما جنت يداه ، فأصيب بمـا استحق ، ولو استحق الموت لكانت الضربة قضت عليه ، ثم هو الآن جريح يقاسى من الآلام وتأنيب الضمير ما يكفيه جزاء .. »

فقالت فدوى : « لا تزال تسعى الى البقاء عليه وشفائه ، وأنا لا أرى جزاء له الا الموت .. »

فقال شفيق : « ان الموت والحياة يا عزيزتى بيد الله ، وما نحن الا عبيد ضعفاء عرضة للخطأ والتهور ، وقد رأيت هذا الشاب يترامى على قدمى ليقبّلهما وهو فيما علمت مما به من شـــدة الألم ، وقد عانى من تأنيب الضمير بما فيه الكفاية .. ومع ذلك فالشهامة تأمر بالعفو عند المقدرة .. »

قالت فدوى : « ولكنى أطلب اليك بحق المحبة ألا تبقى عليه، والا فليضمد جرحه فى غير هذا البيت .. »

فقال شفيق مبتسما : « ان أمرك ياسيدتى مطاع ، ولكنى أذكرك بأمر واحد .. هو اننى قد صرت من رجال الجيش ، وأصبح من الممكن أن أتعرض للرصاص فى الحروب ، وحياتى دائما فى خطر .. فلو بلغك يوما اننى أصبت برصاصة ، ولم ألق لى نصيرا ولا مواسيا ، فماذا تكون حالك حينئذ .. وكيف يكون قلبك ؟ .. »

فارتعدت فرائص فدوى جزعا من كلام شفيق ، ثم مسحت دموعها وقالت : « ان هذا خائن لئيم أعوذ بك من التشبه به .. »

فقال شفيق : « ان البشر ضعفاء يا عزيزتى ، ومن منا معصوم من الخطأ ، وقد قيل : ان المستغفر لذنبه كمن لا ذنب له .. »

وكان الباشا يسمع حديثهما ، وينظر الى شفيق معجبا بكرم أخلاقه ، فقال : « لله درك يابنى ، ما أكبر نفسك .. وما أظهر دلائل الفضل عليك ، فافعل ما تراه لئلا يقال : فقدت المروءة أهلها .. »

فقال شفيق : « عفوا ياسيدى ، انى لم أقصد الا ابداء رأى ، ولسيادتك الأمر والنهى ، غير انى أظن انه يحسن بقاء عزيز هنا الآن تحت العلاج .. »

فقال الباشا : « نعم الرأى رأيك يابنى .. فهيا بنا نخيره فى البقاء هنا ريثما يتم شفاؤه أو يذهب الى بيته .. »

فلما قابلاه أخفى عزيز وجهه بين يديه وقال : « عفوا ، عفوا أيها الصديق الكريم ، فضميرى يؤنبنى لما اقترفته نحوك وذنبى عظيم لا يكفر عنه الا الموت .. »

فقال شفيق : « لا بأس عليك ، ولا رادّ لما يأتى به القدر ، أما الآن فقد أتيت مع سيادة الباشا لنخيّرك بين البقـاء هنا ، أو الذهاب الى بيتك ؟ .. »

فقال عزيز : « أرجو أن تسمحا بنقلى الى منزلى » . فأجاباه الى ذلك ، وعادا الى غرفة فـدوى حيث استأذن شـفيق فى الانصراف قائلا : « انى آسف لعدم امكانى البقاء الآن لأزداد شرفا ومؤانسة برؤيتكم ، اذ ربما يترتب على تغيبى عن الجيش وقتا طويلا سوء الظن بى ، لأنهم لم يسمحوا بانخراطى فى جندهم متطوعا الا بعد السعى الكثير لأنى لست انجليزى الأصل ، وانما ساعدنى على ذلك أن أبى من موظفى الحكومة الانجليزية هنا وله خدمات صادقة ، فلا بد لى من أن أبرهن لهم على صدق خدمتى حتى يثقوا بى ، وسأعود الآن الى الآلاى ، ومتى استقر الأمر أستطيع التشرف بالمثول بين يدى سعادة الباشا فألقى اليه بما يخالج ضميرى من الحب والاحترام ، لعلّى أصادف ما آمله من عطفه وكرمه » ..

فلاحظ الباشا المراد من تقربه ، وقد أحبه وسرّته العلاقات التى ربطت فدوى بحبه . أما فدوى فقد كان هينا عليها أن تفارق الحياة ولا تقاسى بعاد الحبيب مرة ثانية ، لكنها لم تجـد مجالا

لاظهار عواطفها أمام أبيها ، فنظرت الى شفيق مستعطفة وقد تاه عقلها ، فتبادلا الكلمات بالعيون الناطقة التى عناها الشاعر بقوله :

تشير لنا عما تقول بطرفها
وأومى اليها باللحاظ فتفهم
حواجبنا تقضى الحوائج بيننا
فنحن سكوت والهوى يتكلم

ثم عاود شفيق الكلام ، فقال : « اننى فى انتظار مجىء والدى؛ فمتى قدما فانى أرجو أن تقوى علاقات المودة المتبادلة بين الأسرتين » ..

فقال الباشا : « ومتى يحضران بمشيئة الله ؟ .. »

قال شفيق : « أرجو أن يكون ذلك قريبا ، ولكن ربما تستبقى الحكومة والدى فى لندن بعض الوقت »

ثم دنا شفيق من الباشا وودعه ، ومد يده الى فدوى ، فمدت يدها وهى ترتعش لعظم تأثرها .. فضغط عليها بلطف كأنه يقول لها : « عندى مثل ماعندك .. فلا تيأسى من حبى لك ».ثم انصرف شفيق وبقى الباشا وابنته ، فأثنى على كرم أخلاق شفيق وبسالته، ولامها على كتمانها ما ربطها بشفيق من الحب الطاهر ، فاعتذرت له بأنها كانت تخشى ألا يوافقها ، وبعد التحدث فيما كان من سفالة عزيز وما آل اليه أمره وفيما أبداه شفيق من كرم النفس وكيف ظهر فضله ، نهض الباشا يريد الذهاب الى المدينة ليرى

ما حدث فيها بعد دخول الانجليز ، فوجد انهم دخلوها بسلام

ولما وصل شفيق الى معسكره فى العباسية ، وجد هناك عرابى وبعض أصحابه معتقلين فى غرفة .. وأخذ الجنود الانجليز يلقون القبض على زعماء الثورة للمحاكمة ، فحكم على سبعة منهموفيهم أحمد عرابى زعيم الثورة بالاعدام ، ثم أمر الخديو بالعفو عنهم وابعادهم الى جزيرة سيلان ، وبعد ابعادهم اليها أخذت الأحوال فى السكون زويدا رويدا . وكان شفيق ينتظر بعد محاكمة العرابيين واستقرار الأحوال أن يعود الانجليز الى بلادهم ليستقيل هو من الجيش الانجليزى ، ويخلو له الجو ويتزوج بحبيبته ، غير ان أمله لم يتحقق لأن الحكومة الانجليزية قررت احتلال مصر الى أجل غير مسمى ، بدعوى انها جاءت لاخماد الثورة وتأييد الأمن .. فلا تبرح البلاد حتى يستتب الأمن تماما . فظل شفيق فى أثناء بقائه بالقاهرة يتردد على بيت الباشا لمشاهدة فدوى ، ومع ذلك لم يكن ليهمل السؤال عن صحة عزيز ..

كان والدا شفيق قد وردت اليهما كتب منه تنبئهما بأنه فى مصر بخير وسلام ، فسرا لذلك .. ولاسيما حين علما انه ممن أنعم عليهم الجناب العالى بالنياشين والرتب ، وممن اختيروا للانتظام فى خدمة الجيش المصرى وتدريبه ..

وبقيت والدة شفيق تكتم عن زوجها أمر حب شفيق لفدوى ، حتى أتاها كتاب منه يخبرها برضاء والد فدوى عنه ، وانه يميل الى زواجه بها ، ويطلب اليها أن تطلع أباه على حقيقة الخبر ،

وتستطلع رأيه فى ذلك ، فبقيت تترقب الفرص حتى كانت ليلة من ليالى الصيف فى لندن .. وبدا زوجها أقل انقباضا من أى وقت مضى ، فجلست اليه وبدأت تجاذبه الحديث الى أن قالت :
« ألا تظل مصرا على كتمان حكاية الشعر الذى فى الصندوق؟..»

فتأفف ابراهيم من هذا السؤال وقال : « أستحلفك بالله ألا تعيدى على مسمعى ذكر ذلك الشعر ، فقد قلت لك : اننى لا أستطيع اطلاعك على شيء من أمره »

فضحكت سعدى ، وقالت : « هل تظن أن أحدا لايحمل أسرارا سواك ؟ .. ان لدى سرا لو أطلعتك عليه لزال عنك الغضب ، وبديت مسرورا ... »

قال ابراهيم : « وماهو ياترى ذلك السر الذى يجلب السرور وتكتمينه ؟ .. »

قالت سعدى : « لا أستطيع أن أذكره لك قبل أن تسمح لى بفض الكتاب أو تطلعنى على حكاية الشعر .. »

فقال ابراهيم : « اذا كان لديك نبأ سار فهاتيه ، وكفانا ما كابدناه فى أثناء البحث عن ولدنا سفيق .. »

قالت سعدى : « لا أظن أنك أقل اهتماما منى باختيار عروس لولدنا ، فما رأيك فى الابنة الغنية .. ألا تفضلها على الجميلة ؟ »

فقال ابراهيم : « اذا أردت رأيى فلا أريد عروسه الا من ذوات قرباه .. »

فقالت سعدى : « هل تقصد أقرباءك .. أم أقربائى ؟.. »

قال ابراهيم : « أقربائى .. »

فرمقته سعدى بنظرة كلها دهشة وقالت : « قد مرّ علىّ فى عشرتك أكثر من عشرين سـنة ، ولم تطلعنى على شىء من أمر وطنك ، أو ذوى قرباك .. فكتمانك عنى هذا الأمر أشبه بكتمان أمر الصندوق .. »

فابتسم ابراهيم سـاخرا ، وقال : « ان معرفة أحـد السرين متوقف على معرفة الآخر .. »

فأرادت سعدى استطلاع السر وقالت : « اذا اختار ابنة من بنات مصر ذات حسب ونسب وتهذيب .. هل تكون مسرورا ؟ »

فقال ابراهيم : « كلا .. بل أكون محزونا ولو كانت الابنة من بنات الباشوات ، لأنى أفضل له ابنة من بنات أعمامى ولو كانت فقيرة » ..

فاضطربت سعدى لعلمها بشدة تعلق شفيق بفدوى ، ولكنها لم تستطع مراجعة زوجها لئلا يفهم قصدها فسكتت مرتبكة . ولم تقدّر مايأتى به القدر .. وكتبت الى شفيق تخبره بأنها لم تخبر أباه بأمره مع فدوى لأنها لم تر فرصـة مناسـبة لذلك ، وستخبره فى أول فرصة ، أما مجيئهما الى مصر فسيكون بعد حين لأن الحكومة الانجليزية استبقت أباه لتستعين به فى بعض المهام المتعلقة بمصر لما تعلمه من خبرته بأحوالها . ثم أشارت على شـفيق بألا يستعجل أمر الزواج ، وأن يدع كل شىء الى أن يأتيا اليه ..

وظن شـــفيق أن مجىء والديه الى مصر يكون على أثر مجىء اللورد (دوفرين) موفدا من الحكومة الانجليزية لدراسة الحالة ، غير أن ذلك الظن لم يتحقق . وكان شفيق قد وعد الباشا بأن يرسل الى أبيه ليكتب الى الباشا ليتم تعارفهما ، فلما جاء كتاب والدته خشى أن تطول المدة قبل اطلاع والده على الأمر ، فلبث ينتظر مايكون وهو على أحر من الجمر

وكذلك كانت فدوى تعد الساعات والأيام فى انتظار مجىء والدى شفيق لأن وجودهما يسهل أمر الزواج ، ويضع حدا لكل المشاكل التى كانت تخشاها ، ولاسيما دسائس عزيز ، وكان هذا المشاكل التى كانت تخشاها ، ولا سيما دسائس عزيز ، وكان هذا العرابية ..

— ٨ —

حملة هيكس

فى يوم من أيام شهر فبراير سنة ١٨٨٣ ، توجه شـــفيق الى منزل الباشـــا وعلى وجهه امارات الانقبـــاض ، فعلمت فدوى بمجيئه ، فبعثت الى أبيها ليأتى به الى دار الحريم ، فلما حضرا اليها ورأت شفيقا على تلك الحال بادرته بالسؤال عن السبب ، فتبسم شفيق يريد اخفاء اضطرابه وقال : « ليس هناك مايوجب الاضطراب ياعزيزتى ، ورجال العسكرية كما تعلمين ينبغى ألا يضطربوا حتى من المسير الى الحرب .. »

فقالت فدوى : « لعلك ذاهب الى الحرب ؟ .. »

فقال شفيق : « نعم .. » فتلعثم لسانها والتفتت الى أبيها وقد اغرورقت عيناها بالدموع قائلة : « اسأله يا أبى عما يقصد بهذا ، فانى لا أستطيع كلاما »

فابتسم شفيق ليهوّن عليها الأمر ، وامتلأت عيناه بالدموع ، ثم قال : « ان أكبر فخر للجندى ياعزيزتى هو فخره بالانتصار فى الحرب ، فاسألى الله أن يكتب لنا هذا الفخر »

قالت فدوى : « والى أين ؟ .. »

قال شفيق : « الى الأقطار السودانية »

ولم تستطع فدوى أن تمنع نفسها عن البكاء ، فأخذ شفيق يخفف عنها ويهوّن عليها ، ثم قال له الباشا : « وما سبب هذه الحرب الآن ؟ .. »

قال شفيق : « لايخفى على سيادتك ان الأقطار السودانية مابرحت منذ افتتحها محمد على باشا تحت كنف الحكومة المصرية ينتفع من تجارتها بالعاج ، والريش ، والصمغ ، وغير ذلك .. فظهر فيها فى أواسط سنة ١٨٨١ ، رجل نوبى يقال له محمد أحمد وادعى انه هو المهدى المنتظر ، فالتفت حوله عصابة قوية ، سرفوا بالدراويش .. وجاهروا بعصيان الحكومة ، فحاولت قمع ثورتهم مرارا ، فلم تفلح .. واستفحل أمرهم حتى استولوا على مديرية كردفان واحتلوا الأبيض عاصمتها ، فشق ذلك على الحكومة المصرية واعتبرته الحكومة الانجليزية أمرا مؤذنا باضطراب الأمن

فى البلاد ، فاتخذت ذلك سببا لاطالة مدة بقاء جيشها فى مصر ، مع حق المشورة على الحكومة المصرية بما تتخذه من الاحتياطات ، وقد أشارت بارسال حملة مصرية لانقاذ الأبيض بقيادة قائد انجليزى اسمه هيكس باشا ، فأعدت الحملة .. وستسير من هنا بعد يومين قاصدة الخرطوم لتنضم هناك الى حاميتها ويسير الجميع لانقاذ الأبيض .. ولما كنت من الضباط الانجليز المنتظمين فى خدمة الجيش المصرى ، فقد دعيت لمرافقة تلك الحملة »

وما أتم شفيق كلامه ، حتى غلب فدوى البكاء جزعا على شفيق ، فقال لها : « لاتجزعى يافدوى فانى ذاهب لأداء واجبى وسأعود باذن الله حاملا النصر ، وهذا مما يسرك طبعا .. »

فقالت فدوى : « دع عنك هذا النصر المحفوف بالأخطار ..»

فرمقها شفيق بنظرات المستهام ، ثم وضع يده على قبضة سيفه وابتسم قائلا : « انى لم أتقلد هذا السيف يافدوى الا لكى أنال شرفا يجعلنى جديرا بك »

فقالت فدوى : « ان لم تكن تشفق على قلبى ، فهلا رحمت قلب والدتك ؟.. »

فاغرورقت عيناه بالدموع، وقال : « أستحلفك بالله يافدوى أن تدعى هذا الكلام ، وأنا ذاهب الى الحرب .. ولندع عواطف الحب جانبا فانى أمرت بالسفر الى الأبيض ، ولايسعنى مخالفة الأمر ، على انه لو وسعنى ذلك مافعلته محافظة على شرفى لئلا يقال انى خفت من الحرب .. والأعمار والأرزاق بيد الله »

فاعتمدت فدوى رأسها باحدى يديها ومسحت دموعها باليد الأخرى ، ولبث الجميع صامتين برهة يفكرون ، ثم قال الباشا : « اذا كان لابد من سفرك .. فصبرا جميلا .. والله المستعان »

فرفعت فدوى رأسها وقالت : « لا .. لا .. لا أظن ان قلبه يطاوعه على السفر .. »

فقال شفيق : « لو أردت مطاوعة قلبى يا عزيزتى ما كلفتك هذا العناء ، وانما الأمر أمر الشرف والشهامة اللذين أدين بهما والآن مالنا وللخوض فيما لافائدة لنا منه ، فقد جئتكم مودعا فليس لنا الا الصبر الجميل والتوكل على الله » ..

ثم التفت شفيق الى الباشا قائلا : « أما وصيتى لك ياسيدى فالعناية بوالدى اذا جاءا الى مصر أثناء غيابى .. وما أحسب أن فدوى تحتاج الى توصية ، وانما أطلب اليها أن تسمح لى بصورتها حتى أستأنس بها فى سفرى »

ثم مد شفيق يده الى جيبه وأخرج صورته وناولها اياها قائلا : « وهذه صورتى تبقى عندك تذكارا ريثما أعود ان شاء الله .. »

فأخذت فدوى الصورة بعد أن استأذنت أباها وهى تبكى ، ولم تستطع النهوض كى تأتيه بصورتها الا بعد عناء .. فسارت وركبتاها ترتجفان ، ثم عادت فناولته الصورة فتأملها واذا هى صورة فوتوغرافية كثيرة الشبه بها تمثلها جالسة على مقعد ملثمة باللثام التركى كأنها تمعن النظر فى شىء بيدها ، فتأمله فاذا هو الزى الذى أعطاها اياه تذكارا . وبعد أن تأمل الصورة مدة

وضعها فى جيبه وكان يريد تقبيلها فمنعه الحياء ، آما هى فكانت تنظر الى الصورة ولا تكف عن البكاء

ثم نهض شفيق وقبّل يد الباشا فقبله وعيناه تدمعان ، ثم مد يده الى فدوى وضغط على يدها قائلا : « أرجو أن لا تنسى شفيقا » فخنقتها العبرات ولم تستطع جوابا

***

وخرج شفيق تاركا اياها فى حال يرثى لها من القلق والاضطراب سار شفيق الى معسكره فرأى هيكس باشا وأركان حربه على أهبة المسير ، فأعد ما يحتاج اليه ، وكتب الى أبيه فى لندن يخبره بما هو فيه ، كما كتب الى والدته يلح عليها فى أن تستطلع رأى أبيه فى أمر فدوى ..

وفى اليوم التالى سافرت الحملة عن طريق السويس ، فالبحر الأحمر الى سواكن ، ومن هناك سارت الى الصحراء حتى مدينة بربر على النيـــل ، لتستقل السفن الى الخرطوم حيث تسير مع حاميتها الى الأبيض ..

أما ما كان من أمر والدى شـــفيق ، فانهما لمـــا جاءهما كتابه يخبرهما بسفره مع جملة هيكس باشا اضطرب بالهما ، وأوقف أبوه سعيه فى سرعة المجىء الى القاهرة ، وما زال كذلك حتى دخل صيف سنة ١٨٨٣ ، فوردت الأخبار بظهور مرض الكوليرا فى مصر . وكانت أخبار هيكس باشا تصل الى لندن فى حينها ، فعلما بوصوله الى الخرطوم ، ثم استعداده للمسير لفتح الأبيض

وفى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٣ ، جاءت برقية من هيكس باشا قال فيها :

« نحن الآن على مسافة عشرين ميلا من نورابى ، وانى آسف لأننا لم نحفظ خط الرجعة ، وقد علمت من علاء الدين باشا حكمدار السودان أن العرب سيقطعون عنا الذخيرة والزاد ، ويحدقون بنا من كل ناحية بعد أن يتوغّل جيشنا فى البلاد .. هذا الى أن برك الماء ستجف فلا يمكننا الاستقاء الا بحفر الآبار .. صحة العساكر جيدة والحر شديد »

ثم انقطعت أخبار هيكس باشا وحملته منذ ذلك الحين فخاف الناس خوفا عظيما .. وكان أكثرهم وجلا والدا شفيق فى لندن ، وفدوى فى مصر ، وأخذ الناس يقولون عن مصير تلك الحملة أقوالا متضاربة نقلا عن ألسنة العرب القادمين من تلك الأنحاء ، حتى ثبت أخيرا ان تلك الحملة ذهبت بمن فيها من الرجال عطشا وقتلا بين العربة والأبيض ولم ينجُ منها أحد .. فأصبح الحزن مستوليا على جميع الناس ، ولا سيما على قلب والدى شفيق ، وهما لا يزالان فى لندن . ولما انتهت سنة ١٨٨٣ ، ولم يرد خبر عن شفيق ، شقا عليه الجيوب ولبسا ثياب الحداد .. ولم يعد أبوه يخرج من البيت ، ولا يخاطب أحدا ، واستولى عليه الحزن حتى لم يعد أحد يستطيع مخاطبته حتى ولا زوجته

أما فدوى فانها بعد أن علمت بنكبة هيكس باشا وحملته أصبح النور فى عينيها ظلاما ، ولم تعد تستسيغ طعاما ، وأخذ

جسمها فى التحول وجمالها فى الذبول ، وحزن لذلك أبواها ، لكنهما كانا يعزّيانها من وقت لآخر بأن الأخبار الصحيحة لم ترد بعد . ولكنها لم تكن تصغى الى قول أحد ، وأخذت تقضى النهار واضعة صورة شفيق أمامها والعبرات تتساقط من عينيها ، حتى غدت أشبه بهيكل عظمى ، ووصف لها الأطباء السفر الى خارج مصر ترويحا للنفس ، ولكنها لم تشأ الخروج من حجرتها لئلا يمنعها ذلك من البكاء والنحيب .. ولكنهم ما زالوا بها حتى أجبروها على الخروج من القاهرة وذهبوا بها الى الريف ، فلم يجدها ذلك نفعا ..

وأما عزيز فكان قد شفى وازداد حقدا على شفيق ، ولما علم بما حل بحملة هيكس باشا سر وابتهج ، وكان يود أن يبلغ فدوى ذلك جهرا تشفيا منها ، لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعلمه ان من فى البيت يعرفون قصته .. فاكتفى بأن أقام عليها الارصاد والعيون ظنا منه انها حالما تستيقن من فقد شفيق ، يتغير قلبها وتسلوه مع الزمن ، فلما رأى انها لم تزل على حبه ، لجأ الى بعض أصدقائه ليفهموا أباها ان أحسن وسيلة لحفظ حياة ابنته هى أن تشغل عنه بغيره ..

فلما علم بقرب سفر فدوى من القاهرة جاء الى أبيها يسأله عن صحتها مظهرا الأسف الشديد على ما أصابها ، وكان أبوها قد يئس من عودة شفيق واقتنع بأن الخير فى حمل فدوى على نسيانه ، فتلقاه مرحبا به ..

وكان عزيز قبل ذلك قد أراد الشماتة بفدوى المسكينة فكتب رسالة قال فيها : « ذلك نتيجة كبريائك ، فأين شفيق الآن ؟ .. وهل رأيت فى حبك له خيرا مما كنت تلاقين ممن نبذتهم فأصبحوا ولسان حالهم يقول :

« من عاش بعد عدوه   يوما فقد نال المنى »

وبعث بتلك الرسالة مع أحد أتباعه ليوصلها الى فدوى ، فلم يستطع هذا غير رميها فى أرض حجرتها.. ولكنها وقعت فى يد بخيت ، فلما قرأها علم أنها من عزيز فاشتد غضبه وصمم على قتل ذلك الخائن ، لكنه لم يستطع الخروج من البيت لاشتغاله بمرض فدوى ..

وصل هيكس باشا بحملته الى بربر ، ومن هناك ركبوا البواخر النيلية فوصلوا الى الخرطوم فى أول شهر مارس من تلك السنة . وكان شفيق قد اكتسب ثقة هيكس باشا ومحبته لما اتصف به من الشهامة ولمعرفته اللغة العربية

وخرج حكمدار الخرطوم لملاقاتهم وأنزلهم بقصر أعده لهم . والخرطوم عاصمة السودان ومقر حكومته ، وهى تقع على الشاطىء الشرقى للنيل عند ملتقى النيلين : الأبيض ، والأزرق .. وهى من أكبر مدن السودان . فلما كان اليوم التالى خرج شفيق لمشاهدة المدينة ، فاذا هى آهلة بالسكان وفيها ديوان الحكمدارية والمجلس المحلى ومستشفى ومخازن للذخيرة ومكاتب للتلغراف والتليفون ومتاجر بها أنواع البضائع الافرنجية والسودانية .

وفيهـا كذلك حدائق وبساتين كثيرة حافلة بأشـجار الليمون والبرتقال والعنب والرمان والتين والقشـطة والخوخ والتفاح ، وكان مما أعجب به شفيق هناك مهارة صاغة المدينة فى عمـل الفناجين من الأسلاك

وبعد مضى ثلاثة أسابيع ، وصلت الى هيكس باشا سريّة من الجند المصرى قادمة من القـاهرة ، ثم جاءته سرية أخرى معظم ضباطها من العرابيين

ودخل شفيق يوما على هيكس باشا فى حجرته فوجده يكتب رسائل الى لندن ، فلما أتم هيكس باشا الكتابة ، بدأ الحديث ، فقال : « لا أرى هؤلاء الدراويش يستطيعون الثبات فى مقاومة جنودنا » ..

فقال شفيق : « حبذا ذلك يا سيادة الباشا ، ولكنى أرى أن جندنا لا يصلح لهذه المهمة .. »

فقال هيكس باشا : « ولماذا ؟ .. »

قال شفيق : « لأن معظم ضباطنا كانوا فى جيش عرابى وهم لم يأتوا الينا الا مكرمين .. واعتقادهم انهم سيقوا الى هنا ابعادا لهم عن الديار المصرية »

قال هيكس باشا : « ولكنهم يؤكـدون تفانيهم فى الولاء للخديو وخدمة مصلحة البلاد »

قال شفيق : « لا يغرنك دلك ، فانى سمعتهم يتحدثون بما ذكر لك الآن .. وهم يجاهرون بأفكارهم أمامى لأنهم لا يعلمون

انني أعرف اللغة العربية ، فكن منهم على حذر »

فقال هيكس باشا : « وما ظنك بالجنود السودانيين ؟ .. »

قال شفيق : « ان السودانيين اذا تدربوا على الجندية كانوا قوة يخشى بأسها لأنهم صبورون على الأهوال ، ثابتون فى مواقع القتال » ..

فوقع هذا الكلام لدى هيكس باشا موقع الاستحسان وازداد حبا لشفيق وتقديرا له .. فأخذ يصطحبه حيثما سار ويستشيره فى كثير من الأعمال . فكان ذلك مدعاة لسرور شفيق ، أملا فى أن ينال الرتب والألقاب مرضاة لحبيبته ،

وبقى هيكس باشا فى الخرطوم مكتفيا بارسال بعض الجند لمقاتلة شراذم العصاة فى أماكن مختلفة ، الى أن عقد النية على المسير لافتتاح كردفان واستخلاص الأبيض عاصمتها من قبضة المهدى وجنوده . فبعث الجواسيس يستطلعون أحوال العدو ، ولكن أخبارهم جاءت مختلفة متناقضة ، فاحتار ولم يعلم ما هو الصحيح . ثم أفضى الى شفيق بما هو فيه من الحيرة والتردد ، وقال له : « لابد لنا من رجل نثق به كل الثقة ليستطلع لنا أحوال العدو ، والا فان حياتنا فى خطر »

فأطرق شفيق برهة ثم قال : « ما رأيك فى أن أقوم أنا بهذه المهمة ؟ .. »

قال هيكس باشا : « انك أجدر الناس بذلك لمعرفتك باللغة العربية ، ولاطلاعك على عادات هذه البلاد . واذا فعلت نوهت

بك لدى نظارة الحربية لتنال مكافأة عظيمة ، ولكن أخشى أن تلقى بنفسك الى التهلكة بهذه المغامرة »

قال شفيق : « انى لم آت الى هذه الديار الا للقتال ..

ومن كانت منبته بأرض   فليس يموت فى أرض سواها

وانما أسألهم أن تكتم أمر ذهابى ..

وكان شفيق قد تعلم لغة عرب السودان ، وعرف كثيرا من عاداتهم فأزمع الذهاب متنكرا فى زى المغاربة ، فارتدى جبة فوق قباء طويل ، واعتم بعمامة بيضاء ، وانتعل حذاء كحذاء المغاربة ، وحمل السبحة بيده ، وعلق الغليون بمنطقته . وجاء بجملين خفيفين : أحدهما لركوبه ، وعليه رحل خفيف بكل من جانبيه قربة ماء ، ثم تقلد سيفا سودانيا ، واصطحب دليلا من الخرطوم فى مثل ملابسه وحاله ، وركب الاثنان وسارا جنوبا يريدان الأبيض بعد أن حمّل شفيق جملا آخر بأكياس فيها أنواع العطارة ، متظاهرا بأنه تاجر مغربى يطوف البلاد للاتجار بها . ولم ينس صورة فدوى فجعلها فى كيس وعلقه حول عنقه تحت ثيابه احتفاظا به لأنه كان تعزيته الوحيدة فى تلك الأنحاء ..

وخرج شفيق من الخرطوم فى أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٣ ، دون أن يعلم بذلك أحد .. وفى اليوم التالى لخروجه ، سارت حملة هيكس باشا تقصد الدويم بقيادة هيكس باشا ، وعلاء الدين باشا حكمدار السودان ، على أن يلتقوا بشفيق فى جهة مورابى عند أول خور أبى حبل ، وكان قد اتخذ طريقه بعيدا عن مجرى

النيل ، وكلما مرّ بحى من الخرب فى الصحراء بات عندهم وباعهم الطيوب وحدثهم فى مختلف الشئون

— ٩ —

المهدى والدراويش

وما زال شفيق سائرا ومعه دليله حتى صـارا على مقربة من الأبيض فقال له الدليل : « لا يمكننا المسير بهذا الزى بعد الآن ، اذ لابد لنا من التنكر فى زى الدراويش » . وأشار عليه باخفاء غليونه لأن التدخين به محظور على أتباع المهدى ، فعمل شفيق بمشورته . ثم انطلقا حتى لقيا جماعة قادمين من الأبيض ، فعلما منهم ان المهدى خارج بموكبه ليخطب فى رجاله الذاهبين لملاقاة العدو ، فأحب شفيق مشـاهدة ذلك الموكب فوقف حتى جاء الموكب فانضم اليه ، ولما كان وقت العصر سمع نقر الدفوف من بعيد ، وعلم ان هذا النقر هو موسيقى الجيش المهدوى السائر الى الدويم ..

وبعـد قليل رأى أفواجا من الدراويش تسـير مهرولة .. ويتقدمها أربعة يحمل كل اثنين منهم آنية كبيرة من النحاس شد عليها رق من الجلد ، ومعهما ثالث ينقر عليها نقرات تصم الآذان ولكن الدراويش يطربون لها ، ووراء هذه الموسيقى خيالة على أفراس بسرج عربية ، وعليهم ملابس الدراويش المؤلفة من جبة

من نسيج السودان يقال لها « مرقعة » لأنها مرقّعة بقطع مختلفة الألوان ، وعلى رؤوسهم عمائم بيضاء ملفوفة حول القش الأبيض أو القطن ، تسترسل من كل منها ذؤابة طويلة تتدلى على الصدر، وحول وسطهم منــاطق من نسيج الدمور أو القش يقال لها فى لغتهم : كربة . وهم حفاة ، وقليل منهم يحتذون نعالا تشدها على القدمين سيور من الجلد ، وحول أعنــاقهم سبحات مدلاة على صدورهم . أما أسلحة غالبيتهم فهى الرماح والحراب وسيوف مستطيلة ذات حدين اغمادها من الجلد الاصــفر ، يعلقونهــا بأكتافهم ، ويحملون درقا من جلد بقر النهر ، وكبراؤهم يتقلدون خناجر معلقة بمناطقهم . وكان شفيق يسمع عن ملابس الدراويش فلم يعجب بها كثيرا ، ثم رأى القوم قد حطوا رحالهم ونصبوا أعلامهم الحمراء ، والبيضاء ، والزرقاء ، مكتوبا على بعضــها باللغة العربية : (لا اله الا الله محمد رسول الله ، والامام المهدى خليفة رسول الله) . ثم تعالى النقر مرة أخرى فاصطف الفرسان فى ناحية ، والمشاة فى ناحية أخرى ، وكان هذا الجيش مؤلفا من: الدراويش وهم سمر الوجوه ، ومن الجنود حملة البنادق وفيهم السود والسمر ، وهم حامية الأبيض الأصليون ، ثم من العبيد خدم الدراويش ، وهم يلبسون شــملات من نسيج أبيض من صنع السودان يسترون بها عوراتهم وجانبا من صدورهم

وعرف شفيق أمراء ذلك الجيش بخيولهم المطهمة وما يحيط

بهم من الخدم ، وان كانت ملابسهم لا تختلف كثيرا عن ملابس بقية الدراويش ..

ثم صاح القوم جميعا بصوت واحد قائلين : « فى سـبيل الله قتل الكفار » . فخفق قلب شفيق وجلا ، وندم على تعريض حياته للخطر ، لكنه تجلد واندس بين الصفوف منتظرا ماذا يكون .. فرأى كل أمير قد وقف بجانب قبيلته ، ثم وقف أحـد هؤلاء الأمراء على مرتفع هناك وفى يده كتاب ، فضج الجمع ، وصاح بعضهم قائلين : « اسمعوا ماذا يقول الخليفة محمد الشريف ، انه والله لأشبه بالامام على عليه السلام » .. فعلم شفيق انه أحد خلفاء الخليفة الأربعة ..

كان محمد الشريف مرتديا ملابس الدراويش ، فلمـا سكنت الضجة نادى بأعلى صوته قائلا : « الفاتحة أيها المسلمون » . فقرأوا جميعا الفاتحة بصوت مرتفع ، ثم أنصتوا اليه ففتح ورقة كبيرة وقبّلها ووضعها على رأسه ثم قال : « اعلموا أيها الاحباب ان هـذا منشور من سيدنا الامام المهدى صـلوات الله عليه ، وسأتلوه عليكم وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الولى الكريم ،والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم .. وبعد ، فهذا اعلام من عبد الله محمد المهدى بن السيد عبد الله ، الى كل المشايخ والأمراء والنواب والمقاديم والأتباع .. يا عباد الله ، اسمعوا ما أقوله لكم وكونوا على بصيرة ، واحمدوا ربكم واشكروه على

النعمة التى خصكم بها ، وهى ظهورنا بينكم مما هو شرف لكم يرفعكم على سائر الأمم،والمطلوب منكم يا أحبابنا هوالهجرة والجهاد فى سبيل الله ، مع الزهد فى الدنيا ، فكل ما فيها مصيره البوار ، فجاهدوا فى سبيل الله ، فلهزة سيف مسلم فى سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة ، وعلى النساء الجهاد اذا كن قاعدات وقد انقطع منهن ارب الرجال . أما الشابات فليجاهدن نفوسهن وليسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، ولا يخرجن الا لحاجة شرعيـة ، ولا يتكلمن جهرا ، ولا يسمعن الرجال أصواتهن الا من وراء حجاب ، وليقمن الصلاة ويطعن أزواجهن ويسترن ثيابهن . فمن قعدت كاشفة رأسها ولو طرفه عين لتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطا ، ومن تكلمت بصوت عال فتضرب سبعة وعشرين سوطا ، ومن تكلمت بفاحشة تضرب ثمانين سوطا. ومن قال لأخيه يا كلب ، أو ياخنزير ، أو يا يهودى ، أو يافاجر ، أو يا سارق ، أو يا زانى ، أو يا كافر ، أو يانصرانى الخ ..فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة أيام . ومن تكلم مع أجنبية ليس بعاقد عليها فى غير أمر شرعى ، أو حلف يمين طلاق ، أو حرام يضرب سبعة وعشرين سوطا . ومن شرب الدخان ، أو خزنه فى فمه ، أو أنفه يؤدب بثمانين سوطا ويحرق ما يوجد عنده منه ، ومن باعه أو اشتراه ولم يستعمله يؤدب بسبعة وعشرين سوطا . ومن شرب الخمر ولو مصه يؤدب بثمانين سوطا ويحبس سبعة أيام . وكذلك من ساعد شارب الخمر بشربة ماء أوإناء،ومجاهدة

النفس فى طاعة الله حقيقة أشد من الجهاد بالرماح ، لأن النفس أشد فتنة من الكافر ، فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه ، وهى عدوة فى صورة حبيب .. فقتلها صعب ، ومسلكها تعب . ومن ترك الصلاة عمدا فهو كافر بالله ورسوله ويجب قتله، وعلى الجار أن ينهى جاره عن اتيان المعصية ، فان لم يستطع فليخبر أمير البلد ، فان لم يخبره فيضرب ثمانين سوطا ويحبس سبعة أيام ..

« واعلموا أيها الأحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا فى الأحكام والقضايا ، لأجل أن تشفقوا على الناس وتهدوهم فى الدنيا . ويزوج الفتى بعشرة ريالات مجيدية أو أنقص ، والعازبة تزوج بخمسة ريالات أوأنقص . ومن خالف هذا ، فعليه الأدب بالضرب ، والحبس بالسجن حتى يتوب أو يموت فى سجنه . ويكون مقطوعا من أهل زمرتنا ، ونحن بريئون منه وهو برىء منا ... والسلام »

وما أتم محمد الشريف قراءة منشور المهدى حتى ضجت الجماهير بالدعاء ، فقال شفيق فى نفسه : « والله انها لتعاليم حسنة لا يأتى المتمدنون بأحسن منها » . ولكنه شعربخطرموقفه فصارت ركبتاه ترتجفان ، وأخذ يدبر وسيلة يتخلص بها اذا انكشف أمره .. ثم جعل يفكر فى قيام المتمهدى ، وما تحقق له من الفوز ، وفيما هو فى ذلك رأى الناس فى جلبة وضجيج .. ثم علم انهم يستعدون لملاقاة المتمهدى ، وهم يتطلعون الى جهة

الأبيض ، ونظر فاذا بالموكب قادم والمتمهــدى يرتدى ملابس الدراويش على جــواد أصيل يحدق به الخليفتان : التعايشى ، وولد الحلو ، ووراءهم جماعة من الفرسان فى ملابس الدراويش.. غير أن مرقعاتهم أقصر لا تتجاوز ركبهم ، ويكاد يظهر من تحتها أسفل سراويلهم القطنية . وعلم بعد ذلك انهم جماعة الملازمين أى خدم المتمهدى ، وكانوا سائرين وراء الخلفاء مطرقين احتراما ووقارا ، وبينهم حامل العلم الخاص بالمتمهدى

فلما وصل الموكب ترجل المتمهدى ، وترجل كل من معه ، ومشوا الى مرتفع هناك ، ثم تنحوا جميعا ما عدا المتمهدى فجىء اليه بفرو من جلد فرش أمامه فوقف للصلاة ، ووقف الجميع صفوفا خلفه وبينهم شفيق ، وقد زاد اضطرابه لما شــاهده من سعة نفوذ المتمهدى ، وخيل اليه انه لا يلبث أن يكشف أمره فيقتل فى الحال ..

وبعد انقضاء الصلاة وقف المتمهدى فخطب فى الأمراء موصيا اياهم بالثبات ، وحول عنقه سبحة من خشب البقس مدلاة على صدره ، ولم يكن فى ملابسه ما يميزه عن سائر الدراويش الا أنها أكثر اتقانا وأغلى قيمة .. فأخذ شفيق يتأمل فى هيئة هــذا الرجل الذى أقلق دول أوربا وألقى فى مجالسها الشقاق ، فاذا هو طويل القامة ، خفيف العضل ، واسع العينين ، حسن الملامح كسائر الدنقلاويين أبناء وطنه .. وآنس فى وجهه مهابة ولطفا ، ولفت انتباهه الخال الاسود على خد المتمهدى ، فتذكر ما كتبه .

الى السنوسى من ان ذلك الخال هو علامة المهـدوية . وكان الحاضرون جميعا يقفون مطرقين صامتين وكلهم آذان صاغية لسماع الخطبة وقد جاء فيها :

« أيها الاحباب من المقدمين ، والمشايخ ، والنواب ،والأنصار، اعلموا ان الله لو شـاء سبحانه وتعالى أن يبيـد أهل الكفر وبستأصل شأفتهم من غير قتال لفعل ، كما ورد فى الكتاب العزيز قوله تعالى : (ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض) . وقـوله (ولنبلونكم حتى نعلم المجـاهدين منكم والصابرين) . فصار لا محيد للخلق عن امتثال هذه الحكمة . فها انكم مرسلون لقتـال الكفرة القادمين الينـا من جهات الخرطوم ، فعليكم أن تكونوا أهل حزم ، وتشـددوا العزائم والنيات ، وتسيروا بالهمم العاليات فى نصرة دين الله ، وأن تبذلوا نفوسـكم وأموالكم فى سبيل الله كما عاهدتم الله ورسـوله وبايعتمونا على ذلك ، ولا يحصل منكم أدنى فتور ولا توان عما أنتم بصدده ، وضيقوا عليهم أشد التضييق (فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنـده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) . أنتم على كلا الحالين من الفائزين .. فخوضوا الغمرات شوقا الى الله ، والى جنـة قصورها عالية ، وأنوارها زاهية ، وأنهارها جارية ، وقطوفها دانية »

ولما أتم المتمهدى خطابه ضج القوم بالتهليل والتكبير ، ثم ركب مع حاشيته وعادوا الى الأبيض ، فسارع الدراويش الى

موطئ قدميه يمسحون وجوههم وأعناقهم بالتراب الذى وطئه ويعفرون رءوسهم به .. وكان قد عهد فى قيادة تلك الحملة التى الأمير عبد الحليم ، وأبى جرجة .. ويبلغ عدد جنودها ثلاثة آلاف . ثم سارت الحملة الى الدويم ، وشفيق معها وقلبه يخفق بشدة ، مخافة أن ينكشف أمره ..

— ١٠ —

أسير المتمهدى

أخذ شفيق بعد أن دخل الدويم يطوف بها مستطلعا أحوالها ، فوجد منازلها مبنية بالآجر طبقة واحدة ، وليست على طراز واحد ، وشاهد بينها مساكن مصنوعة من القش يقال لها (تكول) يسكنها من لا قدرة لهم على البناء بالطين . ثم وصل الى ديوان الحكومة فاذا هو مبنى بالآجر ، وفى وسطه فضاء يقيمون به الصلاة ، ولم يشاهد فى الأسواق من أرباب الصناعة غير الحدادين والصاغة ، لأن أكثر الأهلين يعيشون من التجارة فى ريش النعام والصمغ والتمر الهندى وسن الفيل ، وهم جميعا يشربون من آبار عميقة يبلغ عمق بعضها سبع عشرة قامة

وكان شفيق قد أرسل دليله ليبحث عن منزل يبيتان فيه ، فعاد الدليل مصحوبا بزمرة من الدراويش ، وما وقعت أعينهم على شفيق حتى قبضوا عليه وأوثقوه ، وساروا به الى ديوان

الحكمدارية حيث مجلس المتمهدي ، فلما بلغوا الديوان تصدى له بعض الأمراء وأخذوه الى الخليفة ، فلما رآه توسم فى وجهه النبـاهة وعجب من جرأته .. فأحب أن يراه المتمهدى نفسه ، فأوقفه خارج قاعة المتمهدى ، حتى استأذن فى ادخاله عليه ، ثم أدخل القاعة فاذا بالمتمهدى قد جلس فيها على « عنقريب » وبين يديه جلس الأمراء متربعين خافضى الرؤوس فى احترام ووقار ، والسكوت مطبق على تلك القاعة

وكان شفيق قد أيقن بالهلاك وعلم انه أسر بدسيسة من دليله، لكنه تجلد وأخذ يفكر فى وسيلة للنجاة ، فلما وصل الى مجلس المتمهدى وأوقفوه بين يديه ، شعر بعظم هيبـة ذلك الرجـل وسطوته ، ولكنه تجـرأ ووقف .. وهـو لا يزال فى ملابس الدراويش ينتظر ، فخاطبه المتمهدى قائلا : « ما الذى جاء بك الى هذه الديار ؟ .. »

فقال شفيق : « جئت بقضاء من الله سبحانه وتعالى .. »

قال المتمهدى : « ألم تعلم اننا لا نؤخذ بالدسائس ، وقد نصر الله دعوتنا ومنحنا الغلبة على القوم الكافرين ؟ .. »

فقال شفيق : « ان القدرة لله يهبها لمن يشاء من عباده .. »

فأعجب المتمهـدى بجـوابه ، وقال : « ولكن الله يقول : (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) . فلماذا فعلت هذا بنفسك ؟»

قال شفيق : « صدق الله العظيم ، وهو سبحانه يقول أيضا :

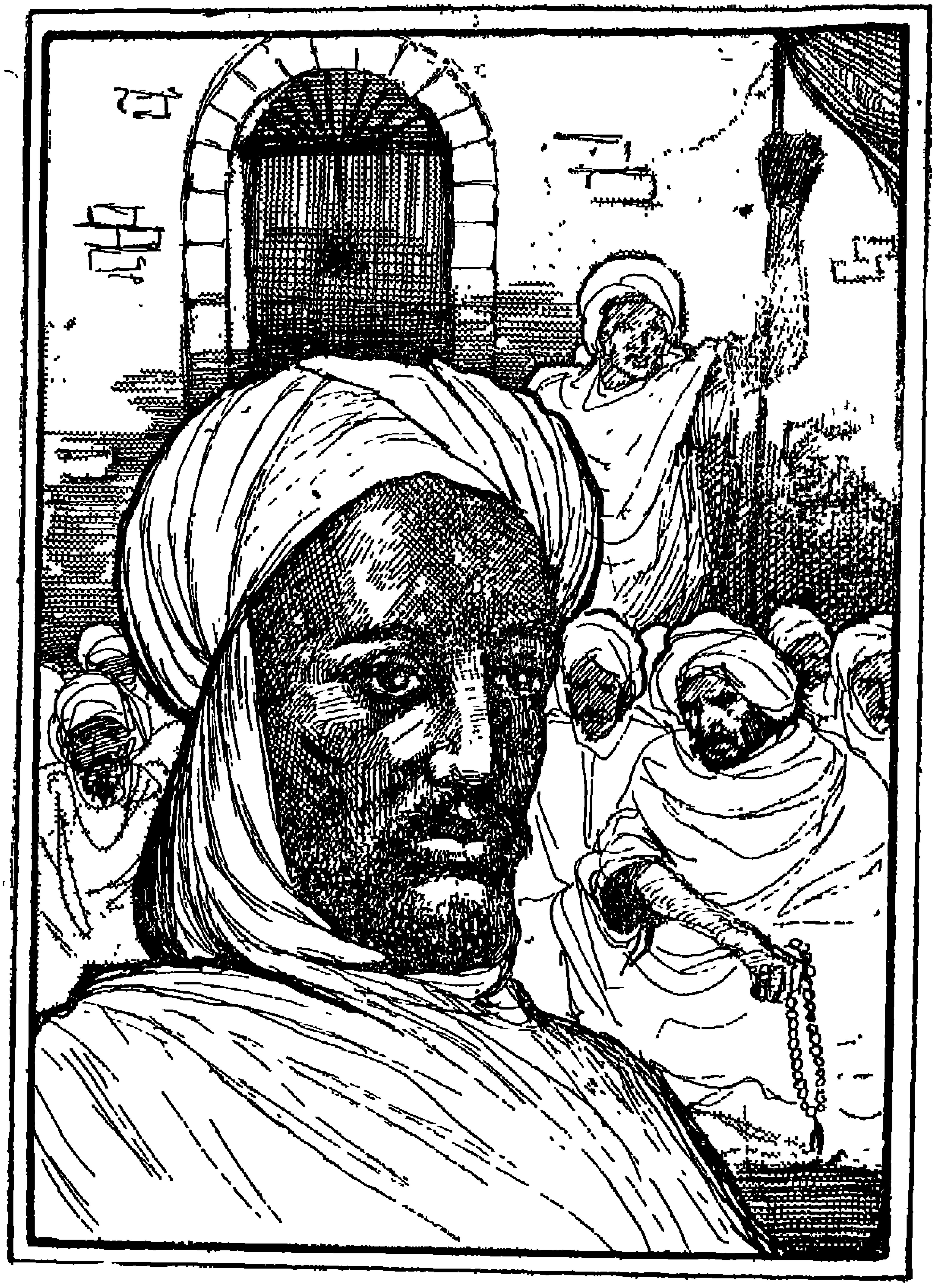

« وكان المتمهدى قد جلس وبين يديه الامراء جالسين متربعين خافضى الرؤوس فى احترام ووقار ، والسكون مطبق على تلك القاعة » ..

(ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .. »

فقال المتمهدى : « هل تعلم انك الآن فى قبضة يدنا ولو أردنا قتلك لما كلفنا ذلك غير اشارة ؟ » ..

قال شفيق : « نعم أعلم ذلك ، وأعلم أيضا أن الموت والحياة بيد الله .. »

فقال المتمهدى : « قد كنت عازما على قتلك ، ولكن أعجبنى ايمانك ، فهل أنت مؤمن بما دعانا الله تعالى اليه من المهدوية ؟.. أو أنت على ما عليه أصحابك من الكفر المبين ؟ .. »

قال شفيق : « اذا أذن لى مولاى ، قلت : ان الكفر ليس من أوصاف الموحدين ، وما فى أصحابى الا كل موحد يؤمن بالله وبرسوله وبيوم الدين »

قال المتمهدى : « انك تستحق القتل بمقتضى الشرع لأنك جاسوس جاء يستطلع أحوالنا ، وقد جاء بك الينا من نال أجره فى الدنيا وفى الآخرة ، على أننا سنبقى عليك عسى أن تفيـدنا بشىء .. »

قال شـفيق : « لله الأمر يفعل ما يشاء وهـو على كل شىء قدير ، ولو قدر الله قتلى ما أمسكت عنه .. فان كل شىء بقضاء وقدر ، وأنا لم أعمل الا ما استوجب من أجله الثناء لأنى قمت بأمر مولاى ، كما قام رفيقى هذا (وأشار الى دليله) بأمر مولاه. وقد قال الله فى كتابه العـزيز : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول

وأولى الأمر منكم) .. »

فقال المتمهدى : « خذوه الى السجن موثقا حتى نبت فى أمره»

فقال شفيق : « حيا الله مولانا وبياه ، ان الوثاق لا يزيد شيئا فى الحجر على ، لأنكم لو أطلقتم سبيلى ما استطعت العود وحدى ، فاتركونى محلول الوثاق ، لعلى أستطيع خدمة لكم..»

ازداد شفيق كرامة فى عينى المتمهدى ، فأمر بعض من فى حضرته أن يذهب به الى حجرة يبقى فيها تحت الحجر ، فخرج شفيق ينفض غبار الموت عن وجهه وجعل يندب سوء حظه ، ويلعن ذلك الخائن الذى خانه وألقاه فى هذا الضيق

وذهبوا به الى حجرة ينام فيها ، بعد أن جاءوه بالطعام فتناول بعضه ، ثم تركوه فى الحجرة وقد أظلمت الدنيا فجلس على الأرض والأفكار تتقاذفه كخشبة تتقاذفها الأمواج ، وأخذ يتأمل فيما مرّ به من الأخطار وما يزال يخشاه ، وخطرت بباله فدوى فخفق قلبه وجلا عليها لأنها تحزن لطول غيبته ، واشتد به الشوق فبكى وأراد أن يخرج الصورة لمشاهدتها ، ولكنه أدرك انه فى ظلام ، اذا أخرج يده فيه لم يكد يراها ، فاكتفى بلمس الصورة وقبّلها ، وظل ليلته يبكى ويخاطب نفسه نادبا سوء حظه ، طالبا الى الله تعالى أن يخفف حزن والديه وخطيبته

وفيما هو فى ذلك ، وقد مضى معظم الليل ، سمع وقع أقدام عند باب الحجرة وصوتا منخفضا يقول : « لا تخف يا أخى ولا

تجزع » . فاقشعر بدن شفيق وأسرع الى اخفاء الصورة وقال :
« من أنت ؟ »

قال : « انى صديق لك فلا تخف »

فتوقع شفيق من ذلك خيرا ، فسكت برهة .. واذا بذلك الرجل قد دخل بعد أن أشعل قطعة خشب ووضعها فى منتصف الحجرة ليستضىء بها ، فتأمله فاذا هو أسمر البشرة تدل ملامحه على انه مصرى الأصل ، ولكنه يرتدى ملابس الدراويش ، فأوجس شفيق خيفة وظهر ذلك على وجهه .. فابتدره الرجل هامسا فى أذنه قائلا : « لا تخف يا أخى ، انى لست درويشا الا فى الظاهر ، ولم أرتد هذه الملابس الا مرغما ، فطب نفسا .. عسى أن ينقذك الله على يدى »

قال شفيق : « ومن أنت ؟ .. »

قال : « كنت قبل سقوط الأبيض من مستخدمى الحكومة فيها ، فلما سقطت سقطت فى قبضة المهدويين .. ولم أر بدا من التظاهر بدعوتهم حفظا لحياتى ، فأحبونى حتى دخلت فى خدمتهم ، فاتخذنى الأمير عبد الحليم كاتبا له .. واسمى حسن »

قال هذا وسارع الى الخشبة المشتعلة ، فأطفأها وقال : « ان الظلام خير لنا لئلا يأتى أحد فيعود ذلك وبالا علينا .. »

فقال شفيق : « قد سمعت اليوم ان الحملة سائرة بقيادة الأمير عبد الحليم .. فهل أنت ذاهب برفقته ؟ .. »

قال حسن : « نعم .. سنسافر بعد غد ان شاء الله ، ولكنى

لا أخفى عنك انى ذاهب رغما منى ، اذ لا يسعنى غير ذلك. والآن يجب أن أتخذ وسيلة أنقذك بها من الخطر، لأن المتمهدى لابد أن يأمر بقتلك ، فهو قلَّما يثق بغير الدراويش . وسأبذل الجهد فى انقاذك ، ولا أريد أن أسألك عن أحوال حملة هيكس باشا لأننا قد عرفنا عنها كل شيء ، اذ ان جواسيسنا منبثون فى سائر الأنحاء .. وأرى أن نجعلك من الدراويش فتسير معهم حتى تتمكن من الفرار والعودة الى بلادنا ، فاننا ان لم نفعل ذلك قتلنا لا محالة » ..

فلما سمع شفيق ذلك تحقق من اخلاص الرجل ، فقال له :

« انى فاعل ما تأمرنى به ولن أنسى فضلك ، فماذا أفعل ؟ .. »

قال حسن : « ان المهدى أمر الأمير عبد الحليم بأن يقتلك قبل مغادرته هذه المدينة .. وسيدعوك غدا لأجل ذلك ، على انى سأفعل ما يجب علىَّ كى أنقذك وأضمك الى حملتنا فنسير معا حتى يمن الله علينا بالفرج »

فتنهد شفيق وقال : « ان الموت لا يخيفنى ، ولكنى أضن بحياتى لأجل من هم أحب الىَّ منها ، وهل فى هذه المدينة أحد غيرك من المصريين ؟ .. »

قال حسن : « فيها كثيرون ، جلهم من رجال الحامية الذين أصيبوا بمثل ما أصبت فانضموا الى المهدويين ، وفيها أيضا رجل أجنبى يقال له : (الأب بونومى) كان راهب دير فى جبل دلن من جبال نوبيا جنوبى كردفان ، فلما حاصر أمراء المتمهدى ذلك الدير

واستولوا عليه جيء به الى هنا ، وهو لا يزال تحت الحَجْر ، وهناك غيره كثيرون »

فتأوه شفيق وكاد ييأس ، لكنه تجلد وقال فى نفسه : « ان الرجل من احتمل المشاق والأخطار ، ولله الأمر يفعل ما يشاء .. »

وبعد أن أمضيا وقتا فى الحديث ، نهض حسن للعودة الى المعسكر ، وانصرف بعد أن أعطى شفيقا ملابس ليرتديها تنكرا فى زى الدراويش وهى المرقعة والعمامة والمسبحة

وفى صباح اليوم التالى قام الدراويش للصلاة ، ثم جاء أحدهم يدعو شفيقا الى مقابلة الأمير عبد الحليم

وكان حسن قد بكَّر فى الذهاب الى الأمير كعادته ، وتظاهر بالاضطراب والقلق ، فلما سأله الأمير عما به ، قال : « رأيت حلما هذه الليلة أقلقنى ولا أعلم تفسيره .. »

قال الأمير : « ماهو ؟.. »

قال حسن : « رأيت أيها الأمير كأنى جالس فى مجلسك ، فجاء الى المجلس شيخ بملابس الدراويش كبير السن عظيم الهيبه عريضُ اللحية ، ولما رأيناه سقطنا على وجوهنا ، فقال لك : « لاتخف ياعبد الحليم انى الشيخ البصير ، ولم آت لأدعوكم الى المهدوية ، ولكنى جئت لأدعو رجلا حل بينكم لعله ينفعكم » ولما قال ذلك رفعت وجهى لعلّى أراه فشعرت كأن الشمس تلمع أمام عينى فلم أر شيئا ، وللحال استيقظت مذعورا .. »

فقال الأمير عبد الحليم : « كرم الله وجه الشيخ البصير ، انه

جد مولانا الامام المهـــدى ، وكثيرا مايتراءى له ويخاطبه ، فلا تخف انه حلم ليس فيه شرٌ » ..

ثم نادى الأمير عبد الحليم تابعا له لاحضار شفيق ، فلما حضر بين يديه ، عجب لرؤيته فى ملابس الدراويش ، وسأله : «ماهذا ؟ وما الذى ألبسك هـــذه الثياب ، ألم تعلم أنك دنستها لأنها ملابس كرام الرجال الأتقياء ؟.. »

فأشار شفيق بيده الى السماء وقال : « انى لم ألبس هـــذه الثياب الا بأمر ممن لابد من طاعته .. »

فقال الأمير : « ومن أمرك بذلك ؟.. »

قال شفيق : « قد رأيت ياسيدى حلما سرنى كثيرا ، وذلك انى رأيت رجلا عظيم الهيبة كبير السن عريض اللحية ، جاءنى وفى يده هذه الملابس وقال لى : انك لم تأت الى هـــذه الديار الا لتكسب آخرتك وتصلح دنياك ، فقم الى دعوة الامام المهدى خليفة رسول الله . ثم علمنى آية وأوصانى أن أتلوها تكرارا وهى : (لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، والامام المهدى خليفة رسول الله) . فحفظتها ، ولكنى سألت الشيخ عن اسمه فلم يشأ أن ينبئنى به واكتفى بأن قال : « انى مصدر الهدى والصـــلاح لكل المؤمنين » . ثم رأيت كأن الشمس خارجة من باب الحجرة ، ولما استيقظت رأيت هذه الملابس بجانبى ، فآمنت بصحة الرؤيا ، وارتديتها ولبثت أكرر الشهادة السابق ذكرها حتى جاءنى رسول الأمير فجئت معه .. »

فعجب الأمير عبد الحليم لذلك الاتفاق ، واستنتج من اتفاق الحلمين انهما صحيحان ، وبعث الى المهدى بذلك ، فقال : « انه ممن اختارهم الله لدعوتنا فلا تقتلوه ، بل ولوه منصبا يليق بعلمه ومعارفه .. »

فلما جاء الأمر الى عبد الحليم بطلب ذلك ، سأل كاتبه حسنا أن يمتحن الرجل ويرى ماذا يصلح له ، فامتحنه وأبلغ الأمير انه يعرف الكتابة والتكلم باللغة الأجنبية .. فأمر بأن يضم الى كاتبه ويرافقه فى الحملة ..

وكان حسن هو الذى لقن شفيقا أن يقول ماقاله للأمير عبد الحليم ..

— ١١ —

مصرع هيكس

انضم شفيق الى معسكر الأمير عبد الحليم وهو بملابس الدراويش ، وكان ذلك غاية مايريد لأنه استأنس بحسن وتوسم فيه الخير ..

وفى اليوم التالى سارت الحملة بجمالها وخيولها ، وقد عجب شفيق لقلة انتظام ذلك الجيش ، وكان مع كل درويش فروة خروف يستخدمها للجلوس والصلاة والنوم ، ومازالت الحملة

سائرة حتى وصلت (أبو جوى) . وهناك التقوا بجيش هيكس باشا ، وكان قد عسكر هناك ليجمع اليه بعض القبائل البدوية تعزيزا له ، ولا علم لهيكس باشا ورجاله بشىء عن جيش الأمير عبد الحليم ..

وحاول شفيق أن يهرب الى معسكر هيكس باشا ، ولكنه لم يستطع ذلك لبعد المسافة .. ثم أرسل الأمير عبد الحليم حسنا الى المهدى مستأذنا فى الحرب ، فأمره بأن لا يفعل ، بل يتبع الحملة فى خور أبى جبل حتى بحيرة الرهد ، وهناك تصل اليه الأوامر الأخيرة ..

وكان هيكس باشا بعد أن فارقه شفيق قد جاء الدويم وتفاوض مع زميله علاء الدين باشا فى أى الطريقين يتخذان : طريق خور أبى جبل ؟.. أم طريق بارا ؟.. فكان من رأى علاء الدين اتخاذ طريق الخور لأنها كثيرة المياه ، وان كانت بعيدة الشقة ، فسارت الحملة حتى جاءت نورابى أول الخور فى ٨ أكتوبر ، ثم سارت الحملة من نورابى الى جلبن هار فى الخور أيضا ، ولكنهم علموا هناك أن جنود المتمهدى تتعقبهم فندموا على قطع خط الرجعة بينهم وبين الدويم .. ولكنهم ظلوا سائرين وأملهم فى الحياة يقل يوما بعد يوم ، لأنهم رأوا أنفسهم محاطين بالعدو من كل ناحية .. وما زالوا بين حل وترحال حتى ألقوا عصا التسيار فى بحيرة الرهد ، فحطوا رحالهم وتحصنوا هناك ، وأخذوا يتفاوضون فى أمر الجهة التى يسيرون منها الى الأبيض ، لأن

الخور هناك ينقسم الى فرعين : أحدهما يتصل بمحلة البركة ، والآخر يتصل بمحلة كشجيل . وهذه أقرب الى الأبيض ، فبقيت الحملة فى رهد ستة أيام ، وشاهدوا فى اليوم الخامس بعض العربان على الضفة الأخرى من البحيرة ، فظنّ علاء الدين أنهم الرجال الذين جمعهم الشيخان اللذان أرسلهما لجمع النجدة ، فشد منديلا الى عصا وجعل يلوح لهم بالمجيء ، فلم يبالوا وملأوا قربهم ماء وعادوا من حيث أتوا ، فبعث هيكس باشا فى أثرهم بعض الفرسان ، فعادوا وأخبروا بأنهم رأوا عددا كبيرا من العدو معسكرين بين الشجر . وبعد ستة أيام سارت الحملة قاصدة البركة فوصلت الى محل على ثمانية أميال من الوبا . ومن هناك بعث هيكس باشا جاسوسا الى الأبيض يستطلع قوة المتمهدى . وفى اليوم التالى ساروا الى الوبا ، وفيها كثير من الماء فبقوا هناك حتى يرجع الجاسوس ، وأرسلوا جاسوسا آخر ليستطلع أحوال البركة ، ولم تمض أربعة أيام حتى عاد الجاسوس من الأبيض ، ومعه كتاب من المهدى لقواد الحملة يدعوهم فيه الى التسليم ، وبعد قليل جاءهم الجاسوس الآخر .. وذكر أن العدو جاء قاصدا البركة لملاقاة جيش هيكس باشا ، فوقع هيكس فى حيرة .. وتشاور مع رجاله فى أى السبل يسلكونها الى الأبيض ، بحيث لايلتقون بالدراويش فى البركة ، فأجمع الرأى على أن تكون طريقهم عبر كشجيل ، على أن يأخذوا معهم ما يكفيهم من الماء يومين ..

سارت حملة هيكس باشا فى اليوم الثالث من نوفمبر قاصدة كشجيل ، وبعد مسيرة عشرة أميال فى غابات موحشة وقفوا ، وقد وقع الرعب فى قلوبهم خوفا من أن يكونوا قد ضلوا الطريق، وكان الخبراء الذين معهم من الأسرى مكبلين بالقيود خوفا من فرارهم ، وفى اليوم التالى ساروا قاصدين غابة شيكان بين البركة وكشجيل ..

وفى تلك الغابة كانت جنود أبوعنجر ، أما المتمهدى فكان قد علم باعتزام هيكس باشا المسير الى كشجيل ، فسار لملاقاته فى طريقه الى شيكان ومعه الخلفاء الثلاثة ، وابن النجومى وغيرهم . ونفيق لايزال فى جيش عبد الحليم الذى يتبع خطوات الحملة ، وقد أيقن بأن فوزها لم يعد ممكنا لما علمه من استعداد المهديين ، ولكنه كان ينتظر فرصة يستطيع فيها افادة هيكس باشا بشىء وقلبه يكاد ينفطر كلما تصور الخطر الذى أحدق بتلك الحملة المنكودة الحظ وفيها نحو أحد عشر ألفا من الرجال ، كأنما ساقتهم الأقدار ليكونوا طعاما للوحوش فى تلك البيداء

فلما هيأ المتمهدى جنده على هذه الطريقة ، جمع أمراءه ليبلغهم الأوامر الأخيرة ، وصلى بهم أولا ، ثم قرأوا الفاتحة ، وبعد ذلك رفع يديه الى السماء وأخذ يقرئهم الدعاء التالى :

« اللهم لا عيش الا فى دارك ، ولا نعيم الا فى لقائك ، ولا خير فى غيرك ، ولا نصر الا من عندك ، بك الحياة وبك الممات ، وبك التقلبات ، واليك المصير » . وكان الجميع يرددون ذلك الدعاء فى

خشوع .. ثم استل المتمهدي سيفه ، وقال : « الله أكبر .. لاتخافوا ، ان النصر لنا » . ثم أصدر أمره بالهجوم على الحملة ، وكانت قد وصلت الى غابة شيكان بين البركة وكشجيل ، فهجم عليها المختبئون فى تلك الغابة ، ثم هجم المتمهدى برجاله من الجهة الأخرى ، وجاء عبد الحليم من الخلف ، والتحم الفريقان يقتتلان بالسلاح الأبيض . وأراد شفيق أن يسير الى هيكس باشا لعله يستطيع اغاثته ، فلم يدركه الا مقتولا بسيف الخليفة محمد الشريف ، وانتهى الأمر بابادة الحملة عن آخرها ما عدا حوالى ثلاثمائة جندى ، أخذهم الدراويش أسرى .

وكان المتمهدى وقواده فى فرح لا مزيد عليه بعد هذا النصر ، وشغل الدراويش بالغنائم ، وطاف شفيق بالقتلى فاذا الجثث متراكمة تلالا ، والدماء جارية أنهارا ، ومر بجثة هيكس باشا فوجده قد صرع بحربة أصابته فى صدره ، وشاهد علاء الدين باشا فى مثل ذلك ، فكاد قلبه ينفطر لتلك المناظر ، لكنه تجلد خشية افتضاح أمره . وفيما هو فى ذلك رأى الناس يهرولون الى مكان المتمهدى فسار فى أثرهم ، واذا الأسرى الذين قبض عليهم قد أوقفوا فى بقعة من الأرض موثقين وعلى وجوههم علامات البؤس والتعب والشقاء والجوع والعطش ، فسأل عما دعاهم الى ذلك ، فقيل له : « انهم سلموا أنفسهم وأحبوا مبايعة المهدى » فوقف شفيق ليسمع المبايعة .. فاذا بمحمد أحمد قد جىء له بالفرو فصلى بمن معه ، ثم وقف أحد الخلفاء يلقن الأسرى سورة

المبايعة وهم يرددونها بعده حانين رؤوسهم اجلالا : وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : بايعنا الله ورسوله ومهديه ؛ بعنا أرواحنا وأموالنا وعيالنا فى سبيل الله فلا نهرب من الجهاد ، ولا نزنى ، ولا نسرق ، ولانشرب الخمر ، ولا نعصيه فى معروف »

وبعد قليل أخذ الأمراء والمقدمون فى احضار الغنائم الى مابين يدى المتمهدى .. فأمرهم أن يخصصوا خمسها له ، ويوزعوا مابقى على الأمراء والمقدمين حسب المعتاد . وكان فى تلك الحملة من الغنائم ما لايحصى عدده من الثياب والدراهم . أما الأسلحة والمدافع فأخذت الى بيت المال

وبعد الاستراحة عاد الجميع غانمين فائزين قاصدين الأبيض ، وغادروا جثث رجال الحملة المنكودى الحظ ملقـاة على الرمال وبين الأشجار ..

فلما وصل الجيش المنتصر الى الأبيض أطلقت المدافع تحية له ، ودخل المدينة باحتفال عظيم

مكث شفيق فى الأبيض بعد ذلك حينا ، وهو يترقب فرصة لعله يستطيع العودة الى الخرطوم ، ولكنه لم يكن يستطيع الفرار وحده لأنه لايعرف الطريق ، فضلا عن انه لايأمن غائلة أنصار المتمهدى اذا كشفوا أمره . فلبث صـابرا على أحر من الجمر ، وقلبه لاينفك مشتغلا بوالديه وحبيبته ، ولا عزاء له الا صورة فدوى يتأملها كلما خلا الى نفسه ويطلق لدموعه العنان حتى يشفى غليله ، ثم يعود الى التفكير فى وسـيلة لنجاته من تلك

الأصقاع والعودة الى الديار المصرية ، أو على الأقل فى ارسال كتاب يبشر أهله ببقائه على قيد الحياة

وكان حسن يجتمع به أحيانا ، فيتحادثان فى شئون كثيرة أهمها تدبير الوسائل للخروج من ذلك السجن ، فكان شفيق لا يظهر ملله من تلك الحال ، خشـــية أن ينسب اليه الجبن أو ضـــعف العزيمة ..

وكان يترقب ورود جواسيس المتمهدى ليطلع منهم على حركات الحكومة المصرية ومقاصدها بعد انكسار حملة هيكس باشا ، فلم يكن يسمع الا باتساع سلطة المتمهدى وانتشار نفوذه فى الأقطار السودانية .. فلم يمض جانب من سنة ١٨٨٤ ، حتى أصبح معظم السودان على دعوته ، وسلمت له مديريات : دارفور ، وكوردفان ، وبربر ، وبحر الغزال ، وغيرها . ولم يبق من السودان فى حوزة الحكومة المصرية الا بعض المدن التى فيها حاميتها كالخرطوم ، وسنار ، وكسلا ، وسواكن ، وبعض المدن فى خط الاستواء

وأخيرا علم شفيق من أخبار الجواسيس ان الحكومة الانجليزية أشارت على الحكومة المصرية بأن تخلى السودان ، فيئس من العودة الى مصر وأخذ يندب سوء حظه ، ويأسف على ماساقه الى تلك الحالة ، وقد كان فى غنى عنها

وفى صباح يوم من أيام سنة ١٨٨٤ ، رأى فى منامه فدوى ، وقد أضناها السقم حتى أشرفت على الموت .. فاستيقظ مذعورا ، وتناول صورتها ، وأخذ يقبلها ويبكى بكاء حارا حتى كاد يغمى

عليه .. على انه لم يكن يستطيع التمادى فى اظهار عواطفه ، خوفا من اكتشاف أمره

وبينما هو فى ذلك ، اذ سمع وقع أقدام خارج الحجرة ، فانزعج وسارع الى اخفاء الصورة وكظم ما به ، ثم التفت الى الباب فاذا بصديقه حسن قادم اليه .. وعلى وجهه امارات السرور ، فاستبشر وسأله : « ما أخبارك يا حسن ؟ .. »

فقال حسن : « أبشر بقرب الفرج ياعزيزى .. »

فقال شفيق : « من لنا بالفرج ونحن هنا ، ودون الوصول الينا خرط القتاد ؟.. »

فقال حسن : « ليس شىء على الله بعسير ، وقد قررت الحكومة الانجليزية ارسال غوردون باشا الى هذه الديار لاخماد الثورة ووقف حركة المهدى ، وأنا واثق بأنه سيفوز باذن الله »

فقال شفيق : « ومن قال لك ذلك ؟.. »

قال حسن : « أتظن أن المهدى غافل عن استطلاع أحوال عدوه ، ان له فى مصر نفسها جواسيس يبعثون اليه بالرسائل والأخبار عن أحوال كل البلاد ، وقد جاءنا أمس رسول بكتاب من أحد أعيان الصعيد ينبىء بعزم الحكومة الانجليزية على ارسال غوردون « باشا » بلا جيش لتدبير هذه المسألة »

فقال شفيق : « كيف يمكن اخماد الثورة ، وقد آمن بالمهدى أهل السودان كافة ، وهو لايقبل الا أن يمنح كل مطالبه ، وهى تقضى بزوال السلطة المصرية ، بل الرجل طامع فى عرش مصر بل

فى عرش الخلافة بالآستانة . وان شئت فقل : انه لايقنع الا بفتح العالم ، ولاسيما بعد أن ساعدته المقادير وانتصر فى وقائع عدة . ولا يخفى عليك ان ماحل بجيش هيكس باشا المنكود الحظ لم يكن الا تنشيطا لمشروع هذا المتمهدى ، لأنه صرح فى منشوراته الى أتباعه بأن من علامات المهدوية ، عدا الخال الذى على حده ، ان النصر يرافقه حيثما توجه .. وان علما أبيض يتقدمه حيثما سار لجهاد ، وقد رأيت ان جميع حروبه جاءت بنتائج أيدت دعواه ، فاذا راجعت تاريخ ظهوره منذ كان فقيها يعلّم الناس الصلاة والعبادة فى جزيرة ابا ، حتى بلغ نفوذه هذا المبلغ ، وانتشرت سطوته فى سائر أقطار السودان .. رأيت انالأقدار كانت تساعده وتوفق مساعيه تأييدا لدعوته ، فاذا كانت الحكومة لم تستطع تلافى خطر المتمهدى عند أول دعوته فى جزيرة ابا ، وهو وحيد ليس حوله الا قليل من طلبة العلم ، فكيف تستطيع ذلك الآن بعد أن ثبتت دعواه لدى أهل السودان جميعا ؟ » ..

فقال حسن : « لا أنكر استفحال أمر هذا الرجل لاستخفاف الحكومة المصرية به أول الأمر حين ظهر بدعوته فى جزيرة ابا ، اذ بعثت اليه حكمدارية الخرطوم نفرا من العلماء يأتون به اليها فأهانهم ، ثم بعثت اليه نفرا من الجند فقتل معظمهم ، وظلت الحكومة مستخفة به .. بينما واصل هو نشر دعوته بين أهل السودان متظاهرا بأن قصده الوحيد نصرة الاسلام ، وانقاذ المسلمين مما حاق بهم من الاستبداد لاهمالهم فروض دينهم .

فكان هذا داعيا الى التفاف العامة حوله حتى آل الأمر الى ماترى .. ولكن لايخفى عليك أن غوردون باشا لايقل اعتبارا فى نظر أهل السـودان عن المهدى ، لأنه حين تولى حكمدارية السودان أظهر من العدل والحنو والرأفة والا... والدعة ماحببه الى الناس ، ولاسيما بعد أن ألغى فى عهده بيع الرقيق ، ولهذا أرجو أنه اذا جاء الآن لايعجز عن تلافى مسألة المهدى بوجه من الوجوه » ..

فأطرق شفيق مفكرا وقال : « ان غوردون « باشا » حرر السودان من الرق حقا ، ولكن أمر المهدى قد استفحل بعد أن بايعوه على الطاعة والجهاد ، ورأوا من انتصاره فى الحروب ماأيد دعوته ، ولا تنس انه استحوذ على عقول أكثر القواد السودانيين مثـل : ولد النجومى ، وأبى عنجر ، وأبى جرجه ، فضـلا عن خلفائه : ولد الحلو ، وعبد الله التعايشى ، ومحمـد الشريف ، وقائده عثمان دقنـا الذى أتى بالمعجزات فى حروبه بالسودان الشرقى ، وغير هؤلاء من القواد العظام . على انى لأعجب غاية العجب من ارسال غوردون باشا وحده فى هذه المهمة التى قصرت دون حلها الجيوش ، وكان على الحكومة المصرية اذا أرادت قهر هذا الرجل أن ترسل اليه جيشا منظما مخلصا لها ، لا جيشا كجيش هيكس باشا الذى كان معظمه من الجنود العرابيين »

فقال حسن : « ما أظن ان الحكومة المصرية تعجز عن ذلك ، ولكنها لاتستطيع أن تفعل غير ماتشير به دولة انجلترا ، فانها

هى التى أشــارت عليها باخلاء السودان وارجاع الحامية من الخرطوم وغيرها ، ولما لم توافقها الوزارة المصرية أصرت على وجوب الاخلاء .. فاستقالت الوزارة الشريفية ، وخلفتها الوزارة النوبارية ، ووافقت على اخــلاء الســودان ، فأرسلت انجلترا غوردون باشا لكى يسترجع الحاميات ويعيد حكم السودان الى ماكان عليه قبل أن يفتحه محمد على باشا »

فقال شفيق : « هب أن كل ذلك صحيح .. فما الذى يترتب عليه من النفع لنا ، اذا كان غوردون آتيا لاسترجاع الحاميات فليس هنا حاميات نرجع معها .. » ..

فقال حسن : « فلنتوكل على الله ، والله مع المتوكلين » .. ثم الصبر والتجلد ، والحزم شأن الرجال » ..

ثم انتبه بغتة ، والتفت الى ماحوله قائلا : « مالى ولهــذه الهواجس ، اننى هنــا فى بلاد الحرب والقتــال ، ولابد لى من الصبر والتجلد والحزم شأن الرجال »

وألقى شفيق بنفسه على « العنقريب » لعل النوم يخفف ما آلم به من التعب بسبب تلك الهواجس

وما لبث قليلا حتى سمع نقرات الدفوف اشــارة الى عرض الجنــد ، فخرج بملابس الدراويش الى ســاحة العرض خارج المدينة ، وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب ذلك ، وفى الطريق لقيه حسن فسأله عن السبب ، فقال : « تمهّل وستعلم كل شىء عما قليل » . فخفق قلبه وخشى أن يكون فى الأمر مايخشى منه ،

وما أن انتهى العرض وعادت الجيوش الى أماكنها ، حتى سار بجانب حسن ، الى أن بعدا عن الجمع ، فقال له حسن : « ألم تشاهد الرجل الذى جاءنا اليوم محاطا بالحراس ؟ »

قال شفيق : « نعم ولعله أسير »

قال حسن : « لا .. ولكنه رسول من غوردون باشا أرسله من الخرطوم » ..

فقال شفيق متلهفا : « وهل جاء غوردون الى الخرطوم ؟ وماذا يريد بهذه الرسالة ؟ »

قال حسن : « انه بعث يؤكد للمهدى انه جاء لانقاذ المسلمين وفتح طريق الحج الى البيت الحرام ، مظهرا رغبته فى توطيد دعائم السلم .. وطلب الى المهدى أن يطلق سراح من فى حوزته من الأسرى النصارى والمسلمين من رعايا الحكومة ، على أن يعين فى مقابل ذلك مديرا لكردفان »

فقال شفيق : « وهل تظن أن المهدى يجيبه الى طلبه ؟.. »

قال حسن : « ياحبذا ذلك ، لأننا نكون ممن يطلق سراحهم ، ولكنى لا أظنه يقبل بعد أن اتسع نطاق سطوته ونفوذه ، ولذلك رأيته قد أمر بعرض الجيش أمام الرسول ليبين له قوته » ..

فقال شفيق : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وماذا ترى ؟.. » ..

قال حسن : « أرى انه لم يكن من حسن السياسة ارسال غوردون وحده من أقاصى المغرب الى أواسط افريقيا ليخمد ثورة

المهدى التى جعلت السودان شعلة .. بلغ لهيبها أقاصى افريقيا ، بل لقد مس شعاعها أقطار آسيا ، وسيرفض المهدى ذلك الطلب ، ولا سيما بعد أن أيقن بالفوز واعتاد رجاله النصر والاستخفاف بالحكومة المصرية .. زد على ذلك ان السودانيين يكرهون الجنس التركى ، وهم يرون كل من لبس الطربوش تركيا ، واذا تأملت فيما كتبه غوردون الى المتمهدى فسترى انه مما يزيده طمعا فى النصر والاستخفاف بعدوه ، فهو قد أساء الى الحكومة المصرية بقتل حامياتها وسلب حقوقها ، ولكنها بدلا من أن تقتص منه بعثت على لسان غوردون «باشا» تكافئه بتوليته مديرا لكردفان»

فقال شفيق : « لنصبر الى الغد لعلنا نصيب خيرا باذن الله ، والله مع الصابرين » .. ثم افترقا ومضى كل منهما لشأنه ..

وأمضى شفيق ليلته مسهدا ، يدعو الله أن يجيب المهدى طلب غوردون ، لتتاح له العودة الى مصر ورؤية فدوى . ثم لاح له انه حتى لو رفض المتمهدى ذلك الطلب ، قد يستطيع ارسال كتاب الى فدوى أو والديه مع رسول غوردون

وفى الصباح توجه الى حسن وسأله عما انتهى اليه رأى المتمهدى فى خطاب غوردون ، فقال حسن : « لقد رفض كما توقعت ، وكتب الى غوردون مؤكدا انه لم يقم بجهاده رغبة فى الدنيا ولا ليتولى كردفان أو غيرها ، وأن النصر مكتوب له لأن النبى صلى الله عليه وسلم بشره بسقوط كل من يناوئه .. ثم طلب من غوردون نفسه أن يؤمن بدعوته وينتظم فى سلك الدراويش ،

وبعث اليه من الرسول صرّة بها جميع ما يحتاج اليه الدراويش من الملابس » ..

فقال شفيق : « ومتى يسافر الرسول ؟.. »

قال حسن : « يسافر فى صباح الغد »

فتساقطت عبرات شفيق على الرغم منه وسكت ، فابتدره حسن سائلا عما أبكاه ، فقال : « تذكرت والدىَّ اللذين ربّيانى بدموعهما وضحيا بكل شيء من أجلى ، وهما الآن ـ ولاشك ـ يعلمان اننى فى عالم الأموات ، وقد لبسا علىَّ ملابس الحداد »

فقال حسن : « اننا جميعا فى مثل هذا المصاب يا أخى ، وهذا قضاء الله » ..

فتنهد شفيق وقال : « ان بقائى هنا دون علم والدىَّ يقضى عليهما لا محالة ، فأنا وحيدهما وقد علقا آمالهما بى .. وقد كنت اذا تأخرت عن عودتى الى البيت ساعة قلقا لغيابى ، فكيف يكون حالهما وقد جئت الى هذه الديار مع حملة عرفا بأنها أبيدت عن آخرها ؟! » ..

فقال حسن : « لعلك تريد أن تبعث مع رسول غوردون بكتاب الى والديك ؟.. »

قال شفيق : « حبذا ذلك .. »

فقال حسن : « هذا أمر عسير جدا ، لأن الرسول محجور عليه ، ولا يباح لأحد أن يخاطبه فى شيء ، ولكن اكتب الخطاب فلعلّى أجد وسيلة لارساله مع من سيصحبون الرسول فى عودته

من رجال الأمير عبدالحليم . ولكن يجب عليك أن تختصرالكتاب ما أمكن ، وتطويه بحيث يستطيع الرسول اخفاءه فى ثنايا ثوبه أو نعله » ..

فشكره شفيق وجاء بورقة فى حجم الكف وكتب فيها يقول :

« سيدى الوالدين : أكتب اليكما من الأبيض حيث قدر لى أن أكون فى عداد الدراويش فى أمن وسلام لولا البعد عنكم ، ولا أدرى متى يتاح لى الرجوع ، فاصبرا حتى يأتى الله بالفرج ، واكتبا الىّ مع حامل كتابى هذا .. « شفيق »

ثم فكر فى أمر فدوى وخجل أن يذكرها فى كتابه ، فلايكون أبوه قد علم بأمره معها بعد ، أو أن يكون غير راض عن خطبتهما .. وأخيرا رأى أن يوجه الكلام عن فدوى الى والدته فكتب تحت ذلك الكتاب حاشية قال فيها : « أرجو من والدتى أن تخبر فدوى بأنى باق على العهد ، فاذا رأت سعادتها فى البقاء عليه ، فبها ونعمت ، والا فهى فى حل من أمرها ، والأمر يومئذ لله »

ثم طوى شفيق الكتاب ودفعه الى حسن ليسلمه الى الرسول ، وأعطى له عشرين ريالا على أن ينقده ضعفها حينما يأتى الجواب وجعل العنوان على قنصلية انجلترا بالقاهرة ، فان لم يجد الرسول أباه هناك ، سلّم الكتاب لوالد فدوى فى بيته

فأخذ حسن الكتاب وسلّمه الى الرسول ، ثم عاد وأخبر شفيقا بذلك ..

كان والدا شفيق قد اشتد بهما الحزن لفقده حتى سئما

الأقامة بمصر ، ولم تكن سعدى والدة شفيق قد أطلعت زوجها على شيء من أمر فدوى ، لكنها كانت تنتهز الفرص لمشـــاهدتها والاجتماع بها حيث تتشاكيان الأحزان

وفى ليلة من ليالى سنة ١٨٨٤ ، كانت سعدى جالسة فى غرفتها فدخل زوجها وبيده صحيفة « لسان الحال » . وكان يطالع فيها وعلى وجهه بعض مظاهر السرور مع ما كان فيه من شدة الحزن ، فاستغربت سعدى ذلك منه ، وتطلعت اليه متسائلة فابتدرها قائلا : « لقد دنا الوقت الذى يباح لي فيه أن أطلعك على ذلك السر ، بعد أن مات الأمير عبد القادر الجزائرى ولم يعد علىّ رقيب » ..

فلم تفهم سعدى مراده وأصغت لسماع تتمة كلامه ، فقال : « هاتى الكتاب الذى عهدت اليك بحفظه »

فســـارعت الى النهوض وتوجهت لاحضـــار ذلك الكتاب ، ولكنها لم تجده حيث وضعته ، وعبثا حاولت العثور عليه مع طول البحث عنه .. فعادت الى زوجها قلقة مضطربة ، وقالت له : « لعلى وضعته فى مكان لا أتذكره الآن ، وسأواصل البحث عنه حتى أجده باذن الله »

فاشتد غيظه لضياع الكتاب ، وتركها ومضى الى حجرته قلقا متكدرا ، فلم تجرؤ على مخاطبته فى شيء

وفى الصباح التالى قال ابراهيم لزوجته : « ان الاقامة بهذه الديار لم تعد تحلو لى ، ولاسيما بعد أن فقدنا ولدنا .. وأرى أن

نبيع أمتعتنا ونهاجر من مصر الى لبنان ، فنتخذ لنا مسكنا فى قرية من قرام نقضى فيها بقية حياتنا »

فوافقته زوجته على ذلك .. ولم تمض أيام حتى هاجرا الى لبنان ، وأبى خادمهما الأمين أحمد الا أن يرافقهما ليكون عونا لهما فى السراء والضراء

أما فدوى فظلت تزداد سقاما يوما بعد يوم حتى تملك الخوف قلب أبيها عليها .. وكان كثير التعلق بها لأنها وحيدته ، ولما آنس فيها من الخلال الحميـــدة .. فلما رأى ما ألمّ بها من النحول بسبب حبها لشفيق ، عمل على أن ينسيها ذلك الحب ، وراح يتخذ كل وسيلة يراها مؤدية الى ذلك . ومن هنا أصبح ميالا الى الاجتماع بعزيز والاستماع لمشورته فى هذا الشأن

فلما وصف لها الأطباء السفر الى الشام للترويح عن النفس فى ربوع لبنان الجيدة الهواء ، سارع الى اجابة هذه الرغبة ، معتقدا أن بعدها عن القاهرة ربما يعينها على السلوان ، وعرض عليها الأمر فلم تمانع ، فأعد عدة السفر ، واصطحبها وبخيتا وخادمين آخرين ، تاركا زوجته فى البيت مع بقيـــة الخدم .. ثم ركبوا القطار الى الاسماعيلية ليسيروا منها الى بورسعيد ، ومن هناك يبحرون الى بيروت ..

وودعهم عزيز فى المحطة ، وقد أضمن أن يقتفى أثرهم بعد حين الى لبنان .. لعل المقادير تساعده على تحقيق غرضه

وبعد مسيرة يومين بالباخرة فى البحر ، وصلوا الى مينـــاء

بيروت ، فأعجبهم موقعها عند سفح لبنان الشامخ الآكام ، الذى لم يَحُل ارتفاعه الهائل دون اكتساء جباله المناطحة للسحاب بأنضر الأشجار ..

واتفق وصولهم فى يوم رق أديمه واعتل نسيمه ، فلاحت لهم نمم ذلك الجبل القديم العهد مكسوة بالثلج الأبيض الناصع ، وكانت كل رباه الخضراء قد سقاها المطر الذى لازمها أسبوعا فأصبح منظره من أبهج مايكون . وأخذ الباشا بيد ابنته فدوى وأشار الى تلك المناظر الطبيعية وقال لها : « تأملى يا عزيزتى هذه الآكام الممتدة على مدى النظر ، وسبّحى الخالق العظيم الذى فجّر الماء من أعلى قممها فاكتسبت خضرة وبهجة بين أشجار وأعشاب ، تتخللها قرى صغيرة ، كل قرية على جبل أو فى سفح جبل وبيوتها بيضاء متفرقة بين الزرع كأنها أحجار كريمة على ديباجة خضراء . وانظرى الى هذه المدينة الجميلة القائمة على مرتفعات لطيفة عند سفح هذا الجبل .. ان أبنيتها الشاهقة مختلفة الألوان ، وفى أسقفها القرميدية الحمراء وما يحيط بها من الحدائق الخضراء مايجعلها بهجة للناظرين »

وكان يقول ذلك وينظر الى وجه فدوى ليرى ماذا يكون منها .. فاذا هى ساكتة لاتبدى جوابا ، فظنها تتأمل جمال ذلك المنظر ، ثم ركبوا عربة أوصلتهم الى فندق على الشاطىء ، فوجدوه حسن الموقع لا تنفك الأمواج تضرب أساسه ليلا ونهارا ، فهيأ صاحبه حجرة لنوم الباشا وابنته وأخرى للخدم ،

فلما دخلت فدوى الغرفة استقبلت المرآة فى صدرها ، فارتاعت لما رأت من نحولها فألقت بنفسها على السرير ، وهى تغالب الحزن والبكاء ..

وبعد الاستحمام ، وتغيير الثياب ، وشرب المنعشات ، والاستراحة من وعثاء السفر ، تناولوا الغداء ، ثم خرج الباشا ملتفا بمعطف شتوى لمشاهدة غرف الفندق ، فقابله أحد خدمه وذهب به الى غرفة الاستقبال المطلة على البحر ، فأشعل سيجارة وجلس بجانب النافذة يسرح نظره فى البحر الهادىء ويصغى الى صوت أمواجه ..

أما فدوى فلبثت فى الحجرة ترتب الثياب ، وفيما هى تقلب محتويات صندوقها عثرت على صورة شفيق فتناولتها ، وأخذت تتأمل فيها وتذرف الدموع حتى بللت ثيابها ، وخارت قواها فألقت بنفسها على السرير والصورة فى يدها وهى لا تعلم ، فأخذتها سنة من النوم . وفيما هى كذلك عاد أبوها فلما رآها على تلك الحال علم انها نامت باكية ، ثم لاحت منه التفاتة الى يدها فاذا صورة شفيق بها ، فانتزعها من يدها وهى لا تدرى وأخفاها فى مكان بالغرفة ، ثم خرج عائدا الى قاعة الاستقبال ..

***

ولما استيقظت فدوى تفقدت الصورة فلم تجدها فأخذت تبحث عنها فلم تقف لها على أثر ، وفيما هى فى ذلك دخل عليها أبوها .. فلما أخبرته أنها فقدت صورة شفيق تظاهر بمشاركتها فى

البحث عنها .. وأخذ يحاول اقنـاعها بأنها ربما سقطت منها فى البحر وهى غائبة عن صوابها

وفهمت فدوى من كلام والدها انه مغتبط لفقد تلك الصورة فصبرت حتى خرج ، ثم بعثت الى بخيت وأطلعتـه على الأمر فوعدها بأن يبحث عن الصورة ، ويأتى بها ولو كانت فى ظلمات البحر ..

لاحظ صاحب الفندق ان الباشا يبدو قلقا مهموما ، فجاء اليه وحيَّاه ، ثم أخذ يجاذبه أطراف الحديث لاستطلاع أمره ، الى أن قال : « لعل الهانم لم تسر بنزولها بهذا الفندق لعدم وجود سيدات فيه .. »

فقال الباشا : « هذا صحيح ، ولا سيما ان تقاليدنا لا تسمح لها بالظهور أمام الرجال كما يفعل الافرنج ومن يقلدونهم »

فقال صاحب الفندق : « اذا أذنت سـيادتك ، فان زوجتى تتشرف بمعرفة ابنتكم .. لعلها تستأنس بها فى وحدتهـا » .. فوافقه الباشا وشكره

فخرج صاحب الفندق وأخبر زوجته بأن عنده سيدة مصرية تود الاستئناس بها ، فارتدت أحسن ما عندها من الثياب والحلى ، وسارت معه حتى دخلا على الباشا .. فاستقبلهما مطرقا ولم يرفع نظره اليها جريا على عادة بلاده ، ثم عهد الى بخيت فى أن يسير بالسيدة الى فدوى ويعرفها اليها ، لعلها تستأنس بمعاشرتها فى وحدتها ، وسار بخيت أمام زوجة صاحب الفندق حتى وصـل

الى باب غرفة سيدته ، فأوقفها خارجا ودخل وحده ليستأذنها ، فرآها متكئة مبهوتة لا تبدى حراكا ، فأخذ يلاطفها ويسرى عنها ، ثم قال : « ان زوجة صاحب الفندق بالباب ؛ وقد جاءت لتحيتك .. فهل أدعوها لمقابلتك .. »

فقالت فدوى : « دعنى يابخيت .. انى لا أستطيع مقابلة أحد الآن .. »

فقال بخيت : « انك يا مولاتى توقدين فى قلبى نارا تحرق حشاشتى بهذا الكلام ، ولا أقول لك شيئا الآن سوى انى مستعد لأن أبذل حياتى فى سبيل مرضاتك ، فانهضى غير مأمورة واسمحى للسيدة بالدخول ، فان أهل هذه المدينة كلهم يجيدون الحديث والمؤانسة لتعودهم لقاء الغرباء »

فقالت فدوى : « دعها تدخل » . ونهضت ترتب ثوبها وتنظم غرفتها ، فلما دخلت المرأة قابلتها بوجه بشوش وأذنت لها فى الجلوس . فبدأت السيدة بالحديث قائلة : « أهلا وسهلا بك يا حبيبتى ، اننا تشرفنا بمجيئك .. »

فأجابتها فدوى بما عهد فى أهل مصر من اللطف والدعة وحلو الحديث . ثم جرى الحديث بينهما فى شئون مختلفة الى أن تطرقتا الى ذكر الملابس والحلى ، فنظرت زوجة صاحب الفندق الى سوار من الذهب المرصع بالياقوت والماس كانت فدوى تتحلى به ، وقالت : « لعل هذا السوار من صنع أوربا .. انه فى غاية الاتقان » ..

فقالت فدوى : « نعم .. هو من صنع أوربا ، ثم نزعته من يدها وناولتهـا اياه قائلة : « هل يستطيع الصـاغة عندكم أن يصنعوا مثله ؟ .. »

فقالت زوجة صاحب الفندق : « ان الصاغة عندنا مشهورون بالمهارة والحذق ، وجميع مصوغاتنا من صنعهم » . ثم أشارت الى سوار فيدها ، ونزعته وناولتها اياه قائلة : « انه من صنع صاغتنا » فتأملته فدوى فاذا هو مصنوع من الذهب ومرصع بالماس بشكل جميل ..

ثم مدت صاحبة الفندق يدها الى شعرها وانتزعت دبوسـا مرصعا بالماس ناولتها اياه وقالت : « هذا من صنع أوربا على ما أظن » ..

فتناولت فدوى الدبوس ، وما تأملته حتى اشتد وجيب قلبها ورجفت ركبتاها ، لأنه يشبه الدبوس الذى أعطته لشفيق ، ثم تحققت انه هو بعينه .. فازداد خفقان قلبهـا ، واصفر وجهها ، وأخذتها الرعدة وتلعثم لسانها وبردت أطرافها ، فأدركت زائرتها ذلك ، ولم تفهم له معنى لأنها لم تعلم له سببا

***

أما فدوى فانها حاولت اخفاء عواطفها فلم تستطع لأنالدموع سبقتها ، وأرادت أن تسألها كيف وصل هذا الدبوس اليها فلم تستطع ، وخشيت الفضيحة .. فأسندت رأسـها الى وسـادة المقعد ، متظاهرة باضطراب صحتها .. فوقع الدبوس من يدها ،

فتناولته السيدة وغرسته فى شعرها قائلة : « لا أراك الله سوءا يا ابنتى ، ما هـذا الاضطراب الذى اعتراك ؟ .. هـل تأمرين باستدعاء الطبيب ؟ »

فقالت فدوى : « لا حاجة الى الطبيب الآن .. »

قالت ذلك وهى ترتجف ، فنهضت السـيدة واستأذنت فى الانصراف .. ثم سارعت الى اطلاع زوجها على الامر ليخاطب والد الفتاة فى شأنها

ودخل بخيت على فدوى فرآها على تلك الحال ، فسألها عن شأنها فأخبرته بأمر الدبوس ، وقالت : « أريد منك أن تستطلع هذا الأمر ، وتعرف كيف وصل الدبوس الى هنا »

فقال بخيت : « سمعا وطاعة » .. وخرج وهو لا يقـل عنها دهشة ..

ومضت زوجة صاحب الفندق الى زوجها ، وقصّت عليه قصة الفتاة ، وقالت : « لعلها مصابة بمرض من الأمراض العصبية ، ومما يدل على ذلك شدة ضعفها وسرعة تأثرها ، فيحسن أن تخبر أباها بذلك وتشير عليه باستدعاء الطبيب ، لأنى أضن بهذه الفتاة لما شاهدت من لطفها وجمالها »

فاستصوب الرجل رأيها وقال : « سأغتنم فرصة مناسبة وأذكر ذلك أمامه » ..

ولما حان وقت العشاء طلب الباشا الطعام فى الغرفة ، ثم تغير الجو تلك الليلة وتساقطت الأمطار غزيرة ، فآثر الدفء بالفراش .

وقضت فدوى ليلتها مشغولة البال بأمر الدبوس

نهض الباشا فى صباح اليوم التالى ، فرأى فدوى فى حالة يرثى لها من الضعف والاصفرار ، فقلق على صحتها وعزم على أن يستشير أحد الأطباء ، فسار بعد الغداء الى قاعة الاستراحة وبعث الى صاحب الفندق ، فلما حضر قال له : « أريد استدعاء أشهر طبيب فى بيروت لفحص ابنتى .. »

فقال صاحب الفندق : « ان لكل طبيب شـهرة فى فرع من فروع الطب .. »

قال الباشا : « أريد أشهر طبيب فى الأمراض العامة .. »

فقال صاحب الفندق : « فى هذه المدينة طبيب من أمهر الأطباء فى هذه الأمراض ، وان يكن مشهورا ببراعته فى علاج أمراض العين ، وهو الدكتور (ن) . وفضلا عن سعة اطلاعه قد خصه الله باللطف والايناس .. فاذا كلم المريض طيب خاطره ، وخفف آلامه بلطف حديثه ، قبل أن يصف له الدواء . وقد أقام هنا خمسين عاما بين طب وتدريس فى الطب .. وهـو بفراسته يعرف الداء بالنظر الى المريض »

فقال الباشا : « أحضره الىّ فى الحال .. »

قال صاحب الفندق : « لا يمكننا أن ندعوه الا بعد الظهر ، لأنه قبل ذلك يعالج الفقراء فى بعض المستشفيات بدون أجر .. »

قال الباشا : « ندعوه من المستشفى ، فلابد انه يفضّل علاج المريض الذى يدفع أجر العلاج .. »

فتبسم الرجل قائلا : « كلا يا سيدى .. انه ى النقيض من ذلك .. فهو يفضل علاج الفقراء ، بل هو يساعدهم فى الحصول على الدواء وغيره .. وله صدقات يجريها على أسر كثيرة كل شهر فى الخفاء .. »

فقال الباشا : « اذن ندعوه بعد الظهر .. »

قال صاحب الفندق : « سمعا وطاعة .. »

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر وقفت عربة أمام باب الفندق ، ونزل منها شيخ فى نحو السبعين من عمره ، يمشى على عصا ، لكن من غير تحدب ولا خمول ، وهو سريع الحركة ،قصير القامة خفيف الجسم ، طويل اللحية خفيفها ، وعلى عينيه نظارة . فاستقبله صاحب الفندق وأخبر الباشا بأن الطبيب حضر ، فخرج الباشا لاستقباله ، وعاد معه الى غرفة الاستراحة فآنس الباشا منه فوق ما سمعه عنه من اللطف والدعة ، فأثنى عليه ثناء جميلا الى أن قال : « لقد وددت لو أكون مريضا فأتمتع بعلاجك ..ان حديثك أشهى من الترياق » . فلم يرد الطبيب على هذا المدح فرارا من مدح آخر ..

ثم تحدثا قليلا ، الى أن قال الباشا : « قد دعوتك أيها الطبيب لأستشيرك فى أمر ابنتى .. وقد جرَّأتنى اخلاقك الكريمة على أن أبوح لك بسر لم أطلع عليه أحدا فى هذه المدينة .. »

فقال الطبيب : « قل ما تريد .. »

فقص الباشا قصة ابنته مع شفيق ، الى أن قال : « وقد وقعت

فى حيرة الآن ، لأن الفتاة تعلقت بذلك الشاب تعلقا شديدا .. ولا أنكر عليك انى أحبه أنا أيضا ، لأنه أنقذنى من الموت ، وآست منه شهامة غريبة .. ولكنى لا أرى فائدة من بقائها على حبه ، بعد أن تحققنا ان الحملة التى سار معها قد هلكت بأجمعها .. »

فقال الطبيب : « هل حاولتم أن تشغلوها بشأن من الشئون؟»

قال الباشا : « نعم .. ولكن لم تتحقق بذلك فائدة .. »

فقال الطبيب : « ان أفضل طريقة على ما أرى أن تشغل الفتاة عنه بما ينسيها اياه تدريجيا ، ولقد أعجبنى منها محافظتها على العهد ، ولكن ليس باليد حيلة .. »

فقال الباشا : « وكيف نشغلها عنه ؟ .. »

قال الطبيب : « اشغلوها بالأسفار من بلد الى آخر ، والسفر الى جبل لبنان أفضل ما يكون ، ولكن هذا الفصل فصل شتاء ، فلا تستطيعون التجوال فى أنحاء الجبل ، فامكثوا هنا ريثما ينقضى هذا الفصل ويحلو المقام على رُبى لبنان فتتمتع الفتاة بهوائه .. »

فقال الباشا : « ولكن ما العمل الآن ، وهى لا تلبث تفكر فى ذلك الشاب ليلا ونهارا ، وكلما زدت فى تسليتها عنه ، زادت شغفا به ؟... »

فأجاب الطبيب وهو يسمح منظاره بمنديله الحريرى : « تلك عادة أهل الغرام .. كلما زدتهم لوما ، زادوا هياما ، فالأحسن أن

تغضّ البصر عن ذلك ، واذا ذَكَرتْ حبيبها فاذكره بالجميل ، مع الاشارة الى الدهر الذى يقضى على المحبين بالفراق ، واشغلها بالأمل البعيد حتى يقضى الله بما يشاء .. »

فتأوه الباشا ، ثم قال : « والله انك لأحسن من يعـزى عن المصائب ، فهل لك أن تتردد علينا حينا بعد حين ؟ .. »

قال الطبيب : « سأفعل ان شاء الله ، ولكن ربما كان الأفضل أن تأتى بها الى زيارة منزلى بقرب المنارة ، فانه فى مكان يشرف على البحر من جهة ، وعلى الجبل من جهة أخرى »

ظلت فدوى معتكفة فى غرفتها ، مشغولة بالبحث عن صورة شفيق ، فلم تترك مكانا هناك الا بحثت فيه ، لكنها لم تقف للصورة على أثر .. فلاح لها ان أباها أخفاها فى جيبه ، فعزمت على البحث عنها فى ثيابه بعد نومه ليلا ، ثم ألقت بنفسها على فراشها خائرة القوى ، فى انتظار عودة بخيت

وفى المساء عاد بخيت والدبوس بيده .. فلما رأته فدوى خفق قلبها وأسرعت اليه وخطفته من يده ، وجعلت تقبّله ، تتأمله وهى تبكى قائلة : « هل عرفت حكايته يا بخيت ؟ .. »

فقال بخيت : « كلا يا سيدتى ، ولكنى ذهبت الى صاحب الفندق وزعمت له انك تحبين مشاهدة الدبوس لأنك أعجبت بصنعه ، وحاولت معرفة طريقة وصوله اليه ، فلم يقل أكثر من انه جاءه هـدية من أحد السائحين الانجليز الذين ينزلون فى فندقه » ..

فقالت فدوى : « لم يقل الحقيقة ، لأنى شاهدت الدبوس مع شفيق قبل سفره الى السودان ، فكيف وصل بعد ذلك الى بلاد الانجليز ؟ .. »

فقال بخيت : « سأواصل البحث حتى أهتدى الى طريقة وصوله ، كما انى سأقلب الأرض طولا وعرضا حتى أجد الصورة المفقودة .. »

قالت فدوى : « ليس فى العالم من أثق به سواك .. فلا تدعنى أفقد ثقتى فيك ، والآن خذ الدبوس وارجعه الى صاحبه » .

فأخذ الدبوس وخرج

وجاء الباشا الى غرفة فدوى بعد قليل ، فرآها أحسن حالا من ذى قبل ، فقال لها : « لقد أطلت عليك الغيبة اليوم .. »

قالت فدوى : « نعم يا أبتاه ، وأنت تعلم انى لم آت الى هذه البلاد لأسجن فى هذه الحجرة .. »

قال الباشا : « كنت أبحث عن مكان نخرج اليه للنزهة ، وقد دعانا الدكتور (ن) الشهير لزيارته فى منزله غدا .. وهو فى طرف المدينة يطل على البحر والجبل »

قالت فدوى : « وكيف دعانا الى منزله وهو لا يعرفنا ؟ .. »

قال الباشا : « لقد دعوته لأستشيره فى أمرك ، وقد أنست بلقائه كثيرا وأحببته للطفه وكرم أخلاقه ، فضلا عن علمه الغزير»

وصحيح ان الافرنج لا يدعون أحدا الى منازلهم الا بعد طول معرفة ، ولكنه أمضى فى هذه البلاد قرابة خمسين سنة فتخلق

بأخلاق أهلها وألف عاداتهم ، كما أتقن لغتهم وحفظ أمثالهم ، وأساليب كلامهم . وقد سمعته يورد فى حديثه من الأمثال الدارجة ما يتعذر ايراده على كثير من أبناء اللغة أنفسهم .. وأؤكد لك انك لو جالسته ساعة لذهب عنك كل كدر ، وستعرفين زوجته حين نذهب الى منزله غدا ، ولابد أن تكون قد اكتسبت شيئا من أخلاقه ولطفه وظرفه »

قالت فدوى : « اذن نذهب اليه غدا » . ثم ذهب كل منهما الى فراشه ، ونامت فدوى ، لأول مرة منذ السفر نوما عميقا مريحا

مضى بخيت الى صاحب الفندق ، فردّ اليه الدبوس وقال : « ان سيدتي سُرت كثيرا من اتقان صنعه وتحب معرفة المكان الذى صنع فيه لتوصى بصنع مثله »

قال صاحب الفندق : « قلت لك انه صنع فى أوربا ، وقدأهداه الىّ سائح انجليزى ، ولم أسأله عمن صنعه هناك ، ولولا أن الهدايا لا يجوز التصرف فيها .. لقدمناه هدية للسيدة .. »

فشكره بخيت ، ثم ذهب الى عبود طباخ الفندق ، وكانا قد تعارفا وتحابا ، فدعاه الى حجرته ، ثم دعاه الى مشاركته شراب (العرقى) . فتظاهر بالقبول ، وأخذ يسكب على الأرض كل قدح يملؤه له دون أن يشعره بذلك حتى فرغت الزجاجة أو كادت ، وغاب الطباخ عن وعيه ، فقال له بخيت : « ان موقع هذا الفندق جميل جدا ، ولا سيما فى فصل الصيف ، فانه يشرح الصدر لقربه من البحر » ..

فقال الطباخ : « صدقت ، ولكنا نسر فى الشتاء لكثرة السائحين ، فانهم يأتون الينا جماعات من أقاصى البلاد » ..

. فاستبشر بخيت بذكر السائحين ، آملا أن يعرف شيئا عن وصول الدبوس الى هناك ، فقال : « وما الذى يحملهم على المجىء الى هذه الديار فى هذا الفصل ؟ .. »

قال الطباخ : « انهم يأتون الى يافا ويسيرون منها الى بيت المقدس لزيارة قبر المسيح ، ثم يأتون الى هنا غالبا فى أوائل فصل الربيع لمشاهدة أشجار أرز لبنان المشهورة بقدم عهدها حتى ليقال انها باقية من أيام سليمان »

قال بخيت : « انهم يزورون مصر فى فصل الشتاء لاعتدال الجو هناك » ..

قال الطباخ : « نعم .. وهم يأتون من مصر الى يافا ، ولكنهم لايستطيعون التجول هنا لكثرة الثلوج التى تتراكم فى طرق جبل لبنان ، والمهم انهم ينفقون أموالا طائلة فنكسب منهم كثيرا »

فقال بخيت ، وقد توقع قرب الوصول الى ما يبتغى : « هل يعطونكم هدايا من الثياب أو الحلى ، أم يكتفون بالنقود ؟ .. »

قال الطباخ : « هم يعطوننا نقودا وهدايا من الثياب والحلى وغيرها ، ولكنى أفضل النقود طبعا .. »

فقال بخيت : « ولكن اذا أعطوك قطعة حلى مثل دبوس رقبة مثلا ، أفلا تفضله على النقود ؟ .. »

قال الطباخ : « وماذا أصنع بالدبابيس ، وأنا لا أرتدى ثوبا

أفرنجيا ، ولو أعطيتنى حلة أفرنجيـة ما ارتديتهـا ، وكذا لو أعطيتنى قطعة حلى فانى أفضل بيعها .. واذا كنت لا تصـدق فاسأل معلمى الخواجه بسول ، فقد عرفنى جيدا منذ جئت من بلاد السودان » ..

فسرَّ بخيت لمعرفته أن صاحبه كان فى السودان ، وقال له : « انك مغربى يا عزيزى .. فكيف ذهبت الى بلاد السودان ؟ .. »

فتغيرت حالة عبود الطباخ مما كان فيه من أثر الشرب المضحك الى الهدوء والرزانة ، وقال « ذهبت اليها من مصر ، لأنى كنت أذهب كل سنة الى القاهرة فى فصـل الشتاء لمرافقة السائحين ، فلما كانت سنة ١٨٨٢ ، مضى فصل الشتاء علىَّ فى القـاهرة دون عمل ، لأن «شركة كوك» تعهدت باستقبال السائحين وكان يُرسل معهم تراجمة وأدلاء من طرف الشركة،فلما اعتزمت العودة الى بيروت سمعت بمسير حملة هيكس باشا لمحاربة المتمهدى فى السـودان ، وعرضت على أحد ضـباط الحملة الانجليز أن يستصحبنى لخدمته هناك ، فوافق ومضيت معه حتى أتينا الى الخرطوم » . قال ذلك وشرق بدموعه وتوقف عن الحديث

فقال بخيت : « لا بأس عليك يا أخى ، ما الذى يبكيك ؟ .. »

فتنهد عبود الطباخ وقال : « تذكرت ما مرَّ بى من الأهوال بعد ذاك ، فقد تركنى صاحبى الضابط الانجليزى فى الخرطوم ، وذهب متنكرا الى الأبيض حيث يقيم المتمهدى ، وأبقى عندى أمتعته وثيابه حتى يعود ، ولكنه لم يعد وا أسفاه .. ثم سمعنا

بالقضاء على هيكس باشا وجيشه ، ولم يسعنى الا الهجرة من هناك ، فحملت ما خف حمله من ثياب ذلك الضابط ، وسافرت قاصدا هذه الديار عن طريق بربر ، فلما بلغتها خشيت على نفسى خطر الدراويش ، فطرحت ما كان معى من تلك الثياب ولم أُبقِ الا بعض الأشياء الغالية الثمن ، ثم واصلت المسير الى سواكن مصطحبا اعرابيا كان ذاهبا اليها فى مهمة سرية ، أرسله فيها حسين باشا خليفة مدير بربر ، فقطعنا نصف الطريق فى بضعة أيام ، ثم علمنا ان الطريق الى سواكن مقطوعة لظهور دعاة المهدى فيها بقيادة عثمان دقنا الذى أصبح ألد عدو للأتراك ومن شابههم ، مع كونه تركى الأصل .. »

فضاق بخيت ذرعا لطول القصة ، وأراد أن يبتدره بالكلام لاستطلاع ما يهمه ، ولكنه خشى أن يغضبه فبقى صامتا مصغيا ، وأتمّ عبود الطباخ حديثه ، فقال : « فلما سمعنا ذلك وقعنا فى حيرة ، وتوسلت الى رفيقى الاعرابى أن يدبر لى وسيلة أتخلص بها من تلك الورطة فأعطانى بعض ثيابه وعلمنى من الكلام السودانى فوق ما كنت أعرف ، حتى اذا وقعنا فى مشكلة ندعى اننا من أهل تلك الجهات القائمين على دعوة المهدى .. وما زلنا سائرين حتى صرنا على مقربة من سنكات ، فأخبرنى بأنها محاصرة وفيها حامية من الجنود المصريين ، وقد أرسلت الحكومة المصرية اليهم نجدة بقيادة رجل انجليزى اسمه بيكر باشا ، وأشار بأن ندخل سنكات بدلا من الاستمرار فى السير الى سواكن ،

فدخلناها وبتنا تلك الليلة قرب الحصون .. وفي الصباح تجولت في البلدة فاذا هي ليست كبيرة وأبنيتها من الآجر تتخللها بيوت من القش ، وشاهدت أهلها في فقر شـديد لقلة المئونة بسبب انقطاع المواصلات »

- ١٢ -

بطل سنكات

واصل عبود الطباخ حديثه عن الأهوال التي لقيهـا في رحلته الى السودان فقال :

ـ وبينما كنت أتجول في سنكات ، جاءني جندي يدعوني الى مقابلة توفيق بك محافظها ، فذهبت اليه في ديوانه ، فسألني عما سمعته عن حملة بيكر باشا ، فقلت :

ـ اني لم أسمع الا انها جاءت لانقاذكم من هذا الحصـار . فتنهد توفيق بك وهز رأسه وجعل يخاطب نفسه قائلا :

ـ هل جاءوا الينا بنساء ، أم برجال ؟ ..

ثم قال يخاطب ضابطا بجانبه :

ـ لقد جاء بيكر باشا في حملة لانقاذنا ، ولكن الأوامر جاءته بانقاذ حامية طوكر أولا ، ولكن جنوده لم يحسنوا القتال فهزمهم الدراويش واضطروهم الى العودة ..

فأخذ ذلك الضابط يخفّف ويهوّن عليه ، فقال له

— انى لا أخشى الموت ، ولكنى أخشى العار الذى يلحق بحكومتى ، لاهمالها انقاذ حامية هذه البلدة التى دافع أهلها دفاعا حسنا ، وكم من كتاب جاءنا من عثمان دقنا يعدنا مواعيد حسنة اذا سلمنا ، ولم نجبه الا بالتهديد والوعيد ..وعما قريب يحل بنا ما حل بجيش هيكس باشا ، ولكن حملته كان لها عذرها لبعدها عن مراكز الحكومة ، وجهل هذه المراكز بمقر الحملة .. أما نحن فمقرنا معلوم ، وقد أصبحنا فى حال لا تطاق ..

وكان بخيت قد سمع طرفا من قصة البطولة التى أبداها ذلك القائد الشهم فأحب الوقوف على تفصيلها ، وشغل بذلك عن حكاية الدبوس ، فقال :

— يلوح لى ان هذا القائد من أصحاب الحزم والعزم ..

فقال عبود الطباخ :

— نعم .. وقد أعجبت باخلاصه للحكومة وعظم شهامته ، وقلت فى نفسى : انه اذا انحاز الى العصاة فلا لوم عليه لأنه مضطر ، ولكنه فى اليوم التالى جمع ضباط مجلسه فى جلسة حافلة حضرتها وخطب فيهم قائلا :

« ها ان العصاة قد أحاطوا بنا من كل ناحية ، والنجدة التى أرسلتها الحكومة الينا لم تصل ، والبلد فى جوع مدقع ..فالآن : اما أن نلبث فى الحصار فنموت جوعا ، واما أن نخرج مستقتلين وندافع عن أنفسنا وحكومتنا ، فاذا قتلنا عن آخرنا فذلك خير لنا من التسليم لأنه لن يفيدنا شيئا .. وعثمان دقنا لن يبقى علينا

اذا سلمنا له .. فما رأيكم ؟ ..

« فبهت الجميع وقد سحروا بكلام ذلك القائد المملوء شهامة وحزما ، وتركوا الرأى له ، فقال :

ـ أرى أن نفتح أبواب البلدة غدا بعد أن نخربها ، ثم نخرج منها مستقتلين فاذا لقينا الأعـداء قاتلناهم الى آخر نسمة من حياتنا باسم خديوينا توفيق باشا حتى يقضى الله بيننا وبينهم ، ولكل أمة أجل ، فاذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون

« فوقعت فى حيرة ، لأنى لست جنديا ولا معرفة لى بالقتال ، وندمت على دخولى سنكات ، وكذلك كان شأن رفيقى فتعاهدنا على أن نفر من المدينة فى تلك الليلة الى معسكر العدو كما كنا قبلا ثم نذهب من هناك الى سواكن . وخرجنا فى منتصف الليل وقد لبسنا المرقعات نقصد معسكر عثمان دقنا ..فدخلناه مولولين مستنجدين ، وزعمنا اننا ضللنا الطريق فمررنا بجانب سنكات ، فأطلقت حاميتها علينا الرصاص ولم ننج الا بعد الجهد والعناء ، فصدقونا وبتنا تلك الليلة هناك ، وفى الصباح تركنـا المعسكر وسرنا حتى بلغنا سواكن .. وهناك علمنـا بخروج توفيق بك ورجاله من سنكات حيث أحاط بهم الدراويش من كل جانب وأفنوهم عن آخرهم ، فأسفت لمصرع ذلك البطـل . ثم ركبت البحر من سواكن الى السويس ، ولم أصل الى هنا الا منذ أيام » .

فقال بخيت : « ان حكايتك غاية فى الغرابة ، ولكنك لم تذكر

الأشياء التى جئت بها من السودان »

قال عبود الطباخ : « لقد جئت من هناك بما بقى معى من ثياب الضابط الانجليزى وفى جملتها دبوس مرصع ، فبعته لصاحب هذا الفندق بثمن زهيد اذ انه لا ينفعنى »

فأخذ قلب بخيت فى الخفقان ، ثم سأل عبودا عن اسم ذلك الضابط الانجليزى ، فأجابه عبود قائلا : « من الغريب ان اسمه عربى وهو الكابتن شفيق ، وكان يعرف اللغة العربية كأنه من أهلها » ..

فازداد خفقان قلب بخيت ، وكاد يطير من الفرح لاكتشافه سر الدبوس ، ولكنه أسف لتذكره فقد شفيق ، وقال لعبود : « ألم تسمع شيئا بعدئذ عن ذلك الضابط ؟ .. »

فقال عبود : « لو كنت سمعت عنه شيئا ما برحت السودان قبل أن ألتقى به .. »

فقال بخيت : « ولكنك ذكرت انه لم يسر مع الحملة فمن الممكن أن يكون حيا بعد ؟ »

قال عبود : « آه لو أعلم انه حى ، اذن لما ادخرت وسعا فى سبيل البحث عنه ، لأنى لا أنسى فضله ولطفه ، فقد كان يحبنى ويعدنى بمستقبل حسن عنده .. »

فاكتفى بخيت بهذا الحديث ، ونهض فودع صاحبه شاكرا له حسن ضيافته ، وأعطاه بعض النقود قائلا : « ان الباشا مسرور

منك وقد أوصاني بأن أكرمك » . فتناول النقود وقبّلها قائلا : « أطال الله حياة الباشا »

ثم خرج بخيت غارقا فى بحار من الهواجس ، وود لو استطاع أن يسير توا الى سيدته ليطلعها على ما سمعه ، ولكنه سمع الساعة تدق عشر دقات .. فسار الى حجرته ، على أن يقص عليها القصّة فى اليوم التالى ..

قضت فدوى تلك الليلة تحلم بأمر الدبوس وصورة شفيق ، فلما أصبح الصباح ، تناولت طعام الأفطار مع أبيها فى حجرته ، وفى الساعة العاشرة أرسل بخيتا ليأتيهم بعربة توصلهم الى منزل الدكتور (ن) . وكانت فدوى قد لبست ثيابها استعدادا لهذه الزيارة وضفرت شعرها ضفيرة واحدة محلولة من طرفها وأرختها على ظهرها ، فبدت غاية فى الجمال رغم نحولها . ثم جاءت العربة فركبت بجانب أبيها ، وركب بخيت بجانب السائق وساروا قاصدين رأس بيروت حيث منزل الدكتور ..

ساروا فى طريق طويل خارج المدينة ينتهى ببناء فيه المنارة التى تهتدى بها السفن الى ميناء بيروت .. فشاهدوا عن يمينهم قبل وصولهم الى المنارة بابا كبيرا عاريا من كل زينة ، دخلوا منه الى بقعة محاطة بسور ، وفى صدرها باب آخر وقفت العربة عنده ، فاستقبلهم خادم هناك ، وأدخلهم رواقا يحف به من الجانبين حوضان مزروعان بأعشاب ونباتات مختلفة الألوان .. وفى نهاية ذلك الرواق ، باب يؤدى الى حديقة تشرف على البحر ، والمنزل

كله على مرتفع أشبه بتل كبير

فلما وصلوا الى آخر الرواق ، دخل الخادم بابا صغيرا عن يمينه وصل منه الى مكتب الدكتور وأخبره بمجئ الضيوف ، ثم سار فى طرقة أخرى الى اليسار مرصوفة بالرخام يصل منهـا الى باب المنزل الحقيقى وأخبر زوجة الدكتور ، فخرج الدكتور واستقبل الباشا ودخل به الى مكتبه ..وجاءت زوجته واستقبلت فدوى بالترحاب كأنها تعرفها من زمن بعيد ، وأمرت بعمل القهوة وسائر تحيات الترحاب ، وبعثت الى بناتها وعرفتهن اليهـا ، فشاركن والدتهن فى الترحيب بها ومؤانستها حتى كادت تنسى هواجسها ..

وأمر الدكتور باحضار القهوة والنرجيلة للباشا ، وجلسـا يتبادلان الأحاديث . وكان الدكتور يرتدى فوق بذلته الافرنجية عباءة سوداء من ملابس البدو ، وعلى رأسه بدل القبعة «عراقية» من المخمل الأزرق مزركشة بالقصب تتدلى منها طرة من القصب

ومضى نصف النهار دون أن يشعر الباشا لاستئناسه بمضيفه ، ثم تنبـه الى ذلك فاستأذن فى الانصراف ، ولكن الدكتور لم يتركه حتى تناول معه الغداء ، بينما أعدت مائدة أخرى للسيدات احتفاء بفدوى ..

وقال الباشا للدكتور وهما جالسان على المائدة : « اعذرنى اذا تطفلت فى سؤالك عمـا رغبك فى عادات الشرقيين والتخلق بأخلاقهم .. »

فقال الدكتور : « تلك عادتى فى سائر أيامى ، فانى جئت الى هذه الديار واتخذتها وطنا لى ، وأحببت أهلها محبتى لأولادى ، ولا أنسى محبتهم لى واكرامهم .. »

ثم سـأله الدكتور عن صحة فدوى ، فأخبره بأنها تحسنت قليلا .. فقال الدكتور :

ـ اذا كان منزلنا يفيدها ، فاننا نرحب باقامتها معنا اذا شاءت

فأثنى الباشا على كرمه ، واعتذر عن عدم استطاعته ذلك

وبعد تناول الغداء وشرب القهوة ، استأذن الباشا فى الانصراف فودعه الدكتور ، وودعت زوجته فدوى بحرارة

وبينما كانت العربة تسير بهم بالقرب من مدرسـة طبية فى الطريق الى الفندق ، جمحت الخيل .. وعبثا حاول السائق حملها على المسير ، فهبط الباشا وفدوى منها ، وأرسـلا بخيتا ليحضر لهما عربة أخرى ، ثم أخذا يتمشيان فى الطريق أمام المدرسة حتى يعود بخيت اليهما بالعربة ..

وفيما هما يتمشيان أمام سور المدرسـة ويتأملان فى بنائهـا الجميل المشرف على البحر ، أمطرت السماء على غير انتظـار ، فاضطرا الى دخول المدرسـة لوقاية أنفسهما من المطر ، ووقفا هنـاك ينتظران مجىء بخيت بالعربة ، فجاءهما البواب بمقعدين فجلسا عليهما ..

ومضت ساعة دون أن يعود بخيت ، ثم حان موعد الانصراف من المدرسة فاذا التلاميذ والأساتذة يخرجون أفواجا . وسمع

الباشا قعقعة عجلات عربة خارج الباب ، فظن أنها العربة التى ذهب بخيت لاحضارها ، فخرج ليتحقق من الأمر .. فوجد بالقرب منها أحد أساتذة المدرسة وهو شيخ يرتدى الملابس الافرنجية أشيب الشعر ، كثيف شعر اللحية ، على عينيه النظارات ، فحياه فرد التحية مرحبا به وسأله عن غرضه ، فأخبره بما كان ، فقال :

ــ ربما يتأخر رسولكم أكثر من ذلك ، اذ لابد له من الذهاب الى المدينة لاحضار عربة .. وهذه هى عربتى تحت أمرك ..

فشكره الباشا على أريحيته ، وقبل هذه المكرمة بعد الحاح ولم يكن الدكتور قد شاهد مع الباشا أحدا سواه ، ولذلك كان يريد الركوب معه ، فلما رآه ينادى ابنته امتنع عن الركوب معهما ، فركب الباشا وابنته وقال للسائق :

ــ توجّه بنا الى فندق بسول على البحر

والتفت الى الدكتور شاكرا ، فسارت العربة حتى بلغا الفندق ، فلم يجدا بخيتا هناك ، فقلقا عليه .. ولكن صاحب الفندق طمأن الباشا وقال له : « لعله ضل الطريق ، ولا يلبث أن يعود » ..

انقضى اليوم كله دون أن يعود بخيت ، فقضى الباشا وفدوى ليلتهما قلقين عليه ، فلما كان الصباح جاء أحد خدم الفندق يدعو الباشا الى مخاطبة شرطى جاء يطلبه ، فخرج فاذا أحد رجال الشرطة وبيده ورقة ، فلما تلاها عرف منها أن بخيتا فى سجن البوليس رهن التحقيق ، فلبس ثيابه وسار مع الشرطى الى دار

انبوليس قرب حديقة الحميدية ، فلما دخل على المــأمور وقف له احتراما وأجلسه بجانبه ، ثم قال له :

ــ ان خادمك وأحد المصريين تشاجرا أمس ، وجيء بهما الى المخفر ..

ثم أمر باحضارهما فحضرا .. فاذا المصرى الذى تشاجر معــه بخيت هو عزيز ..

وما أن وقعت عين عــزيز على الباشــا حتى أكب على يديه يقبلهما ، وقال : « عفوا ياسيادة الباشا ، لقد لقيت خادمكم هذا مساء أمس وهو مسرع نحو المدينة ، فناديته لأسأله عن سيادتكم فلعننى وأهاننى ، وسمعنا رجال الشرطة فقبضوا علينــا وساقونا الى السجن » ..

فقال الباشا : « لعله لم يعرفك ؟ » وهنا صاح بخيت قائلا : « كلا ياسيادة الباشا .. بل عرفته ، ولولا ذلك ما أهنته .. »

فقال له الباشا : « اسكت يا بخيت ، لقد جئت الآن لأصلح بينكما وأخرجكما من السجن »

ثم قال الباشا للمأمور : « لقد تصالحا لأنهما من بلد واحد ، وكلاهما من خاصتى ، وأرجو أن تأمر باطلاق سراحهما »

فقال المأمور : « ليكن ماتريد سيادتك » .. وأمر بالافراج عنهما ..

وعاد الباشا الى الفندق وهما معه ، وفى الطريق رحب بعــزيز وسأله عن سبب مجيئه ، فقال : « يعلم الله ياسيادة الباشا أنى لم

يهدأ لى بال منذ برحتمونا ، ولم أر سبيلا للاطمئنان الا بالمجىء الى هنا ومشاهدتكم ، فعسى أن تكون فدوى هانم بخير .. »

فقال الباشا : « انها بخير والحمد لله » .. ثم سأله عن مكان نزوله ، فقال : « لم أختر مكانا بعد ، وقد قيل لى : ان هـذا الفندق من أفضل فنادق بيروت ، وقد وضعت أمتعتى فى مقهى بقرب الميناء على أن أعود لأخذها بعد الاهتداء الى منزل مناسب ، فالتقيت بخادمك وحدث ماحدث »

فقال الباشا : « سنبعث من يأتى بالأمتعة الى هنا .. »

وكانت فدوى فى انتظار عودة أبيها ، فلما سمعت صوته فى الدهليز المؤدى الى غرفتها فتحت البـاب لاستقباله والاستفهام عن بخيت ، فوقع نظرها على عزيز فارتعدت فرائصها وخفق قلبها واتقدت النار فى صدرها ، فعادت الى الحجرة ، وأغلقت وراءها الباب ، وألقت بنفسها على المقعد خائرة القوى من شدة الغيظ والتأثر ..

وقد أدرك أبوها ما بها ، ودخل عليها ومعه بخيت ، فأسرع هذا الى تقبيل يدها وقال لها :

ـ معذرة ياسيدتى .. انها حادثة عرضت وانقضت بسلام

قال ذلك وهو يضـغط على أسنانه ، فأدركت فدوى أن فى المسألة سرا ، فصبرت ريثما تخلو اليه وتعلم ماهناك

وجلس الباشا يقص القصة عليها وهى مصغية ، حتى وصـل الى ذكر عزيز ، فامتقع لونها ، وظهرت عليها أمارات الغيـظ ،

فلاحظ ذلك منها وقال ضاحكا : « ما الذى أغاظك من حديثى ياحبيبتى ؟ .. »

قالت فدوى : « لم يغظنى شيء ، وانما عجبت لهذا الاتفاق »

فقال الوالد : « انه اتفاق عجيب ، والرجل قد جاء من مصر غيرة علينا ، وقد سألنى عنك كثيرا » . فازدادت فدوى غيظا حتى لم تعد تستطيع اخفاء مابها فقالت : « وما الذى حمله على تفقد من لم يخطر لهم على بال .. »

فضحك أبوها وقال : « ألا تزالين حاقدة عليه ياعزيزتى ؟.. »

قالت فدوى : « نعم يا أبى .. ولن أزال كذلك مابقيت على قيد الحياة .. »

فقال الوالد : « يا للعجب ، لقد عهدتك كريمة لينة الجانب ، لا تحملين لأحد حقدا ، وهذا الفتى لم نر منه بعد تلك الحادثة المشئومة الا كل اخلاص ومحبة .. »

فازداد اضطرابها لتذكرها شفيقا .. وأرادت أن تتكلم ، فلم تستطع ، فألقت بنفسها على الفراش وغلب عليها البكاء

فحاول أبوها اسكاتها فلم يستطع ، فاغتاظ منها ونسى محبته لها وانتهرها قائلا : « كفى يافدوى كفى ، ألا تزالين مشغوفة بحب الأموات ؟.. »

فلم تزدد فدوى الا بكاء وعويلا ، فتركها وخرج غاضبا مغلقا وراءه الباب ..

وبعد قليل دخل عليها بخيت وقال لها : « لا تخافى ياسيدتى .

وطيبى نفسا ، فلعل وقت الفرج قد حان .. وقد قيل :

ضاقت .. فلما استحكمت حلقاتها

فرجت وكنت أظنهـا لا تفـرج »

فالتفتت اليه مندهشة ، وقالت له : « هل عندك خبر جديد ؟ »

قال بخيت : « نعم .. عندى خبر جديد ، ولكنى لا أخبرك به الا متى سكن روعك وأصغيت الى ما أقول »

فمسحت فدوى دموعها وقالت .. « هأنذا قد أصغيت ، فقل ما الخبر ؟.. »

فقال بخيت : « ان هذا الخائن اذا بقى على قيد الحياة الى الغد فلن يبقى الى ما بعده ، ولو ساعدتنى الأقدار لسقيته كأس المنون أمس .. ولكن ابشرى ، فسوف أذيقه تلك الكأس ان عاجلا أو آجلا . وأما الأهم من ذلك ، فهو أنى عرفت شيئا جديدا يختص بالدبوس .. »

فقالت فدوى : « قل .. ماذا عرفت ؟.. »

قال بخيت : « قد عرفت أنه دبوس سـيدى شفيق ، وعرفت الرجل الذى جاء به وهو طباخ فى هذا الفندق .. »

قالت فدوى : « وماذا قال لك عن شفيق ؟.. »

قال بخيت : « أكد لى أنه لم يكن مع حملة هيكس باشا .. بل .. »

فانتفضت فدوى من الفرح ، وهزت بيدها كتف بخيت قائلة : « وأين ذهب اذن ؟.. »

قال بخيت : « ذهب ياسيدتى فى مهمة سرية الى الأبيض »
فأخذت فدوى تثب فى أرض الغرفة كأنها أصيبت بمس من الجنون وهى تقول : « شفيق لم يمت فى الحملة ؟.. آه يا شفيق هل أنت حى ؟.. »
فقال بخيت : « اجلسى ياسيدتى لأحدثك عن كل ما سمعت »
فجلست فدوى وقص عليها الحكاية كما سمعها .. ثم قال لها : « على أنى أرى أولا أن أقتل هذا الخائن ، ثم أقول لك ماذا فعل بعد ذلك .. »
فقالت فدوى : « أقتله لابارك الله فيه ، ولكن .. » . وسكتت
فقال بخيت : « ولكن ماذا ؟.. انه يستحق القتل حرقا لأنه خائن غادر » ..
فقالت فدوى : « لا يابخيت ، لاتقتله .. ان شفيقا أوصى بأن لا نقتله ، فهل نخالف الوصية ؟.. »
فقال بخيت : « كيف لا نقتله وقد فرح عندما سمع بمقتل شفيق ، ألم يكتب اليك يوم سمع مذبحة هيكس باشا يقول : من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى ؟.. »
فقالت فدوى : « ان أخلاق شفيق لتأبى قتله مع ذلك ، والأمر الجدير بالاهتمام الآن هو البحث عن شفيق ، واذا ساعدتنا الأقدار على لقائه فانى أصفح عن هذا الخائن اكراما له »
وفيما هما فى الحديث ، سمعا وقع أقدام فعرفا أن الباشا قادم وتظاهرا بالسكون ، فلما وصل الباشا رأى ابنته حمراء العينين

فازداد غضبه وأمر بخيتا بأن يخرج ، ثم نظر اليها شزرا ولحيته تنتفض في وجهه ، ويداه ترتعشان وقال : « ما هذا يا فدوى ؟.. هل تريدين أن تلبسيني ثوب العار في هذه الديار ؟.. »

فقالت فدوى : « حاشا وكلا يا أبي .. لا ألبسك الله عارا أبدا»

قال الوالد : « لماذا اذن تخالفين أمري وتنقادين الى أمل لن يتحقق ؟.. »

فقـالت فدوى : « لا تقل هـذا يا أبتاه ، فانك بذلك تزيد أشجاني وتهيج أحزاني .. »

قال الوالد : « هل تزالين تؤملين عودة الأموات الى الدنيا ؟ »

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت : « لا تقل أن شفيقا مات يا أبتاه ، بل قل انه حي يرزق باذن الله .. »

فقال الوالد : « هل اذا قلت ذلك يقوم من بين الأموات ؟ »

فقالت فدوى : « ان الله على كل شيء قدير ، وهب انه لاسمح الله غير حيّ فماذا تريد مني ؟ .. »

قال الوالد : « أريد أن تطيعي أوامري .. »

قالت فدوى : « اني لا أزال ابنتك المطيعة البارة ، ولكن .. »

فقاطعها وانتهرها قائلا : « هيا اغسلي وجهك ودعي عنك تلك الهواجس فانها مجلبة للسقم..ولا تعلقي آمالك بحبال مربوطة في الهواء ، فقد سمعت بأذنك عندما سألنا شفيقا عن مذهبه ووطنه انه لايدري هل هو مسلم أم غير مسلم .. ولا هو من الشام أم

من مصر ، فافرضي انه حي .. فهو ليس من أمثالنا ، ولا ينبغي أن تتعلق به آمالنا .. »

فوقع هذا القول على قلب فدوى وقوع السهم ، ولم يزدها الا ولعا بشفيق .. لكنها نهضت وغسلت وجهها ، وهي تعرف ما يضمر أبوها ، وقد أغضت عنه تخلصا من القيل والقال ، وأضمرت الاصرار على عزمها مهما لقيت في سبيل ذلك من صعاب

— ١٢ —

حصار الخرطوم

عاد الباشا الى غرفة الاستقبال بالفندق ، فنهض عزيز لاستقباله احتراما له .. وحينما رآه منبسط الوجه استبشر بتحقيق أمنيته، ولكنه لم يجرؤ على مخاطبته في ذلك

ولم يملك الباشا اخفاء عواطفه ، فقال : « يلوح لي أنها لا تنفك ، وان كانت لا تزال تذكر ذلك الشاب .. »

فقال عزيز مراوغا : « لا يمكننا تعنيفها على ذلك لأن محبته تمكنت من قلبها .. لكنه مات وا أسفاه ، فعلينا أن نسعى الى تعزيتها وتسليتها حتى لا تضار صحتها .. »

فقال الباشا : « لقد نطقت بالحق.. اذ لافائدة من محبته ، وقد صار في عداد الأموات ، لكنى لا أعلم كيف أجعلها تبغضه ؟.. »

فقال عزيز : « عندى طريقة تريحنا جميعا ، فهل أعرضها على سيادتك ؟.. »

قال الباشا : « قل ماشئت .. »

قال عزيز : « قرأت فى بعض المجلات العلمية عن علم حديث يقال له « علم التنويم المغناطيسى » يستخدمه بعض الأطباء لتنويم المريض صناعيا ، ثم يسألونه خلال نومه هذا عن مرضه فيشرح لهم حقيقته وعلاجه شرحا وافيا ، وهم يؤكدون أن النائم بهذه الطريقة يتنبأ بالغيب أيضـا ، كما يؤكدون أن الطبيب المنوم يتسلط حينـذاك على ارادة المريض النـائم بحيث يجعله بعد يقظته يفعل ما يأمره به أثناء نومه .. فاذا قال له وهو نائم : اذا صحوت ، فابغض فلانا أو أحب فلانا .. فعل ذلك من تلقاء نفسه دون أن يعلم السبب » ..

فقال الباشا : « وهل يخضع كل انسان لسلطان المنوم ؟.. »

قال عزيز : « لا .. ولكن النساء أكثر تأثرا به من الرجال ، ولا سيما العصبيات منهن »

قال الباشا : « اذن تكون فدوى صالحة لذلك التنويم ، ولكن على من نعتمد فى تنويمها هنا ؟.. »

قال عزيز : « ان الذين يعرفون هذا العلم هنا قليلون ، وفى استطاعتنا أن نسأل عنهم أحد كبار الأطباء »

فقال الباشا : « لقد عرفت هنا طبيبا من أشـهر أطبـاء هذه المدينة وأمهرهم ، وهو خير من نسأله فى ذلك ، وهو الدكتـور (ن) .. »

فخشى عزيز أن يعرقل هـذا الطبيب مساعيه ، اذ قـد تمنعه

استقامته عن استخدام التنويم للغاية التى يريدها ، فقال :

ــ ان هذا الطبيب على شهرته لايستطيع التنويم ، لأنه شيخ طاعن فى السن .. ولابد للمنوم من أن يكون شابا قوى البنية ، لكى يمكنه التسلط على من ينومه ، فاذا شئت فانى أبحث عن طبيب آخر يصلح لذلك ...

فقال الباشا : « لابأس من ذلك ، وأرجو أن يوفقك الله .. »

فسر عزيز لنجاح مسعاه ، ثم نهض مستأذنا ليذهب ويأتى بأمتعته الى الفندق ، فأذن له الباشا وهو ليس أقل منه فرحا باعادة الامل فى مصاهرته ، طمعا فى ثروته الكبيرة ..

لبثت فدوى بعد خروج أبيها تفكر فى أمرها وتدبر وسيلة لنجاتها ، ثم جاءها بخيت فأخبرته بما كان من أبيها فكاد يتميز غيظا ، وقال لها :

ــ مالنا ولهم .. مادمت أنت محافظة على عهد سيدى شفيق فلا نخشى شرا باذن الله ، وقد دبرت وسيلة للبحث عنه

فقالت فدوى : « وماهى هذه الوسيلة ؟.. »

قال بخيت : « اتفقت مع عبود الطباخ على أن يذهب الى السودان ويأتينا بالخبر اليقين فى أسرع وقت ممكن . وقد دفعت اليه بعض النقود سلفا ، ولم أخبره بحقيقة الأمر ؛ اكتفاء بأن أعطيه كتابا يوصله الى سيدى شفيق حيثما يجده هناك .. »

قالت فدوى : « ولكن أين يبحث عنه فى السودان ؟ »

قال بخيت : « سيذهب أولا الى مدينة الخرطوم التى ذهب اليها غوردون باشا مؤخرا » ..

قالت فدوى : « أحسنت يابخيت .. بارك الله فى وفائك .. »

وكان عبود الطباخ قد عثر على صورة شفيق ، فحفظها معه ليتذكره بها ، فلما طلب اليه بخيت الذهاب فى تلك المهمة استبشر بالفوز ، وأخذ يعد معدات السفر ، بعد أن ألح على صاحب الفندق فى أن يبيع الدبوس لبخيت ، فباعه اياه بضعف ثمنه ، ولبث عبود فى بيروت حتى سلمه بخيت الكتاب المطلوب توصيله الى شفيق ، وقد كتبته فدوى وقالت فيه :

« الى شقيق الروح ومنى القلب :

« أكتب اليك هذا الكتاب من بيروت ، غير عالمة بمحط رحالك ، وكلى أمل أن تسمح الأقدار بالاطمئنان عليك فأنسى ماقاساه فؤادى من العناء والألم بعد طول الفراق .. وكنت قد يئست من بقائك فى عالم الأحياء حتى ظفرت بناقل هذا اليك فقص على قصة جددت آمالى ، وأحيت ما بقى فى من رمق الرجاء ، فاذا تحقق لى هذا الأمل فلا يكون على وجه هذه البسيطة من هو أكثر سعادة منى ، والا فالموت خير لى من معاناة الحزن الذى كاد يذهب برشدى بعد أن ذهب بصحتى ، كما أن فيه خلاصى من شر الوقوع فيما نصبه لى ذاك الذى لم ترض الاجهاز عليه ، فتركته يتبعنى حيثما توجهت وينصب لى الشراك

حتى أوغر قلب أبى علىّ ، وحمله على تهديدى ومحاولة ارغامى على قبوله ..

« فاذا وصل اليك كتابى هـذا فبادر الى انقاذى من مخـالب الموت والعار ، هذا اذا بقيت على قيد الحياة حتى وصولك .. والسلام ..

فندق بسول بيروت أول مايو سنة ١٨٨٤ ..

الباقية على عهدك : فدوى

وما تسلم عبود الكتاب حتى غادر بيروت الى مصر فى احدى البواخر ، ليستقل منها سفينة نيلية الى الخرطوم ، وذلك لعلمه ان طريق سواكن قد قطعت لاستفحال أمر عثمان دقنا فيها ، فلما وصل الى القاهرة ركب القطار منها الى أسـيوط ، ومن هنـاك اكترى جملا خفيفا ركبه وسـار به على البر الغربى فى عطمور الأربعين قاصدا دنقلا ، ومديرها يومئذ ياور بك ، فوصل اليها فى أواخر يونيو .. ووجد أهلها فى هرج ومرج واستعداد للحرب ، وعلم أنهم سائرون لمقاتلة الدراويش فى الدبة

وكان عبود يظن أن الطريق الى الخرطوم آمنة فلما سمع هذا الخبر وقع فى حيرة . ثم أخذ يطوف فى الأسـواق حتى دخـل « وكالة » شاهد فيها بعض التجار السوريين فتقرب من أحدهم ، وتحقق منه أن الطريق من هناك الى الخرطوم لايمكن السير فيها مخافة خطر الدروايش ، كما أن الخرطوم نفسها فى حصار شديد

وفيمـا هما فى الحديث اذا بجماعات من الجنـد يسـيرون

بأسلحتهم ، وخلفهم فارس نحيف الجسم قصير القامة يرتدى الجبة والقفطان ، وحوله جماعة من الحشم ، فسأل عنه التاجر فقال :

ــ انه مصطفى ياور بك ، وهو خارج مع رجاله لمقاتلة العصاة فى الدبة ، فعسى أن ينتصر عليهم لأنه رجل من الأولياء الأتقياء ، اذا أطلق عليه الرصاص لا يخترق لحمه ، واذا سار الى حرب لا يحمل من السلاح الا حربة قصيرة فى يد ، وسبحة فى اليد الأخرى ، ولا يكف عن الصلاة والدعاء ماطالت المعركة ..

وكان التاجر قد استأنس بعبود لأنه غريب مثله فدعاه الى الاقامة بمنزله حتى ينجلى الأمر فقبل شاكرا ، وذهب معه الى منزله فى المساء فاذا هو بيت مبنى بالطين ، وبابه من الضيق بحيث لايدخله الانسان الا ساجدا ، فبات ليلته هناك بعد أن تناول العشاء ، وظل فى ضيافة الرجل بضعة أيام حتى وصلت الأخبار بانتصار ياور بك على العصاة ، فظن أن هذا الانتصار كاف لاخماد الثورة وفتح الطريق الى الخرطوم ، ولكن مضيفه أشار عليه بأن يتريث قليلا ، وقال له :

ــ لقد علمت أن الحكومة الانجليزية أمرت بارسال حملة الى الخرطوم لانقاذ غوردون ، وستمر هذه الحملة بدنقلا فتسير معها ..

قال : « ولكنى لا أستطيع صبرا حتى تجىء الحملة ، ولابد من سفرى الى الخرطوم من أقرب طريق اليها »

فقال : « اذن تسير اليها من الطريق الجنوبى فى الصحراء » . ثم أحضر له جملا ركبه ، ومعه ثيابه وأوراقه كلها فى حصير صغير من صنع السودان . وودعه حتى أول الطريق ، وعاد وهو يدعو له بسلامة الوصول ..

وسار عبود حتى بعد عن دنقلا بمسيرة يوم ، وهو ما زال فى الصحراء ، ثم أدركه جماعة من الدراويش فسلبوه ثيابه وكل متاعه ، ولم ينج من الموت الا بأعجوبة ، فعاد الى دنقلا وقد فقد الصورة والكتاب فى جملة الأمتعة ، فلما رآه التاجر السورى وعلم بما حدث له أخذ يعزيه وأشار عليه بأن ينتظر مجىء الحملة فيسير برفقتها كما أشار عليه من قبل ، فلم يجد بدا من العمل بمشورته ..

لبث شفيق فى الأبيض ينتظر الفرج من عند الله ، حتى اذا كان ذات صباح علم أن المهدى أمر باستعراض جيشه استعراضا عاما ، فذهب لمشاهدة الاستعراض فى الساحة المتسعة خارج البلدة .. وهناك رأى الجنود واقفين بأسلحتهم ، ثم جاء المهدى وخلفاؤه وأمراؤه ، فصلى بهم جميعا .. ثم ألقى خطبة حثهم فيها على الجهاد والسير لمحاصرة الخرطوم ، بدأها بقراءة الفاتحة ، ثم أخذ يغرى الناس بالقتال والاستشهاد ، فلما أتم خطبته أخذ الدراويش فى الدعاء والتكبير وقد هاجت عواطفهم ، ثم أخذ فى استعراضهم ، وأمرهم بالسفر الى منطقة الخرطوم لنصرة الدراويش المحاصرين لها .. ثم عاد الى مجلسه بعد أن أسند قيادة

الحملة الى الأمير ولد النجومى ، على أن يتولى هو القيادة العامة بعد وصوله الى هناك

وكان من قواد المهدى فى حصار الخرطوم الأمراء : أبوجرجة ، وولد البصير حمد المهدى ، والأمير الفضل ، والأمير عبد القادر ولد أم مريم ، والأمير مصطفى بن الفقى الامين ، وشيخ الابيض ، وغيرهم ..

وعلم شفيق من رفيقه حسن انه دبر له أمر السفر مع هذه الحملة فى صحبة ولد النجومى بصفته أحد الكتبة ، فسر لذلك كثيرا وشكره ، كما علم منه أن عدد جنود الحملة عشرون ألفا ، وأن معظم الدراويش محيطون بالخرطوم وأم درمان .. وقد بدأوا الحصار منذ عودتهم من وقعة هيكس ، أى قبل أن يأتى غوردون الى السودان ، فسأله :

ــ هل أنت ذاهب معنا الى هناك ؟

فأخبره بأنه لم يتلق أمرا بذلك بعد ، وهنأه بهذا السفر لأنه سيكون قريبا من بلاده ، وربما أتيح له الخروج من معسكر الدراويش ودخول الخرطوم فيصبح فى حمى الحكومة المصرية

ففرح شفيق بذلك اذ رأى فيه بابا للفرج ، وذهب الى حجرته وأخذ فى الاستعداد ، ثم سافرت الحملة فى اليوم التالى يتقدمها الفرسان وفيهم الأمراء ، ثم المشاة ، وجميعهم يرتدون ملابس الدراويش ، وخلف الجميع النساء والأولاد

وكان شفيق قد اعتاد طعام الدراويش ، وكانوا يقصرونه فى

السفر على الذرة اليابسة ، فيحمل كل منهم جرابا فيه قدر من الذرة ، يأكل منه شيئا كلما جاع .. وقليلون من كانوا يحملون ماء ، ولو كان طريقهم فى الصحراء لأنهم يصبرون على العطش

ومازالت الحملة سائرة فى البر .. تمر تارة بصحراء ، وطورا بغابات ، وأخرى فى جبال ، حتى وصلوا الى جوار الخرطوم ، فبعث ولد النجومى الى رجال المهدى فى المناطق المجاورة فأخذوا فى الاجتماع من سائر الجهات ، حتى زاد عددهم على مائة ألف ، ففرقهم فرقا وأرسل كل فرقة الى مركز فى جوار الخرطوم

والخرطوم تقع عند ملتقى النيلين : الأزرق ، والأبيض ، اللذين يتكون منهما النيل ، ويحدها من الشمال النيل الفاصل بينها وبين الجزيرة والبر الآخر ، ومن الغرب النيل الأبيض ، ومن الجنوب سور موصل بين النيلين . وكان شفيق قد شاهد ذلك السور حينما مر بالخرطوم فى المرة الماضية ، ولكنه علم عند وصوله هذه المرة أنهم حفروا حوله خندقا كبيرا فى غيابه حتى أصبح منيعا .. وهو قائم على مسافة من المدينة ، وبينهما فضاء

وشدد ولد النجومى الحصار على الخرطوم ، فبعث فرقا من رجاله الى البر المقابل لها من الشمال ، وفرقا الى البر الآخر المقابل لها فى الغرب ، وبقى هو فى فرقته وراء السور بالقرب من محلة يقال لها (كلاكلا) .. كما شدد الحصار على أم درمان فى البر الغربى مقابل الخرطوم ، حتى أصبح غوردون وأهل الخرطوم فى ضيق عظيم .. وقد استبد بهم الجوع وتملكهم الخوف

وعلم شفيق من استطلاع أحوال أهل الخرطوم أنهم فى ضيق ، وأنهم ينتظرون نجدة من انجلترا لانقاذهم ، ثم مضى حوالى ثلاثة أشهر ولم تأت تلك النجدة ، حتى يئس أهل الخرطوم ، وقلت رغبة شفيق فى الفرار اليها خوفا من أن يفر من بلاء فيقع فى أعظم منه ، ويكون عرضة للقتل اذا ظفر المهدى بالمدينة

وبعد قليل جاء المهدى من الأبيض وانضم الى جنوده فى الخرطوم فأصبحت قوة المهدويين عظيمة ، حتى لم يعد عند شفيق شك فى سقوط المدينة اذا لم تأت النجدة المنتظرة ، واستشار صديقه السورى ، وكان قد جاء الى هناك ، فى أمر الفرار الى الخرطوم ، فضحك حسن قائلا : « والله لو آنست من الفرار نفعا لكنت أول الفارين ، ولكننى أؤكد لك أن الخرطوم لا تستطيع المقاومة طويلا لأنها فى ضيق من قلة المؤن كما قد علمت ، فالأفضل أن تكظم ما بك لنرى ماذا يأتى به الغد »

فصبر شفيق على مضض .. وفيما هو جالس يوما يفكر فى حاله ، جاءه حسن ضاحكا وقال له : « ما الذى يهمك الآن فى هذه الغربة ؟ .. »

قال شفيق : « يهمنى أن أعرف ماحدث لأهلى .. »

فقال له حسن : « ان الرسول قد عاد من القاهرة ، فهيا اليه لمقابلته .. »

فكاد شفيق يطير من شدة الفرح ، ومضى معه الى الرسول ، فقال له هذا : « لقد سألت عن أبيك فى قنصلية انجلترا ، فعلمت

أنه باع أمتعتـــه وهاجر من الديار المصرية ، ولا يعلم أحــد أين توجه ، فذهبت الى منزل الباشا فقيل لى : انه هاجر هو الآخر الى الشام ، ولكن زوجته مازالت بالمنزل ، فدفعت اليها الكتاب ولم تعطنى جوابا .. »

فأخذ شفيق يندب سوء حظه ويبكى حزنا على والديه ، وعلى حبيبته فدوى ..

وأخبرهما الرسول ان الحكومة الانجليزية أعدت حملة لانقاذ غوردون باشا والخرطوم ، فتشاوروا فيما يعملان ، واستقر رأيهما أخيرا على الصبرحتى تأتى الحملة الانجليزية

— ١٤ —

وقعة أبى طليح

علم المهدى بعد أيام بوصول الحملة الانجليزية الى كورتى ، وأنها عازمة على مواصلة السير فى صـــحراء البيوضـــة الى المتمة وشندى ومنها الى الخرطوم ، فبعث بعض رجاله بقيادة موسى ولد حلو ،وأبى صافية ليقطعوا عليها الطريق عند آبار أبى طليح وراء المتمة ، ويمنعوها من الوصول الى النيل

وفى اليوم العشرين من شهر يناير ، سمع شفيق اطلاق المدافع فى معســـكر المهدى ، فعجب لذلك اذ لم يكن هناك ما يوجب ذلك ، وهم بعيدون عن الخرطوم ، والدراويش ليسوا فى حال حرب ، فسار الى صديقه حسن .. وفيما هو فى الطريق اليه مر

بجماعات من الدراويش ، فى أيديهم قبعــات وثيــاب انجليزية فأوجس خيفة من أن يكونوا قد ظفروا بالحملة الانجليزية

فلما وصل الى صديقه سأله عن السبب ، فقال له :

ـ ان المهدى علم بانكسار رجاله فى أبى طليح والمتمة ، فأراد أن يوهم من معه خــلاف ذلك ، فأمر باطلاق مائة مدفع ومدفع علامة النصر ، وجاءهم بتلك القبعات والثياب على أنها بعض الغنائم ، وقد سمعت انه جمع خلفاءه والمقربين اليه من الأمراء فى هذا الصباح للمشورة .. وفى المســاء نعلم ما يكون من أمر اجتماعهم » ..

فقــال شــفيق : « كيف يمكنك أن تعرف ذلك اذا كانت المشورة سرية ؟.. »

قال حسن : « ان لى من بينهم صديقا حميما لا يخفى علىّ شيئا ، فاذا أتيتنى فى صباح الغد أخبرك بما تم .. »

وفى الصــباح التالى جاء شفيق ، وقد عزم على الفرار من معسكر المهدى الى الخرطوم . فلما التقى بصديقه حسن استطلعه الخبر ، فقال له : « اجلس لأخبرك بما تم فى اجتماع أمس .. »

فجلس شفيق ، وجلس حسن بجانبه وقال :

ـ لقد اجتمع المهدى أمس بخلفائه والمقربين من رجاله ، ولما استقر بهم الجلوس قرأوا الفاتحة ، ثم قال لهم المهدى : «جاءتنى الحضرة فى الليلة الماضية ، وقد جمعتكم لأقصّ عليكم ما قاله لى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أمرنى بالهجرة الى الأبيض ؛ لأن

الانجليز قوم لانستطيع قتالهم ، فاذا كان غوردون وهو فرد منهم قد دافعنا شهورا ، فكم يفعل الآلاف منهم وقد ظفروا برجالنا المحنكين فى أبى طليح ، أفلا يستطيعون أن يغلبونا هنا ؟ فوافقه الجميع ، ماعدا الأمير محمد عبد الكريم ، فانه عارض فى الهجرة قائلا : « الأحسن أن نهاجم الخرطوم فان ظفرنا بها فلا يعود الانجليز ولا غيرهم يستطيعون الوقوف أمامنا ، واذا ظفروا بنا فان الهجرة مستدركة » . وانفض المجلس على أن يعودوا الى الاجتماع مرة أخرى

فقال شفيق : « هاقد تحققنا من حبوط مسعى المهدى .. ولم يعد لدينا مايمنع من انحيازنا الى حامية الخرطوم »

فقال حسن : « ان لدى موانع تحول دون مرافقتى اياك الآن ، فسر أنت فى حراسة الله .. واذا قدر لنا الاجتماع ثانية فاننا لانفترق بعد ذلك .. باذن الله »

وعند الظهر انتهز شفيق فرصة اشتغال القوم بالصلاة ، وسار يريد باب المسلمية من أبواب سور الخرطوم .. فلما بعد عن معسكر المهدى رفع عصا عليها منديل أبيض ، فلما رآه حماة الخرطوم من السور علموا انه آت مسالما ، ففتحوا له الباب فدهش لما شاهده من متانة ذلك السور وعمق خندقه ، وكانوا قد حفروه أثناء غيابه ، ويبلغ عرضه نحو سبعة عشر مترا ، ويبلغ عمقه نحو عشرة أمتار ، فقال فى نفسه : « ان مثل هذه الحصون لايمكن أن يتخطاها الدراويش » . وسار به الحراس الى فرج

باشا قومندان الحصون ، وكان أسود اللون طويل القامة ، فلما رأى شفيقا فى ملابس الدراويش سأله عن أمره ، فقال له :

« أريد مقابلة غوردون باشا » . فأخذه وسار به الى المدينة حيث تقع سراى الحكومة على البحر الأزرق ويقيم بها غوردون ، فنظر شفيق الى جانبيه عند دخوله السور ، فاذا الجنود قد تفرقوا جماعات وأسلحتهم منصوبة على طول ذلك السور ، والرجال بين متوسدين خائرى القوى ، ومتضورين جوعا ، وقد علت وجوههم علامات الضعف واليأس ، فلما رأوا شفيقا استبشروا بمجيئه ، ظنا منهم انه انما جاء لمخابرة سرية ، ربما كان فيها خير لهم ، وكانوا يظنون ان المهدى بعد أن علم بمجىء الحملة الانجليزية أصبح راغبا فى الصلح والتسليم ، ولكنهم كانوا فى ريب من أمر المدافع التى أطلقت فى الليلة الماضية ، لعلمهم أن مثل ذلك العدد من المدافع لايطلق الا للانتصار ، فتقاطر جماعة منهم ينظرون الى شفيق ، وهم بين مصرى ، وسودانى ، وباشبوزق ، وغير هؤلاء .. فرأوا على وجهه امارات البشر ، وانه ليس على شاكلة رجال المهدى الا بملابسه ، فأحبوا أن يسألوه عن أمره ، فانتهرهم الضابط السائر بصحبته وأمرهم بالرجوع ، وكانوا قد وصلوا الى القشلاق فى وسط تلك الساحة فدخل بعضهم القشلاق ، وعاد الآخرون الى السور . أما شفيق فمازال سائرا حتى دخل المدينة فاذا هى قليلة الناس ، لتقلد أهلها السلاح واشتراكهم فى الدفاع ، ولم ير أسواقا مفتوحة ، ولا أحدا مارا

فيها ، ماعدا بعض الفقراء المتسولين فى الشـوارع يتضورون جوعا ، وشاهده أحدهم ، فلما رآه بملابس الدراويش والحراس بجانبه صاح به قائلا :

ــ أما تخافون الله وأنتم مسلمون ، كيف تمنعون عنا المؤن ؟ واذا كان صاحبكم مهديا حقا ، فكيف يستحل دم المسلمين ؟..

فضحك شفيق ولم يجب بكلمة .. ولكن قلبه كاد أن ينفطر لما شاهده فى تلك المدينة من حالة الضيق ، وخشى أن يثور بعض أهلها فيرميه برصاصة أو سهم

ولما وصلوا الى باب السراى سأل حراس شفيق عن الحكمدار فقيـل لهم : « انه سار لتفقد قلعـة بورى عند الطرف الشرقى للسور ، وربما يسير من هناك على محاذاة السور لتفقد حاميته ، ثم يتجه الى الغرب لتفقد قلعة موكران على ضـفة النيل غربى المدينة» .. فاضطر شفيق الى الانتظار هناك ريثما يعود الحكمدار حوالى الغروب للاجتماع بأعيان المدينة ، وأدخلوه غرفة جلس فيها ينتظر عودة غوردون ، فجلس يفكر فيما وصلت اليه حال حامية المدينة ، ويعجب لتأخر الحملة الانجليزية الى ذلك الوقت ، ولكنه قال فى نفسه : « ان الذين تحملوا الحصار سنين ، لا يصعب عليهم احتماله أياما قليلة »

وكان ينتظر الفرج القريب لأنه علم أن جيش المهدى خائف من الانجليز ، وعوّل على أن يطلع غوردون على مقاصد المهدى ، ثم تصور أنه نجا من تلك الأخطار وعاد الى القاهرة ، فاضطرب

فؤاده لتذكره ما آخبره به الرسول من سفر فدوى الى الشام للترفيه عن نفسها ، وخطرت صورتها على باله ، فمد يده الى جيبه ليخرجها ، ولكنه سمع وقع أقدام كثيرة ولغطا ، فأصاخ بأذنيه ، فاذا جماعة يسألون عن غوردون باشا وهم يتكلمون باللغة العربية ، والانجليزية ، والفرنسية ، فأطل من نافذة تشرف على صحن السراى فاذا جماعة من الأعيان يرتدى أكثرهم الملابس الافرنجية ، فتأملهم جيدا فعرف أكثرهم ، وفى جملتهم : المستر بور ، مراسل جريدة « التيمس » وكان قد جاء بصحبة حملة هيكس باشا وبقى فى الخرطوم بعد مسير الحملة ، والمدير أحمد على بك ، ونيقولا ليونتيدس قنصل اليونان ، وابراهيم فوزى بك ، وفتح الله جهامى أحد التجار السوريين وكان قد تقلد مصلحة النقل والحمل ، والدكتور نقولا بك مفتش صحة السودان العام .. وآخرون لم يعرفهم ، وسمعهم يتضجرون من تلك الحالة ، ويتذمرون فيما بينهم من ابطاء وصول النجدة . فعلم من مجمل حديثهم انهم آتون للمفاوضة فى وسيلة يصلون بها الى نتيجة ..

وفيما هو ينظر اليهم جاءهم رجل يرتدى ملابس رسمية ، علم من ملامح وجهه انه يونانى الجنسية ، وتأكد بعد ذلك انه جرياجس بك باشكاتب غوردون ، فاستقبل هؤلاء الأعيان وقادهم الى القاعة لينتظروا فيها مجىء الباشا

وعند الغروب علم شفيق بعودة غوردون باشا ، ثم رآه مارا

فى صحن السراى مطرقا عابسا ، لايلتفت يمنة ولا يسرة ، ورآه يهم بالصعود الى القاعة ، فابتدره وخاطبه بالانجليزية ، فالتفت بغتة فلم ير أحدا يرتدى ملابس الانجليز ، فناداه ثانية فنظر اليه فلم يتحقق من صورته لأن الظلام كان قد بدأ يسدل أستاره ، فوقف وسأله : « من أنت ؟.. »

قال شفيق : « انى من ضباط الجيش الانجليزى . فاختلج قلب غوردون لأن لفظ الجيش الانجليزى كان نصب عينيـه ، ليلا ونهارا وقد أقلق أفكاره ومل انتظـار مجيئه ، فتقدم الى النافذة وأمر باحضار مصباح النور فجىء به اليه فتأمّل الرجل فاذا هو يرتدى ملابس الدراويش ، ولكن لون بشرته غير سودانية فأمر باخراجه وأن يلحق به الى القاعة . وجلس الجميع هنـاك ينظرون الى شفيق متعجبين ، فابتدرهم غوردون باشـا قائلا : « لاتعجبوا لهذا الرجل وملابسه ، فانه حمل فى ثياب الذئاب» . ثم التفت الى شفيق وسأله : « ما اسمك ، وما الذى جاء بك الى هنا ؟.. »

قال : « اسمى شفيق ، وقد جاءت بى الى هنا الأقدار » . وحكى لهم الحكاية من أولها الى آخرها ، فلما وصل الى المدافع التى أطلقها العصاة ، ومادار بين المهدى وأمرائه ضرب غوردون الأرض بقدمه والتفت الى من حوله وقال :

ــ ألم أقل لكم ياسادة .. انهم لم يقصدوا بتلك المدافع الا ايهام رجالهم خلاف الواقع تشجيعا لهم ، وقد عرفت ذلك من

السيدة التى كنت أرسلها لاستطلاع أخبارهم ! .. »

فانقشع عن وجه الجالسين بعض العبوس .. وأخذوا ينظرون الى شفيق نظرتهم الى رجل جاءهم رحمة ، وجعلوا يسألونه عن حركات المهدى وقواته ، فأخبرهم بكل شىء ، الى أن قال :

ــ ان هؤلاء الدراويش على جانب عظيم من البسالة والاقدام، لايبالون الموت ، وهم متعاقدو الأيدى مرتبطو القلوب لا شىء يثنيهم عن القتال ، وهم ينزلون كلام المهدى منزلة الوحى ولا سيما اذا ادّعى (الحضرة) كما أخبرتكم . أما اذا صبرتم على قتاله ، فانه لايقوى عليكم لأنكم تعلمون مما قدمت انه فى خوف.. واذا لقى مقاومة شديدة يخور عزمه ويعود على أعقابه الى الأبيض » ..

فقال قنصل اليونان : «من لنا بالدفاع ، وأهل المدينة منتشرون فى الأسواق عشرات يتضورون جوعا ، وهل نلومهم اذا أرادوا الخروج الى العدو ، ان الحامية نفسها لا مؤونة عندها على ما سمعت » ..

فقال فتح الله جهامى :

ــ اننا لم نسمع بحصار مثل هذا الحصار ، ولا نفهم معنى لابطاء النجدة الى هذا الحد ، ونحن فى مثل هذه الحال من الضنك والخطر ..

ثم التفت ابراهيم فوزى بك الى غوردون باشا وقال :

ــ اننا جئنا للسؤال عن أمر الحملة ، فقد ضاقت نفوسنا

وخارت قوانا ، وهلكت نســاؤنا وأولادنا ، وضعفت ثقتنا .. وأصبحنا فى حال لم يصل اليها أحد من قبل ، ولن يصل اليها أحد من بعد ..

فالتفت اليهم غوردون باشا وعلامات التأثر ظاهرة على وجهه وقال لهم :

ــ ماذا تريدون منى ؟.. مرونى بما شئتم أنفــذ أمركم ، اننى أقسم لكم بشرفى انى لم أكذب فى شىء مما قلته لكم ، وانى لأفضل الموت على التصريح بغير الصدق ، كما انى على استعداد لأن أخلى لكم مكانى ليشغله من أراد منكم .. على أنى أؤكد لكم انه لن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعلت . وعلى كل حال ، أرى أننا صبرنا كثيرا ولم يبق الا القليل ، والحملة الانجليزية فى المتمة الآن ، وستكون هنا بعد يومين ..

وكان شفيق خلال ذلك الحديث ينظر الى غوردون ، فوجده حين نزع الطربوش عن رأسه ، قد خف شعره وشاب ما بقى منه ، وقطب وجهه ، وأسند خده الى كفه ، فساد الصمت حينا ، ثم وقف الجميع وانصرفوا ، وعاد غوردون بعد أن ودعهم الى القاعة ، فوقف له شفيق احتراما ، فنظر اليه ممسكا طربوشه بيده اليسرى وخاطبه ــ وقد أخذ منه الضجر كل مأخذ ــ قائلا :

« هل رأيت مثــل هذا الاهمــال ؟.. هاقد مـّر على أكثر من ستة أشهر ، وأنا أنادى بأعلى صــوتى ، مستنجدا أصحابنا فى لندن لانقاذ حاميات السودان .. وبعد أن شبعوا من المحاورة

والجدل فى برلمانهم قرروا ارسال النجدة ، ولكنى لا أظنها تصل قبل أن يصل الينا الموت .. فان أهل الخرطوم بعد أن كانوا يحترمون قولى احترامهم لكلام مقدس ، أصبحوا لايصدقوننى لكثرة ماوعدتهم وأخلفت ، اعتمادا على وعود أصحابنا فى لندن . فهل تصل تلك الحملة ونرى رجلا منهم فى الخرطوم ؟.. » ثم رمى بطربوشه الى المقعد ، وجلس مطرقا ويده فى جيبه ثم تناول « سيجارة » من علبة بجانبه وأشعلها ، وراح ينفث الدخان فى قلق ملحوظ .. فهاب شفيق غضبه ، ولبث صامتا حتى قال له غوردون ، بعد قليل : « فلندع المقادير تجرى فى أعنتها » . ثم أمر باحضار حلة ليرتديها شفيق بدلا من ثياب الدراويش ، ودعاه الى تناول الطعام ، فتناولاه ومعهما كبار الموظفين ، ولم يفه أحد منهم بكلمة

أمضى شفيق ليلة فى سراى الحاكم بالخرطوم ، وفى الصباح سأل عن غوردون فقيل له : « انه على سطح السراى يراقب حركات العدو بالمنظار » . وكان ذلك شغله فى معظم أوقات النهار ، فينظر تارة الى العدو ، وطورا الى النيل يترقب عودة البواخر التى أرسلها لملاقاة الحملة الانجليزية فى جهات شندى فلم يجرؤ شفيق على الصعود اليه ومخاطبته ، وعاد الى حجرته ثم خرج منها الى غرفة الاستقبال فوجد فيها بعض الكتب ، والجرائد الانجليزية .. فأخذ يتسلى بمطالعتها ريثما ينزل غوردون ، ثم لاحت منه التفاتة الى صورة فوتوغرافية بين

الجرائد والأوراق ، فما كاد يراها حتى خفق قلبه بشدة ، اذ وجد انها صورته التى أعطاها تذكارا لفدوى ، وقد أدرك ذلك من توقيعه عليها لأن الصورة كانت مقطوعة الرأس ، فأخذت ركبتاه ترتجفان ، وهو لايصدق انه فى يقظة . ثم جعل يفكر فيما جاء بالصورة الى ذلك المكان ، وفى قطع رأسها . وبقى واقفا مطرقا والصورة فى يده ، حتى سمع الجنرال غوردون يخاطبه مسلما فانتبه ، فاذا هو قد نزل من السطح والمنظار بيده ، فبهت شفيق ثم رد التحية حانيا رأسه احتراما ، ولكنه لم يستطع اخفاء ماكان فيه من الاضطراب والصورة لاتزال فى يده ، على انه تجلد خوفا من ظهور دلائل الوجد والغرام على وجهه ، لأنه ليس فى حال تتيح له ذلك ..

أما غوردون فحمل تلك المظاهر على خوف شفيق من سقوط الخرطوم بعد أن سمع ماسمعه بالأمس فابتدره قائلا :

ـ لاتجزع ياعزيزى ، ان قضاء الله سبحانه وتعالى لا مفر منه ويجب ألا تعوّد نفسك الخوف ، وأنت فى شرخ الشباب ..

فتجلد شفيق وحاول الابتسام ، ثم قال : « انى ياسيدى لا خوف علىّ ، طالما أنا والجنرال غوردون فى حال واحدة ، اذ لست أفضل منه » ..

فقال غوردون :

ـ ولكن ياولدى لايخفى عليك انى قد أمسيت شيخا وقد انقضت أيامى ، أما أنت فلاتزال فى أول حياتك ، وربما كانت

لك فتاة تود البقاء من أجلها

فعاد قلب شفيق الى شدة الخفقان ، ولم يمكنه الجواب لتلعثم لسانه .. ولما حاول الاجابة سبقته العبرات ، فظنه غوردون يبكى خوفا من وقوع القضاء ، فقال له :

ـ اعتبر يابنى بما يقاسيه الانسان من الأخطار فى هذا العالم وكيف يكتب الله نجاته منها

فتنهد شفيق تنهدا عميقا ، وأراد أن يسأل عن الصورة وسبب وصولها الى تلك الغرفة ، لكنه لم يجرؤ على اطالة الكلام ، لعلمه بأن الرجل مشغول بما هو أهم

وأخيرا جلس غوردون على المقعد وأشعل « سيجارة » آخذ ينفخ دخانها ويتلهى بتنفيض رمادها بأصبعه ، وينقلها من يد الى أخرى مكررا ذلك مرارا ، حتى أمست القاعة تعج بالدخان عجيجا ..

ومضت بضع دقائق وهما صامتان ، وغوردون كلما انتهت « سيجارة » أشعل غيرها ، وهو لايهدأ فى جلوسه لحظة . وفيما هما فى ذلك دخل جندى يقول : « ان بوردينى بك بالباب »

فقال غوردون : « دعه يدخل » .. فدخل الرجل وعليه الجبة والقفطان والعمامة ، وهم بيد الباشا ليقبلها ، فلما رآه فى تلك الحال من القلق اضطرب فؤاده ، ولم يعد يجرؤ على مخاطبته ، مع ما كان له من الدالة عليه ، أما غوردون ، فقال له :

ـ ماذا أقول الآن ؟.. ان الناس لايصدقوننى لكثرة ما أنبأتهم

بقرب وصول النجدة ، ثم لم تصل ..

وكان بورديني بك من كبار تجار المدينة ، وقد جاء يدعو الباشا الى جلسة يتخذون فيها قرارا نهائيا بشأن الدفاع ، فرأى أن الباشا لايستطيع وهو فى هـذه الحال من الغيظ أن يحضر الجلسات فتركه وانصرف .. ثم نهض غوردون وفى يده المنظار المقرب وصعد الى سطح السراى ليراقب حركات الأعداء المحدقين بالمدينة من جهاتها الأربع . فعاد شفيق الى غرفته والصورة بيده يعيد النظر اليها مفكرا .. ولاح له أن يحافظ على ملابس الدراويش التى جاء بها لعله يحتاج اليها فتفقدها ، وحفظها فى مكان بالغرفة .. وصبر ليرى ماذا يكون ..

— ١٥ —

سقوط الخرطوم

قضى شفيق ليلته يراقب حركات غوردون ، فاذا هو قد ظل حتى منتصف الليل ساهرا يكتب ، ثم سمع شفيق صوت اطلاق المدافع فنهض مذعورا .. فاذا أهل السراى يتراكضون ، فسأل عن الباشا فقيل له : « انه على سطح السراى يطلق المدافع على الأعداء » .. فصعد اليه ، فاذا هو بملابس النوم .. يطلق القنابل ، والعدو هاجم على الأسوار

وبعد قليل شاهد شفيق جماهير العصاة ، قد دخلوا السور

من باب المسلمية وامتلأت بهم الساحة ، ومازال غوردون يطلق القنابل عليهم من السطح حوالى ساعة حتى اقتربوا كثيرا ، فلم يعد يستطيع تصـويب المدافع نحوهم .. ثم رأى شفيق أعلام المهدويين تخفق فى وسط الجماهير فتحقق لديه ان قد قضى الأمر ، فأعمل فكره للنجاة بحياته .. فسارع الى غرفته وارتدى ملابس الدراويش بعد أن تحقق ان الدفاع لايفيده شيئا ، ثم نزل من السراى فشـاهد جمـاهير العصـاة عنـد بابها .. يريدون الدخول ، ثم تقدم أربعة منهم ودخلوها فالتقوا بغوردون باشا عند رأس السلم ، وقد لبس ثيابه وتقلد سيفه وحمل المسدس بيده ، فهجم عليه أحدهم ونادى بأعلى صوته : « آه ياملعون ، اليوم يومك » . وطعنه بحربة .. فأجهز عليه رفاقه

وكان ذلك قبل شروق الشمس ، فسقط غوردون باشا صريعا يتخبط فى دمه ، ولم يستطع شفيق النظر اليه فترك السراى ، ونزل الى الشارع حيث اختلط بالدراويش متظاهرا بأنه واحد منهم ، وكان كثيرون منهم يعـرفونه ولم يعلموا انه هرب من معسـكرهم فظنوه على دعوتهم ، ثم رأى درويشـا حاملا رأس غوردون يريد ايصاله الى المهدى ، مع ان المهدى كان قد أمر بالابقاء على حياته ، ودامت المذبحة ست ساعات ، ولم يكف الدراويش عن القتل حتى أمرهم المهدى بذلك .

واغتنم شفيق فرصة اشتغال الدراويش بالنهب والقتل ، وتوجه الى شاطىء النيل .. فوجد خشبة هناك اتخذها بمثابة قارب ،

وما كاد يبتعد بها عن الشاطىء حتى رآه بعض الدراويش ، فرموه بالسهام ورصاص البنادق فأصابه سهم فى فخذه .. لكنه ظل ماضيا فى السباحة بالخشبة حتى أتى جزيرة حلفايا قبالة حلة والتجأ الى شجرة هنالك ، وكان الليل قد أسدل أستاره فلم يعلم به أحد ، لكنه كان فى خوف عظيم لانتشار الدراويش فى تلك الجهات ..

وقضى شفيق ليلته ساهرا يفكر فى وسيلة لنجاته ، أما جرحه فكان طفيفا وقد ضمده بقطعة من عمامته . ثم نهض فى الصباح فارتدى ملابس الدراويش ، وكان قد اسود لون بشرته من شدة الحر ، وأتقن اللهجة السودانية وعرف اصطلاحات الدراويش فى حديثهم وصلاتهم وسائر أحوالهم .. فأخذ يتجوّل فى الجزيرة حافيا ، والسبحة فى عنقه يكرر الشهادة والدعاء لنصرة الدراويش وابادة الكفار ، حتى وصل الى مكان اشتم فيه رائحة خاصة بأهل السودان يشتمها الانسان عن بعد ، فتقدم نحوها حتى وصل الى بيت صغير ، فيه ثلاثة من أهل القرية ، فحياهم بتحيتهم المعتادة ، فردوا التحية ودعوه الى تناول الطعام ، وسألوه عن حاله فزعم انه ممن جاءوا للجهاد فى سبيل الامام المهدى ، وقد أصيب برصاصة فى فخذه أثناء هجومه على المدينة .. فلم يعد يستطيع الجهاد ، فقال أحدهم :

ـ انك والله قد نلت أجرا عظيما ، وياحبذا لو أصبنا بمثل اصابتك ، وعلى كل حال قد أوقع الله النصارى (يريد الانجليز)

فى شر أعمالهم ، ولم يعودوا يستطيعون المجيء الى هنا بعد سقوط الخرطوم ، وبعد أن رصدهم سيدنا الامام

فلم يفهم شفيق معنى ذلك الرصد ، فقال : « وكيف كان ذلك ؟.. »

فقال أحد القرويين الثلاثة :

ــ يظهر انك لم تسمع الخبر ، ان رجال سيدنا الامام عثروا فى السنة الماضية وهم سائرون الى الدبة بجاسوس من جواسيس الكفار كان آتيا الى غوردون ، ففر الجاسوس تاركا متاعه ، وكانت فيه صورة من صور عساكر النصارى فسلموها للامام فأخذها وقطع رأسها بسيفه ، ثم بعثها الى غوردون فى الخرطوم لينذره بأن القادمين لانقاذه سيصيبهم مثل ما أصاب تلك الصورة .. »

فأدرك شفيق ان تلك الصورة هى صورته ، وفهم معنى قطع رأسها ، ولكنه لم يفهم كيف جىء بها الى السودان ، ولا من جاء بها فأخذت منه الهواجس كل مأخذ ، لكنه خشى أن يظهر عليه ذلك ، فتجلد وتظاهر بالدعاء للمهدى . ثم جاء القوم باناء به ماء يغلى ، ووضعوا فيه شيئا من الويكة (فتات ورق البامياء الجاف) وجعلوا يحركونه فى الماء حتى صار مزيجا لزجا ، وأخيرا أخرج كل منهم رغيفا من خبزهم الأسمر الملبد ، وأعطوا شفيقا رغيفا مماثلا ، وراحوا يغمسون اللقيمات فى ذلك المزيج ويأكلون ويلحسون أصابعهم بعد كل لقمة ، ففعل مثلهم ..

وفيما هو يأكل ، لاحت منه التفاتة الى الورقة التى كانت بها الويكة الجافة فما تأملها حتى خفق قلبه ووقفت اللقمة فى حلقومه ، اذ وجد بها كتابة بخط يشبه خط فدوى ، فتناول الورقة دون أن يشعر بذلك مضيفوه ودسها فى ثيابه ، ولم يعد يستطيع طعاما من شدة التأثر ، فنهض متظاهرا بالذهاب لقضاء حاجة . ثم فتحها وأخذ يقرؤها فاذا هى كتاب فدوى اليه من بيروت منذ عشرة أشهر ، فعجب لهذا الاتفاق ، وأخذ يبكى ويتحرق لعدم استطاعته الوصول اليها ، ولولا تعوده الأخطار والمشاق لأغمى عليه ، لكنه تجلد وعاد الى رفاقه حيث قضى معهم بقية ذلك النهـار ، ثم غادرهم شاكرا حسن ضيافتهم ، وسـار حتى وصل الى مكان منعزل فى الجزيرة .. فجلس يفكر فى أمر فدوى ويبكى نادبا سوء حظه وما وصل اليه ..

فى منتصف اليوم التالى (٢٨ يناير ١٨٨٥ م) شاهد شفيق باخرة قادمة على النيل فوقها العلم الانجليزى ، فعلم انها قادمة لانقاذ غوردون باشا من الخرطوم ، فقال لنفسه : « سامحكم الله على ابطائكم ، لقد ذهبت أعمالكم أدراج الرياح » . ورأى أن نزوله الى تلك الباخرة آمن له من البقـاء هنالك فنظر اليها من الجزيرة ، فاذا هى تجـر وراءها صـندلا مشـحونا بالجنود السودانيين ، فأشار الى من فيها اشارة علموا منها انه من جندهم ، فاقتربوا بالباخرة من الجزيرة ، وأدلوا له خشبة صـعد فوقها اليهم ، فاجتمع حوله الجنود الانجليز ينظرون الى ملابسه وهيئته

ويعجبون ، ثم ذهبوا به الى ضابط لهم قصير القامة ، خفيف شعر العارضين ، نحيف البنية ، هادىء الطبع ، فهم من كلامهم انه السير شارلس ولسن رئيس قلم مخابرات الحملة النيلية التى جاءت لانقاذ غوردون ، فخلا اليه وقصّ عليه قصة مذبحة غوردون ومن معه فى الخرطوم ، وأشار عليه بأن لايمضى اليها لأنها فى قبضة العصاة .. لكنه لم يصغ الى قوله ، وسارت السفينة والدراويش يضربونها من الجانبين ، حتى وصلت الى الخرطوم فتحقق السير شارلس من صحة قول شفيق ، حين رأى أعلام المتمهدى تخفق فوق السراى والقشلاق والأسوار وغيرها ؛ وهمّ بالعودة ولكن السفينة اصطدمت بعد ذلك بصخرة عند الشلال السابع فانكسرت ، وأوشكت أن تغرق ، فهرول شفيق فى جملة المهرولين الى الصندل ، ونزل اليه والرصاص يتساقط عليهم من ضفتى النيل ، وحملوا فى ذلك الصندل ما استطاعوا حمله من الناس والمتاع ، ونقلوه الى الشاطىء حتى بلغوا جزيرة يقال لها جزيرة وادحبشى ، ثم أرسل السير شارلس ضابطا فى قارب صغير الى المتمة لاعلام الحملة بذلك الأمر ، لكى يسرعوا الى انقاذهم . ولبثوا على هذه الحال والخطر يزداد كل يوم حتى رأوا فى مساء اليوم الرابع باخرة قادمة من جهة المتمة فعلموا انها آتية لانقاذهم فاستبشروا بالنجاة ، وتعلقت أبصارهم بالباخرة حتى اقتربت من الجزيرة ، ولكنهم مالبثوا أن سمعوا اطلاق المدافع من جهات العدو ، ثم علموا بالاشارات ان الباخرة أصيبت بقنبلة عطلت

آلتها البخارية ، وكاد كل من فيها يهلكون بقنابل الدراويش ورصاصهم وسهامهم ، لولا أن تمكنوا من اصلاح الباخرة قبل صباح اليوم التالى ، فواصلت سيرها حتى بلغت موضعهم فركبوها وعادوا بها فى الظلام حتى بلغوا المتمة ، حيث معسكر الانجليز على ضفة النيل الغربية فى موضع يعرف بالقبة ..

وبعد بضعة أيام ، انسحبت الحملة راجعة عبر صحراء البيوضة قاصدة كورتى لتسير من هناك فى النيل الى مصر ، فكان سرور شفيق بذلك عظيما ، ووصلوا الى كورتى بعد أربعة عشر يوما مارين بأبى طليح ، وجكدول . وهناك جاءتهم الأنباء من لندن بأن حكومتها قررت بقاء الجيش فى كورتى حتى الشتاء ، لمعاودة السير لفتح السودان .. فكادت آمال شفيق تنهار ، لكنه مالبث يسعى حتى أذن له فى أن يسير وجده الى القاهرة ، فأخذ مايحتاج اليه ، وسار تارة يركب جملا ، وطورا يستقل قاربا ، حتى وصل الى القاهرة فى أواخر شهر مارس سنة ١٨٨٥ م

لبثت فدوى فى بيروت بعد أن استولت على الدبوس ، واستوثقت من ذهاب عبود بكتابها الى شفيق فى السودان ، وهى على أحر من الجمر ، تأخذ أباها باللين وتعده باطاعة أوامره ، وكان هو يلح على عزيز فى أن يأتى بالمنوم المغناطيسى ، فكتب عزيز الى صديق له فى باريس فى هذا الشأن ، وظلا ينتظران الرد

وورد الى الباشا ذات يوم كتاب من زوجته فى مصر ، فى طيه كتاب شفيق الذى بعث به من الأبيض ، وفيه نبأ ببقائه حيا ،

فلما قرأ الباشا الكتاب خشي حبوط مسعاه فى الاستيلاء على ثروة عزيز اذا عاد شفيق حيا ، فأخفى ذلك الخبر عن ابنته لئلا تتشبث به

ولاح له أن يسعى أولا فى وضع يده على أموال عزيز فخلا اليه يوما ودار بينهما حديث فى شؤون مختلفة تطرق منها الباشا الى مسألة الزواج بفدوى ، ثم قال له :

ـ ما دمنا قد صرنا ياولدى جسمين فى شخص واحد ، لأنك ستكون صهرى وفى منزلة ولدى ، والوارث لكل أموالى اذ ان فدوى وحيدتى ، فأرى أن نضم ممتلكاتنا بعضها الى بعض ، فاما أن أضم مالى الى مالك وأكتب لك بذلك صكا ، واما أن تضم مالك الى مالى وتكتب لى به صكا

ففرح عزيز بذلك القول ، اذ استدل به على تمكن محبته من قلب الباشا ، وأيقن بزوال كل مشكلة من طريقه . وكان يود أن يكون هو المستولى على المالين ، لكنه لم يجرؤ على التصريح بذلك ..كما انه أراد أن يظهر للباشا ثقته بمحبته وصدق مواعيده فقال : « انى ياعماه وما أملك فى قبضة يدك لأنك بمنزلة أبى .. »

ففرح الباشا لنجاح سعيه ، وكان قد أعد الورق والدواة لهذا الغرض ، فكتب عزيز صكا بالتنازل عن كل أمواله للباشا ، ثم أشهد على ذلك بعض الشهود ، وناول الباشا الصك فوضعه فى جيبه فرحا بتحقيق أمانيه .. وهنا شعر عزيز بالخطأ الذى وقع فيه ، ولكنه لم يجرؤ على استرجاع الصك ، فلبث صامتا مهموما ليقينه بأنه صار صفر اليدين لايملك شيئا .. لكنه عاد فتذكر انه

سيكون عما قليل زوجا لفدوى فتعود هذه الأموال وأموال الباشا جميعها اليه ، فسكن جأشه قليلا ، وازداد تعلقا بفدوى ورغبة فى الزواج بها ..

وفى يوم من أيام شهر مارس كانت فدوى فى غرفتها سابحة فى بحار الهواجس فدخل عليها بخيت وقال لها : « ورد علىّ كتاب من عبود ذكر فيه انه وصل الى قرب الخرطوم ، لكنه لم يستطع دخولها لأنها تحت الحصار ، وسيبقى فى انتظار الحملة النيلية الذاهبة لانقاذ حامية الخرطوم فيسير برفقتها »

فقالت فدوى : « انى يا بخيت قد بلغ بى اليأس منتهاه ، ولم أعد أستطيع صبرا » . وبكت وأخذت تتأوه وتتحسر ، فراح بخيت يواسيها ويمنيها ، ثم خشى مجىء أبيها فاستأذن وخرج ، وتركها نهبا للوساوس والأحزان

وفى الليلة التالية رأت حلما أزعجها كثيرا ، لأنها رأت فيه شفيقا مضرجا فى دمائه فى صحراء السودان ، والنسور حائمة عليه تأكل من جثته .. فاستيقظت فزعة باكية ، وكتمت الأمر عن أبيها ثم دعت بخيتا وقصت عليه حلمها وهى تبكى ثم قالت له :

ــ اذا كنت مخلصا لى حقا .. فآتنى بالسم أتجرعه ، لألحق بشفيق فى العالم الآخر ، قبل أن يدرك منى ذلك اللعين وطرا ..

فقال بخيت : « لا بأس عليك ياسيدتى ، والله لن ينال ذلك الوغد مسمارا فى نعالك ، وأنا على قيد الحياة .. »

قالت فدوى : « ان الحياة لم تعد تحلو لى ، فآتنى بالسم

والا خنقت نفسي بيــدى » . وحاولت خنق نفسها بيــدها ، فأمسكها بخيت وحاول تسكين ما بها فلم يستطع لأن عواطفها تسلطت على عقلها ، وأخذت تلطم وتثب كمن أصيب بمس من الجنون ، وقد حلّت شعرها وقطعته واستغرقت فى البكاء

فوقع بخيت فى حيرة وأخذ فى البكاء معها ، ثم لاح له أن يتظاهر بموافقتها فقال : « سأفعل ما تريدين ، ولكن خففى عنك الآن لئلا يأتى سيدى ويراك على هذه الحال .. »

فابتدرته فدوى قائلة : « لم أعد أحسب حسابا لأحد ، لأنى لست مالكة رشدى ، ولا أنا خائفة من شىء ، وسأكون عما قليل فى عداد الأموات »

فبكى بخيت تأثرا ، ثم حاول تعزيتها والترفيه عنها كى تصبر حتى يأتى الرســول ، فلما ذهبت محاولاته ســدى ، قال لها : « سأذهب لآتى لك بالسم ، ولكن امهلينى بضعة أيام ، لأن الصيدليات لا تبيع السموم بغير أمر الطبيب .. ولا بد للحصول عليه من تدبير وسيلة لذلك .. »

فقــالت فدوى : « لا بأس ، ولكنى أوصــيك بالاسراع ما استطعت لأن الموت أفضل من حياتى هذه »

ثم ألقت بنفســها على السرير خائرة القوى ، وخرج بخيت يبحث عن وسيلة لنجاة سيدته من هذه الحال . وخشى أن تعود الى خنق نفسها بعد خروجه .. فعاد ليتفقدها بعد قليل ، فاذا هى ما زالت متمددة على السرير كأنها نائمة . ورأى على سرير الباشا

بعض أوراق كأنه نسيها ، ووقعت عيناه بينها على ورقة مكتوبة بخط يشبه خط شفيق ، فتأملها فاذا هى الورقة التى أرسلها شفيق من الابيض الى والديه ينبئهما ببقائه على قيد الحياة ، فأخذ بخيت يرقص طربا كأنه أصيب بمس من الجنون ، ولكنه خشى على سيدته من صدمة الفرح الشديد ، فجاهد نفسه لاخفاء فرحه ، وانتظر حتى أفاقت .. فما كادت تنظر فى وجهه حتى قرأت فيه علامات السرور ، فنهضت وسألته : « لعلك جئت بالسم الذى طلبته منك ؟ .. »

فتلعثم بخيت ولم يحر جوابا ، ثم تجلد وأخذ يمهد لالقاء النبأ عليها لئلا تضرها البغتة ، فقال : « لقد جئت يا سيدتى بما هو خير وأبقى ، فتوكلى على الله وهو يمنحك كل ما تريدين .. »

قالت فدوى : « أنت تعلم يا بخيت صدق ايمانى بالله ، غير انى أرى موتى أقل مرارة لى من هذه الحياة .. »

قال بخيت : « وهل تحققت ان سيدى شفيقا ليس على قيد الحياة ؟ .. » قالت فدوى : « ان ما علمناه يقرب من اليقين .. »

قال بخيت : « كلا يا سيدتى ، بل الأرجح انه على قيد الحياة .. » فانتفضت فدوى عند سماعها ذلك وقالت : « ماذا تقول يا بخيت ؟ .. هل سمعت شيئا جديدا ؟ .. »

قال بخيت : « هبى انى لم أسمع شيئا ، فان قرائن الأحوال تدل على ذلك .. »

قالت فدوى : « أين هذه القرائن ؟.. انى لم أر شيئا منها ..»

قال بخيت : « أول القرائن انكما وقعتما فى ضـيق وخطر مرارا فأنقذكما الله ، وهذا دليل على ان الله سبحانه وتعالى يريد بقاءكما لتتمتعا ببقية حياتكما . والقرينـة الثانية اننا لم نسمع خبرا صريحا بقتله أو موته . وأما القرينة الثالثة .. » وسكت

فابتدرته فدوى قائلة : « وما هى القرينة الثالثة ؟ .. »

فقال بخيت : « ان القرينة الثالثة هى هذا الكتاب الصغير » . ومد يده اليها بكتاب شفيق ، فما كادت تشاهد خطه حتى شهقت وارتدت اليها قوتها وهمت بالورقة فاختطفتها ، وقلبهـا يخفق وفرائصها ترتعد ، وأراد بخيت منعها فلم يستطع .. ثم قرأت تلك الورقة وعيناها تكادان تطيران من اللهفة ، ولم تتم القراءة حتى امتلأت عيناها بدموع الفرح والسرور ، وظلت تعيد قراءة الكتاب مثنى، وثلاث ، ورباع ، وأخيرا قالت لبخيت : «ما العمل الآن وما الرأى ؟.. » فقال بخيت : « الرأى أن ننتظر الفرج من عند الله فانه على كل شىء قدير » ..

قالت فدوى : « وماذا نعمل فى شأن ذلك الثقيل الذى سلطه الله على أفكار أبى حتى صمم على تبليغه مرامه ؟.. »

قال بخيت : « ثقى يا سيدتى بأنه لن يظفر بمسمار من نعل حذائك ، ولسوف ترين من عبدك بخيت ما يسرك .. »

قالت فدوى : « افعل ما بدا لك .. ولكننى أرى أن أبى يميل الى موافقته »

فتكلف بخيت الضحك وقال : « بل لقد تم اتفاقهما ، ولكن

ذلك الوغد لن يبلغ مأربه ما زلت على قيد الحياة ، ولو أتى بمنومي المغناطيس الموجودين فى العالم .. » ثم عضّ على أنامله كأنه صرح بما لم يكن يريد التصريح به

فقالت له فدوى : « ما معنى هذا الكلام ؟ ومن هم المنومون المغناطيسيون الذين تعنيهم ؟ .. »

فحاول بخيت أن يتخلص من الجواب ، ولكنها ألحت عليه ، حتى خشي غضبها اذا لم يخبرها ، فقال لها :

ـ ان من الأطباء اليوم فئة تلجأ الى التنويم المغناطيسى ، ومن مزايا ذلك التنويم استهواء النائم والايحاء اليه بأن ينفذ بعد يقظته كل ما طلب منه وهو نائم . وقد علمت من مصدر ثقة ان ذلك الخائن بعث الى بلاد أوربا ، يستقدم طبيبا لينومك ، ويستهويك ليرغمك على حبه .. »

فضحكت فدوى ساخرة وقالت : « ان جميع منومى العالم لايمكنهم ارغامى على حب هذا النذل الخائن ، واذا مت فان التراب الذى ألقى عليه لا يمكن أن يحبه »

فقال بخيت : « ان فعل الاستهواء غريب ياسيدتى ، ولكنى أخبرك بأنك تستطيعين رفض التنويم ، لأن والدك سيزعم لك انذلك الطبيب جاء لمعالجتك .. فتظاهرى انك بخير ولاتحتاجين الى طبيب ، والأفضل أن تطلبى السفر من هذه المدينة للترويح عن النفس .. فان الأطباء قد أشاروا بذلك فى الشتاء ، ولم تكن الطرق مفتوحة لكثرة الثلوج .. أما الآن فقد جاء الربيع والتجول

فى لبنان مما تتوق اليه النفس وينشرح له الصدر »

قالت فدوى : « لقد نطقت بالصواب ، فأرجع هذا الكتاب الى ما بين أوراق أبى لئلا يعلم باطلاعنا عليه ، وسأدبر أمر سفرى منذ الآن » ولما حان وقت الغداء جاء الباشا ليتناوله مع فدوى وكان قد قضى نصف النهار مع عزيز .. فلما جلسا الى المائدة ، أخذا يتجاذبان أطراف الحديث ، فقال الباشا : « أراك اليــوم والحمد لله فى صحة جيدة »

قالت فدوى : « نعم يا أبتاه .. وانى أشكر الله على ذلك ، ولكننى أشعر باحتياجى الى الخروج من هذا الفندق ومن هذه المدينة » قال الباشا : « انى أوافقك .. فالى أين تريدين الذهاب ؟ »

قالت فدوى : « أسمع الناس يطنبون فى مدح هواء لبنان ، ولا سيما فى أوائل الصيف ، فالأفضل أن نقصــد احدى القرى حيث يمكننا الاقامة بفندق أو منزل بضعة أشهر ، ومتى انقضى الصيف عدنا الى بيروت »

فاستغرب الباشا ذلك منهــا ، ولكنه فرح به وخيّل اليه أن تقدم صحتها نتيجة نسيانها شفيقا ، فازداد سروره

وما انتهى من تناول الغداء حتى انطلق الى مقابلة عزيز وعلى وجهه امارات السرور ، فقصّ عليه ما دار بينه وبين فدوى ، فقال عزيز وقد رقص قلبه فرحا : « وأنا ماذا أفعل ؟ .. »

قال الباشا : « تتبعنا بعد بضعة أيام الى قرية عالية ، وهى على مسافة ثلاث ساعات بالعربة من هنا ، وموقعها فى سفح جبل

عال يشرف على بساتين وغياض »

ثم أمر الباشا بخيتا أن يهيىء ما يلزم للسفر ، وبعد يومين سار الباشا وابنته وبخيت فى عربة ، حتى وصلوا قرية عالية فاتخذوا لهم مكانا فى بيت لأحد أهالى القرية .. ولم يمض شهران حتى تحسنت صحة فدوى كثيرا ، وكانت تخرج مع أبيها أو مع بخيت الى الكروم خارج القرية فتأكل ما نضج من الفاكهة .. وتروح عن النفس باستنشاق الهواء النقى الذى ليس له مثيل فى العالم ، أما عزيز فلحق بهم واتخذ له مكانا بالقرب من بيت الباشا حتى يطمئن قلبه على فدوى ، دون أن يطمع فى مشاهدتها . ولكنه كان يعلل النفس بمواعيد والدها ، ورأى بعد مشورته ألا حاجة الى التنويم لأنها أخذت تسلو شفيقا

وفى ذات يوم من أيام شهر سبتمبر ، خرجت فدوى مع بخيت للنزهة فى احدى الحدائق .. ولما استقر بها المقام على صخر مرتفع مشرف على عدة آكام تكسوها كروم العنب ، والتين ، والمشمش ، وغيرها ، وقد مالت الشمس الى المغيب ، فأصبح منظر تلك التلال ، مع ما تشرف عليه من سواحل بحر الروم من بعيد ، منظرا بديعا تزينه أشعة الشمس المائلة الى الاصفرار ، ويكلل البحر عند الأفق الشفق المتعدد الألوان ، قالت لبخيت : « ماذا نصنع بذلك النذل الذى ما زال يرجو المستحيل بعد أن علم بأنى لا أستطيع أن أراه ، ولا يمكن أن أميل اليه ، وقد وافقه أبى على قصده ، وأخشى أن يغريه بتعجيل الأمر فنقع فى

بلاء عظيم ؟ .. »

فابتدرها بخيت قائلا : « طيبى قلبا يا سيدتى ، وتحققى ان الفرج قد صار قريبا . أما أمر الزواج فشىء يسهل تأجيله ما دمت تظهرين لسيدى الباشا انك لا تكرهين ذلك النذل الخائن ، وثقى بأن قتله أسهل عندى من شرب كأس ماء ، ولكننى لا أرى داعيا للتعجيل بذلك .. فلا حاجة بنا لأن نعرض أنفسنا للأحكام ، أو لغضب سيدى الباشا . أما اذا رأيت منه ما يغضبك فانى أقتله ولو كان يحتمى داخل القلاع والحصون ولا أبالى ما يكون بعد ذلك .. فاعملى أنت على اغضاء سيدى الباشا عن اتمام ذلك الأمر بالأسفار ونحوها ، حتى نعود الى القاهرة ، ويكون الله قد أذن باطمئناننا فيما يختص بسيدى شفيق »

فقالت فدوى : « بورك فيك يا بخيت ، لقد نطقت بالصواب ، فهيا بنا الى المنزل لأن الشمس قد غربت » . ونهضا عائدين

وبينما هما يسيران فى الطريق ، لمح بخيت ساعى البريد قادما من بيروت ، فأسرع اليه وسأله : « هل معك خطابات لسيدى الباشا ؟.. » وكان الساعى قد عرفه من قبل ، فسلمه كتابين : أحدهما أكبر حجما من الآخر ، كأن فيه أكثر من كتاب ، فقالت فدوى لبخيت : « لعل فى هذا الظرف كتابا خاصا بى ، ومتى وصلنا الى أبى نعلم الحقيقة .. »

ولما وصلا الى البيت وجدا الباشا هناك ، فسلمه بخيت الكتابين ، فأخذهما وجلس وابنته فى الحجرة ، وفضّ أول كتاب

وقرأه ، ثم فضّ الكتاب الآخر، فاذا فيه كتاب آخر ورقه قديم ، وكانت فدوى تختلس النظر الى أبيها فلاحظت على وجهه علامات التعجب ، فخفق قلبها ورغبت فى استطلاع الأمر ، لكنها صبرت حتى يفرغ أبوها من القراءة ، ثم رأته قد تناول الكتاب القديم وأخذ يقرؤه فى ذهول ، فلم تعد تستطيع صبرا ، ولكن الباشا ما لبث أن تظاهر بانشغاله بأمر هام خارج الغرفة ، ثم عاد وقد أخفى أحد الكتابين ، فأدركت فدوى ان فيه شيئا يخصـها ، ولكنها اكتفت بأن سألت أباها عن الأخبار ، فقال : « ان والدتك بخير ، وهى تود المجىء الى هنا لقضاء فصل الصيف ، والذهاب الى دمشق لمشاهدة والديها »

فقالت فدوى : « حبذا مجيئها فانى أستأنس بها فى هـذه الديار ، فهلا كتبت اليها لتحضر ؟ .. »

قال أبوها : « سأفعل ان شاء الله .. »

وبعد العشاء ، أوى الباشا الى فراشـه ، فتظاهرت فدوى بالرغبة فى النوم هى الأخرى ، ولكنها كانت قد اتفقت مع بخيت على أن يجيئها بالكتاب الذى أخفاه أبوها . فلما انتصف الليل ، سمعت وقع أقدام فى غرفتها .. وكان النور فيها ضعيفا ، فانتبهت وجلست وأشعلت شمعة ، فرأت بخيتا وفى يده ذلك الكتاب فأخذته ودنت من الشمعة ، وأخذت تقرؤه ، فاذا فيه :

« اعلمى يا زوجتى العزيزة ان حكاية ذلك الصندوق ، وذلك الشعر الملوث بالدماء ، حكاية قد كتمتها عن جميـع المخلوقات

أكثر من ثلاث وعشرين سنة . وقد كنت عازما على كتمانها بعد ذلك ، على ان الحاحك وسفرنا فى البحار الآن حملانى على كتابة هذا اليك ، حتى اذا أصابنى سوء فى البحر ، أو البر ، قرأت هذه الورقة وعلمت حكايتى وأصلى وفصلى

« أما أصلى فمن دمشق الشام ، ولم يرزق أبواى غيرى الا ابنة واحدة ، فأحسنا تربيتنا ، وعشنا فى رغد ونعيم ، حتى كانت حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ م ، على أثر حوادث لبنان المفجعة التى ذبح فيها نصارى حاصبيا ودير القمر وغيرهم ذبح الأغنام بعلم رجال الحكومة ، وذلك ان أحد المسيحيين فى دمشق رأى السير على مقتضى التنظيمات ، التى سنها السلطان عبد الحميد سنة ١٨٥٦ م ، بشأن البدلية العسكرية ، ولكن أحمد باشا والى المدينة لم يوافق على ذلك ، وكتب الى الاستانة يشكو المسيحيين الدمشقيين ويتهمهم بالعصيان .. فأذنت له فى تأديبهم ، فجمع اليه مشايخ المدينة وعلماءها فى القلعة ، فأفتوا بتأديب العصاة ، وفى صباح اليوم التاسع من شهر يولية سنة ١٨٦٠ م ، بدأت الثورة فى ناحية باب البريد قرب الجامع الأموى فثار أهل تلك المنطقة بدعوى الاهانة التى لحقت بالمسلمين ، على أثر حكم الوالى على بعض السوقة منهم بالطواف فى الأسواق وكنسها ، وهم مغلولون ، عقابا لهم على ما أرادوه بالمسيحيين من الاهانة قبل ذلك برسم صورة الصليب على الطرق

« وكنت أنا فى جملة أهل باب البريد أيضا ، فرأيت جيرانى

قد ثاروا كافة ، وأغلقوا حوانيتهم وحملوا سلاحهم غضبا من تلك الاهانة المزعومة فأغلقت حانوتى مثلهم ، وتبعت الجماهير وطفقنا ندخل البيوت ، ونقتل كل من تصل اليه أيدينا من المسيحيين ، وكنت دون العشرين من العمر ، لا أفقه ما أفعل لأن الاندفاع أعمى بصيرتى ، فدخلت بيتا هناك والخنجر فى يدى يقطر دما ، فخرج الىّ شاب وترامى على قدمى يقبّلهما ، ويتضّرع الىّ أن أكتفى بقتله ، ولا أدخل البيت ، فلم أصغ الى قوله وازددت رغبة فى الدخول ..

فقال الشاب : « ليس فى البيت أحد الا فتاة مخطوبة لى .. فاقتلنى واكفف عن البيت لئلا يصيب الفتاة سوء ! »

فما كان منى الا انى طعنته بخنجرى فسقط صريعا . ثم نظرت واذا بفتاة كالبدر طلعة ، والخيزران قواما ، محلولة الشعر حالكته ، قد خرجت من ذلك البيت .. فرمت نفسها على ذلك الشاب تندبه وتبكيه ، فهممت بأن أمسكها وأرفعها عنه فأصابت قبضتى شعرها ، وأردت انهاضها فاذا هى ميتة لا حراك بها . فشعرت من تلك اللحظة كأنى صحوت من سكرة ، وعلمت انى قتلت نفسين بريئين . وكانت يدى لاتزال قابضة على شعر الفتاة فجذبتها ، فالتصق بيدى بسبب الدم الذى كانت يداى ملوثة به ، وغادرت البيت مهموما .. فاذا بجماعة يرتدون ملابس المغاربة يتقدمهم رجل جليل القدر فى مثل ملابسهم ، ولكن أكثر اتقانا وعظمة ، فحالما وقع نظرى عليه عرفت انه الأمير عبد القادر

الجزائرى ، وان هؤلاء رجاله يطوف بهم المدينة لانقاذ النصارى من الذبح ، وعلمت بعد ذلك انه فرق نحو أربعمائة من رجاله فى الأسواق مسلحين يحملون العائلات المسيحية الى بيته ، وقاية لهم من القتل ، وقد خرج هو بنفسه أيضا لمساعدة رجاله ، فاتفق انه وصل الى ذلك البيت وقد تحولت للخروج منه .. فلما شاهد جثتى القتيلين فى ساحة الدار وقد اختلط دمهما بالماء المنسكب من النافورة على الرخام صاح بى قائلا : « يالقسوتك ياجاهل » . ثم نادانى باسمى وأمر رجاله أن يدخلوا الدار فارتعدت فرائصى، وكأنى شعرت بشنيع فعلتى .. ولم أعد أعى ما أعمل ، فحملنى حب النجاة على أن أفر من وجه أولئك المغاربة ، فأدركنى واحد منهم وهمّ بالقبض علىّ ، فابتدرته بطعنة من خنجرى ، أصابت صدره فسقط .. وتحولت الى داخل البيت ، وأنا لا أدرى الى أين أذهب ، فسمعت الأمير يقول : « اقبضوا عليه أو اقتلوه لأنه استحق القتل » . فأسرعت الى نافذة وقفزت منها الى الطريق وطلبت الفرار ، وما زلت مسرعا لا ألوى على شىء ، وفى يمينى الخنجر يقطر دما ، وفى يدى الأخرى خصلة من الشعر ملوثة بالدماء ، وما زلت ممعنا فى الفرار حتى أسدل الليل أستاره ، فاختبأت فى مكان منعزل بضعة أيام ، حتى علمت ان الحكومة السنية بعثت فؤاد باشا مندوبا عنها لتحرى الحقيقة وقتل الجناة ، فأيقنت بأن الأمير عبد القادر يترقب الظفر بى ليحكم علىّ بالقتل، وأنا أستحقه شرعا وعرفا ، فخرجت من دمشق الشام ولم أخبر

أحدا بخروجى وجئت الى الديار المصرية ، وأنا لا أزال خائفا من عاقبة ما جنته يدى ، وكنت قد حفظت تلك الخصــلة من الشعر فى صندوق حتى لا أنسى ذنبى ، ولما استتب لى المقام فى القاهرة لم أر أفضل من انتظامى فى خدمة قنصلية انجلترا لأكون فى حمايتها اذا اقتضت الحال ، وما زلت أجد وأترقى حتى وصلت الى ما أنا عليه ، وقد سميت نفسى ابراهيم بدلا من عبد الرحمن اخفاء لحقيقة أمرى ..

« وقد كنت عازما على كتمان هــذه القصة حتى يحكم الله فيها ، فاما أن يسافر الأمير عبد القادر من دمشق ، أو أن يموت أو تأتى ساعتى ، وبما أنك أردت معرفة هذا السر ، وقد ألححت علىّ فى استطلاعه فقد كتبت اليــك هذا ، حتى اذا غرقت فى البحر الذى نحن مسافرون فيه وقرأت هذا .. علمت أن والدتى ووالدى لا يزالان فى دمشق ، وقد علمت أن شقيقتى تزوجت برجل عظيم غريب عن الديار ، فأخبرى ولدنا بذلك أيضا حتى يسير الى جديه ، فانهما يسران بمشاهدته كثيرا اذا كانا لايزالان على قيد الحياة ، وفيما يلى اسم أسرتى وعنوانها . أما الصندوق فاحرقيه بجميع ما فيه .. والسلام »

لم تكد فدوى تتم قراءة ذلك الكتاب حتى اختلج قلبهــا فى صدرها وارتجفت ركبتاها ، وبردت أطرافها وصــاحت قائلة : « بخيت .. بخيت ، من تظنه كاتب هذا الخطاب ؟ .. أليس هو والد حبيبى شفيق ، فان اسمه ابراهيم وهو موظف فى قنصلية

انجلترا ؟ .. ولولا ذلك ما أخفى أبى هذا الخطاب ؟ .. »

فابتسم بخيت وقال بصوت منخفض : « انلذلك سببا مهما »

قالت فدوى : « وما هو ؟.. »

فأخرج من يده ورقة أخرى وقال : « هــذا كتاب والدتك المرسل مع هذا » . فتناولته فدوى وقرأته ، فاذا فيه :

« أنت تعلم حكاية فقد أخى أثناء حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ م ، وقد استنتجت من قراءة هذه الورقة ان كاتبها هو أخى بعينه ، فبعثت بها اليك لأرى رأيك لعلك تعرف شيئا عن الرجل ، وأحب المجىء اليكم لأرى والدى وتتباحث فى ذلك »

فبهتت وقد أخذ العجب منها مأخذا عظيما ، ثم صاحت قائلة : « شفيق من ذوى قرابتى ؟.. شفيق ابن خالى ؟.. آه لو عرفت ذلك قبل الآن » . ثم بكت من شدة الفرح والتأثر ..

فقال بخيت : « عليك بكتمان الأمر ، وكأنك لم تعلمى عنه شيئا ، ومتى جاءت والدتك فاطلعيها على الحكاية واستفسرى كنه الأمر منها ، وها أنذا سأعيد الخطابين الى حيث كانا » . قال بخيت ذلك وخرج ، فعادت فدوى الى فراشها ، وقد تضاعف حبها لشفيق ، بعد أن عرفت ما بينهما من القرابة

وفى اليوم التالى بكرت فى الخروج الى الكروم ، وسار بخيت برفقتها ، فافتتحت حديث الأمس فضرب الأرض بقدمه وقال : « أؤكد لك يا سيدتى ان الله سيطيب قلبك قريبا لأن محبتكما طاهرة ، وأساسها القرابة عن غير علم منكما ، فان هذه الحجارة

تقضي باجتماعكما والله يفعل ما يشاء ، وأرى الآن أن تلحي على سيدى الباشا ليستقدم سيدتى الى هنا ، ومتى جاءت تذهبون جميعا الى دمشق لمشاهدة جديك »

فلما عادت ألحت على والدها فى استقدام أمها ، فأجابها الى ذلك لأنه كان يحترم رأيها كثيرا حفظا لرضاها على عزيز

وبعد مضى بضعة أشهر جاءت والدتها ، فخاطبتها فدوى فى أمر تلك الوصية ، وأفهمتها أن أخاها هو ابو شفيق حبيبها ، فقالت والدتها : « نطلب من الله أن يجمعنا بأخى ، وعسى أن يعود شفيق من السودان بسلامة الله »

فتنهدت فدوى ، وسكتت تنتظر الفرج من عند الله ..

وكان الشتاء قد جاء .. ولم تعد تطيب السكنى فى لبنان لتراكم الثلوج وهطول الأمطار ، واشتداد البرد .. فاستقر رأيهم على السفر الى دمشق ليشاهدوا الأهل ، ويقضوا بقية الشتاء هناك فبعث الباشا الى بيروت يستأجر عربة خاصة من شركة طريق الشام ، فلما حضرت العربة ركبوها جميعا تاركين سائر الخدم والأمتعة فى عالية ..

أما عزيز فتواطأ مع الباشا على أن يتبعهم الى دمشق ، فسارت بهم العربة على تلك الربى فى طريق كثيرة التعرج ، تارة يصعدون وطورا ينحدرون ، حتى وصلوا الى البقاع العزيزية المشهورة بخصبها واتساعها فى منتصف الطريق بين بيروت ودمشق . وهى تبدو للرائى كأنها بساط متسع منقسم أقساما مربعة عديدة

الألوان ، بين أحمر قان ، وأبيض ، وأسمر ، وأخضر ، وأزرق ، وسنجابى ، وعنابى

فوقفت بهم العربة بالقرب من فندق فى ذلك السهل نحو ساعة حتى استراحوا ، ثم عادوا يريدون دمشق فلم يدركوها الا بعد الغروب .. فنزلوا بفندق مشرف على نهر بردى ، ونزل الباشا فى الصباح التالى يفتش عن حمويه ، فاذا هما لايزالان فى بيتهما القديم ، فلما شاهدا الباشا لم يعرفاه لطول غيابه عنهما ، وهو أيضا لم يعرفهما لما كان من تأثير الشيخوخة عليهما مع ما امتزج بحياتهما من الأحزان والآلام .. ولما عرفاه وعرفهما ، همّا اليه وقبّلاه وقبّل أيديهما وسألاه عن ابنتهما ، فقال :

ــ هى هنا بخير وابنتى كذلك .. وانما جئت وحدى لكى أتحقق من وجودكما فى البيت ..

فطلبا اليه أن يبعث اليهما ليأتيا .. فذهب هو بنفسه وجاء بهما ، ونزل الجميع بأحد الفنادق .. ولا تسل عن قلب ذينك الوالدين ، وما أظهراه من الاشتياق لابنتهما التى لم يرياها منذ خمس وعشرين سنة تقريبا .. وقد أحبا فدوى خاصة ، لما كان فى وجهها من اللطف والجمال ، رغم ما هم فيه من الضعف

ومكث الباشا وأسرته فى دمشق بقية الشتاء . فلما كان ربيع سنة ١٨٨٥ م ، جاء عزيز الى دمشق راجيا تحقيق أمنيته بعد طول مدة الانتظار ، ولكنه لم يجرؤ على مخاطبة الباشا فى ذلك لئلا يغضبه فتضيع جميع ممتلكاته ، ولا تسل عن ندمه على كتابة

الصك الذى تنازل له فيه عنها ، فلم يسعه الا الصبر
ولما أراد الباشا العودة الى مصر ، ألح على حمويه أن يهاجرا من دمشق ليقيما معه فى مصر .. وقال لهما بعد أن أطلعهما على خطاب أبى شفيق :
ــ اننا نرجو أن نجتمع بولدكما فى مصر ، لأنى لا أظنه يأتى الى هنا ، فالأفضل أن تسيرا معنا لنقضى بقية الحياة معا هناك
فاستحسنا هذا الرأى ، بل كان ذلك غاية مناهما تخلصا من تذكر ولدهما فى المدينة التى فقد فيها ، فباعا كل ما كان لهما من الأمتعة والأثاث والأملاك ، وسار الجميع من دمشق قاصدين الى مصر . وكان ذلك فى صباح يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٨٨٥ م فاكتروا « عربتين » ركبت احداهما فدوى ومعها جداها ، وكانا قد أحباها محبة عظيمة .. ولم يعودا يستطيعان مفارقتها ، وركب الأخرى الباشا وزوجته وبخيت . وهم جميعا ملثمون بالكوفيات الحريرية الدمشقية ، وقد التفوا بالعباءات فوق ملابسهم للوقاية من غبار الطريق كما هى عادة المسافرين فى تلك الجهات ، وكانوا يستطيعون الوصول الى البقاع عند الأصيل فيعرجون من هناك على بعلبك للمبيت فيها ، ومشـاهدة قلعتها الشهيرة فى اليوم التالى ، ثم يواصلون السير الى بيروت
وكان الباشا قد أخبر عزيزا بأمر سفرهم ليقتفى أثرهم ..
وما زالوا سائرين ، مسرعين « بالعربتين » مخافة أن يدهمهم الليل فى الطريق ، وفيها أماكن خطرة يكمن فيها اللصوص للنهب

والقتل .. وبعد ثلاث ساعات ، جمحت خيل « العربة » التى بها فدوى وجدّاها .. وجعلت تتقهقر الى الوراء ، والطريق هناك على حافة هاوية سحيقة فخشى السائق أن تتردى فيها «العربة» ، ونصح لهم بالنزول منها فنزلوا ، وما لبثت العربة أن اصطدمت بصخرة هناك فتعطل بعض أدواتها ، واضطر الباشا الى وقف عربته أيضا ، ريثما يتم اصلاح العربة الأولى ، فلم يتم اصلاحها الا بعد الظهر بساعتين ، فاستأنفوا السير مجدين خوفا من خطر الطريق ..

ولما وصلوا الى محطة ميرسلون بدلوا خيل العربتين فى مركز شركة النقل هناك ، ثم ساروا قليلا فأشرفوا على منحدر ينتهى بواد عميق بين جبلين .. وكانت الشمس قد قاربت الغروب ، وشاهدوا الى جانب الطريق قبل مدخل الوادى بناء قديما مهجورا بدا رهيب المنظر فى ذلك الوقت .. ولمحوا فى ذلك البناء أشخاصا بملابس أهل تلك المنطقة ، وقفوا يتفرسون فى العربتين حين مرّتا بهم ، ثم رآهم بخيت يسيرون فى أثرهم متمهلين ، فأوجس خيفة منهم .. لكنه لم يخبر أحدا بذلك ، واكتفى بأن أوعز الى السائقين أن يزيدا فى سرعة السير

وظلت « العربتان » سائرتين حتى دخلتا ذلك الوادي ، فاذا هو بين جبلين شامخين لايرى المارّ فيه من صفحة السماء الا جانبا صغيرا جدا ، فقال أحد السائقين يخاطب بخيتا : « هذا هو وادى القرن المشهور بقاطعى الطرق ، وكان الخطر فيه شديدا جدا فى

الزمن الماضى ، أما الآن فقد استخدمت شركة النقل حراسا من الفرسان يتجولون فيه ذهابا وايابا حماية لعرباتها ومن فيها .. كما ان الحكومة أيضا عينت نفرا من الجند لهذا الغرض ، وقد شاهدنا بعضهم فى طريقنا منذ ساعة .. »

وكان الباشا يسمع هذا الكلام .. فخفق قلبه بشدة ، ولاسيما ان معظم رفاقه نساء وشيوخ لايقوون على الدفاع ، لكنه تجلد مسلما الأمر لله ..

وبعد أن سارت « العربتان » قليلا ، والرهبة مستولية على الجميع ، جمح الجواد الجديد الذى يجر عربة الباشا ، وأخذ يسير الفهقرى حتى اصطدمت العربة بصخرة هناك ، وانغرست احدى عجلاتها فى قناة على جانب الطريق ، فلم يعد اخراجها ممكنا الا رفعا بالأيدى .. فنزل الباشا من العربة مستعيذا بالله ، وكذلك نزلت فدوى ، وأخذ بخيت يساعد السائق فى رفع العجلة فاستغرق هذا وقتا غير قصير . وكانت الشمس قد غربت وساد الظلام . فأخذ سائقا « العربتين » فى الشتم والسب ، وكان الباشا يسمع السبة بأذنيه .. ولا يسعه الا ملاطفتهما واسترضاءهما بتقديم «السجاير» وغير ذلك من أنواع الملاطفة ، فلا يزدادان الا غضبا وسبا

وأما بخيت فكان قد درس طباع القوم ، وسمع كثيرا من حوادث وادى القرن ، فأخذ يتظاهر أمام السائقين بعدم الاهتمام وأخيرا ، تم اخراج العجلة .. فاستأنفت « العربتان » مسيرهما

وقد اشتد البرد ، فبالغ الباشا ومن معه فى التدثر بالعباءات والتلثم بالكوفيات ، حتى لم يعد يظهر من وجوههم الا العيون ، وكل منهم مرهف سمعه وبصره خوفا من هول ذلك الوادى وشدة رهبته فى ذلك الظلام السائد والسكون المطبق

وكان بخيت راكبا بجانب السائق فى العربة الأمامية التى بها الباشا ، فلم يمض قليل حتى سمع وقع أقدام وراء العربة .. فالتفت فاذا الرجال الذين خرجوا من ذلك البناء قد أسرعوا يريدون ادراك العربتين ، فأوعز الى السائقين أن يسرعا ، ولكن القوم أدركوا الخيل وأمسكوا بأعنتها وأوقفوها .. فصاح بهم بخيت ، وقد بدا منظره مخيفا لشدة سواد لونه ولمعان عينيه فى ضوء مصابيح « العربتين » الخافت : « ماذا تريدون ؟ .. » فأجابه أحدهم قائلا : « هاتوا ما معكم وفوزوا بأرواحكم »

فرد بخيت بصوت جهورى ، وقلب لا يهاب الموت قائلا : « ليس عندنا الا السيوف القاطعة ، والرصاصات القاتلة ، فاذهبوا لشأنكم والا جنيتم على أنفسكم .. »

فقال الرجل : « فوزوا بأرواحكم وهاتوا ما معكم فذلك خير لكم .. » وجرد سيفه ، وكذلك فعل أصحابه

فوثب بخيت من « العربة » وفى يده المسدس وأطلق منه رصاصة فى الهواء قائلا : « اننا لا نهاب سيوفكم ، وهذه نارنا تحرق أبدانكم » ..

وكان بخيت يتكلم وقلبه يخفق خوفا على من معه ، ولا سيما

فدوى .. أما السائقان ، فلأنهما مسئولان عن « العربتين » أمام أصحاب الشركة .. فقد اضطرا الى مشاركة بخيت فى الدفاع

على ان اللصوص كانوا قد علموا ان ليس فى « العربتين » من الرجال الأشداء غير هذا العبـد والسائقين ، وسرعان ما نفخ أحدهم فى صفارة معه فخرج من جوانب الطريق نفر من أمثالهم معهم السيوف والعصى والمسـدسات ، فوقع الرعب فى قلوب الجميع ، ولكن بخيتا اشتدت به النخوة والحماسـة حتى صار كمن به مس من الجنون ، والتفت الى السائقين اللذين معه وقال :

« هيا أيها الأبطال ، أذيقوا هؤلاء الأنذال كأس الوبال .. »

فاستل كل منهما خنجره وهجما معه على اللصوص ، بينما أطلق هو من مسدسه بعض الطلقات على هؤلاء .. فجرح اثنين منهم .. ولكنهم بدلا من أن يفروا ، بادلوه اطلاق الرصـاص فأصيب فى كتفه وصرخ من شـدة الألم ، ولكنه لم يكف عن الدفاع .. أما « العربتان » فان خيلهما أجفلت من صوت الطلقات فأخذت فى التقهقر والقفز ، وصارت فدوى وجداها فى خوف لا مزيد عليه ، وكذلك الباشا وزوجته فى العربة الثانية

وأخيرا تقدم بعض اللصوص فأطفأوا مصابيح « العربتين » وطلبوا الى من فيها أن يسلموا ما لديهم ، فأعطاهم الباشا بعض ما معه من المال .. ووعدهم بأكثر منه اذا كفوا عن أذاهم ، ثم جاء رفاقهم بعد أن تركوا بخيتا مضرجا فى دمائه بين حى وميت ، وبعد أن فر السائقان ، فانضموا اليهم . وأخذ الباشا وحموه

الشيخ فى استعطاف اللصوص واسترحامهم ، بينما دنا أحد اللصوص من « عربة » فدوى وأشعل عودا من الثقاب ، فرآها جالسة بجانب جدتها العجوز مرتدية ملابس السفر ، فلما رأته بالغت فى التلثم وأخذت فى البكاء والنحيب مع جدتها ، فقال لها : « اننا لن نؤذيكم اذا أعطيتمونا كل ما معكم » . فصاح زميل له كان قد لحق به وبهره جمال فدوى : « أما أنا فلا أريد الا هذه الجميلة .. » ثم مد يده وجذبها من « العربة » فسقطت على الأرض ، فصرخت جدتها .. وراح الباشا وجدها يستعطفان اللصوص ليتركوها ويأخذوا ما يشاءون ، ولكن هؤلاء لم يعبأوا باستعطافهم ، واستمروا فى جذبها على الأرض يريدون الهرب بها ، بينما أخذ بقية زملائهم فى نهب ما فى « العربة » من الأمتعة والملابس وغيرها ..

وبينما كان اللصوص يجذبون فدوى ، سمعوا وقع حوافر خيل قادمة مسرعة ، فتوقفوا عن جرها .. وظن الباشا ان القادمين من اللصوص فخارت قواه وسقط على الأرض ، وصاحت فدوى قائلة : « ويلاه .. اتركونى أيها الناس وخافوا الله » . ولم تتم كلامها حتى وصل الفرسان القادمون وصاح أحدهم : « قفوا مكانكم أيها الأنذال » . فسمعه الباشا وأدرك انه من الحراس فاشتدت عزيمته ، وكان قد همّ بالنهوض ليدافع عن فدوى . ثم سمع بعض الطلقات النارية .. ورأى اللصوص يلجأون الى الفرار ، ثم تقدم الفرسان القادمون وعددهم خمسة الى

« العربتين » وهم ملثمون (بالكوفيات) وعليهم الملابس العسكرية فطمأنوا الباشا ومن معه ، فشكرهم وتوسل اليهم أن يرافقوهم الى البقاع ، أو الى بعلبك وقال : « ان السائقين فرّا ، ونحن لا نعرف الطريق ، وقد أصيب خادمنا الأمين وهو يدافع عنا » . فبحثوا عن بخيت حتى وجدوه ملقى على الأرض ، وهو مصاب بجرح فى كتفه ، وآخر فى فخذه ولا يستطيع النهوض ، فحملوه الى احدى « العربتين » ، وركب اثنان من الفرسان فى مكان السائقين وسارا بهما ، بينما سار زملاؤهم بجانبهما

ولم يمض قليل حتى خرجوا من ذلك الوادى ، ووصلوا الى محطة الجديدة فوجدوا السائقين هناك ، فعنفهما الباشا على فرارهما ، فاعتذرا بأنهما جاءا ليبلغا ما حدث الى مأمور المحطة ليرسل من ينجدهم . ثم عاد كل منهما الى مكانه فى عربته بعد أن بدلا الخيل وأضاءا المصابيح وساقا « العربتين » ، والفرسان ما زالوا يحيطون بهما .. وسار الجميع يريدون البقاع ..

لاحظ جد فدوى ، وهو راكب بجانبها فى « العربة » ان الفارس الذى يحرسها يرتدى عباءة تحتها ملابس مدنية ، وليس عسكريا كبقية زملائه .. فلم يعبأ بذلك أول الأمر ، ثم أراد الاستفسار منه عن بعض أحوال تلك المنطقة ، ولكن الفارس لم يرد عليه ، بل أدار شكيمة جواده ، ودعا أحد زملائه وأشار اليه أن يجيب الشيخ عما يسأل عنه ، فتعجب الشيخ لذلك ، ولما سأله الفارس الثانى عما يريد ، قال له : « أريد منك أولا أن

تخبرنى لماذا لم يجبنى رفيقك الحارس الآخر ؟ .. »

فقال الحارس : « انه ياسيدى ليس من الحراس ، وكذلك نحن .. » فازداد الشيخ عجبا وقال : « اذن من تكونون ؟.. »

قال الحارس : « اننا من جند لبنان ، وكنا سائرين فى مهمة الى دمشق ، أما هو فمسافر لقيناه فى البقاع قادما من بيروت قاصدا الى دمشق أيضا ، ولما كان الليل قد اقترب وهو لا يعرف الطريق ، طلب أن يرافقنا فأجبنا طلبه ، ويظهر انه كريم النفس جدا لأنه لما سمع استنجادكم سارع الى الهجوم على اللصوص ، وأبدى شهامة وشجاعة قل مثلهما .. ثم هو رغم تعجله الذهاب الى دمشق لم يسعه الا مرافقتكم معنا الى البقاع ، مع ان هذا قد يؤخر وصوله الى دمشق يوما كاملا على الأقل »

فأعجب الشيخ بهذه الشهامة ، واعتزم متى وصلوا الى البقاع أن يخبر صهره بذلك ليوفى الرجل حقه من الشكر والثناء

وكانت فدوى جالسة بجانب جدها تسمع حكاية الفارس فأعجبتها تلك الشهامة ، وتذكرت حبيبها شفيقا فهاج بها الوجد ، وأخذت دموعها تتساقط على الرغم منها ، ولم تكن تخشى ملاحظة جديها ، لأن « العربة » كانت مظلمة من الداخل

وبينما كان الشيخ يتحدث مع ذلك الفارس العسكرى ، كان الباشا يتحدث مع الفارس العسكرى الذى يسير بجانب عربته على سبيل التسلية ، ففهم منه حكاية ذلك المسافر الشهم كذلك ، وأعجب به كل الاعجاب ، أما ذلك الفارس نفسه فكان يسير

بجواده وراء العربة الخلفية التى بها فدوى وجداها ، وهو فى شاغل عن كل تلك الأحاديث بما يجول فى خاطره من الهواجس والتأملات ، تطلعا الى دمشق التى كان يتوق الى الوصول اليها فى أسرع وقت ..

وما زالت « العربتان » سائرتين حتى سمع الباشا الفرسان يقولون : « ها قد وصلنا الى البقاع العزيزية ، وأصبحنا على مسافة أربع ساعات من بعلبك »

فقال الباشا : « أظن ان الأفضلَ أن نبيت بقية هذا الليل فى احدى القرى المجاورة ، لأن حركة « العربة » قد أضرت بجريحنا » . ثم سأل عن أقرب قرية من الطريق ، فقيل له : « ان هناك قرية على مسافة نصف ساعة » .. فهمّ بأن يأمر السائق بالمسير اليها فاذا بخيت يئن ، فسأله عن حاله ، فقال : « لم أعد أستطيع البقاء فى العربة » . فأوقفوا « العربتين » ، ونزلت فدوى وهى ملثمة ودنت من أبيها تسأله عن بخيت ، فطيب قلبها ، وبعث أحد الفرسان يسأل عن أقرب بيت فى ذلك الجوار ، فعاد وأخبره بأنه وجد بيتا كبيرا على مقربة منهم ، فساروا اليه جميعا ، وترجّل بعض الفرسان وحملوا بخيتا على أيديهم حتى اذا اقتربوا منه تقدمهم الفارس المجهول ، وهو لا يزال على جواده وسأل عن أهل ذلك البيت ، فخرج اليه رجل يرتدى ملابس سوداء لم يستطع تمييزه ، ولكنه هابه لاسترسال شعر رأسه على كتفيه وشعر لحيته على صدره ، وكان يرتدى جبة سوداء غاية فى

البساطة فظنه راهبا وقال له : « ان معنا جريحا لم يعد يستطيع الركوب فى « العربة » ، فجئنا به اليكم ، فهل تسمحون بأن يبيت عندكم الليلة وأجركم على الله .. »

فبهت الرجل برهة ، كأنه يفكر فى أمر طرق ذهنه .. ثم قال : « حسنا فليأت » ونادى قائلا : « تعال يا أحمد ساعد الضيوف فى نقل جريحهم الى هنا » . فجاء رجل يرتدى مثل ملابس ذلك الرجل ، وخف الى المساعدة فى حمل بخيت ، حتى دخلوا به البيت وأجلسوه على مقعد فى احدى الغرف ، ودخل الجميع ما عدا الجند فانهم بقوا فى الخارج

أراد الباشا الخروج للثناء على أولئك الفرسان ، ولاسيما ذلك الفارس الشهم المجهول .. لكنه شغل بتضميد جرح بخيت ، فخرج حموه الشيخ جد فدوى للقيام بذلك الواجب بالنيابة عنه ، بعد أن أشار الى فدوى وأمها بأن تدخلا احدى الغرف

وكان الفرسان العساكر قد عادوا الى خيولهم يعدون لها العلف ، ولم يبق خارج البيت الا ذلك الفارس المجهول ، فحيا الشيخ ؛ وجلس معه أمام البيت على (مصطبة) فوقها حصير ، يشرف الجالس عليها على سهل البقاع الواسع ، فأشعل كل منهما « سيجارته » وأخذا بأطراف الحديث .. وكان الفارس ما زال ملتفا بالعباءة واللثام على وجهه ، فأخذ الشيخ يثنى عليه قائلا : « لقد أسرتمونا بما أظهرتم من شهامة ، فعسى أن نستطيع مكافأتكم » ..

فقال الفارس : « اننا لم نفعل ذلك لمكافأة .. وانما فعلناه ابتغاء مرضاة الله » ولاحظ الشيخ أن لهجة الفارس مصرية ، فقال له : « لعل السيد من أهل مصر ؟ .. »

قال الفارس : « نعم ياسيدى .. »

فقال الشيخ : «وهل للسيد أقارب فى دمشق جاء لزيارتهم ؟»

قال الفارس : « كلا .. ولكن جئت لرؤية أصدقاء لى فيها »

فقال الشيخ : « هل لك أن تخبرنى عن هؤلاء الأصدقاء ، لأننا من دمشق ، ولم نتركها الا صباح اليوم .. فلعلنا نعرف عنهم شيئا ، والا فأسألك الاغضاء عن جرأتى لهذا السؤال .. »

فقال الفارس ، وقد أزاح اللثام عن وجهه تاركا الكوفية على رأسه : « العفو ياسيدى ، ليس فى سؤالك ما يوجب الاعتذار ، ولكن أصدقائى هؤلاء غرباء ، والأغلب انكم لا تعرفونهم لأنهم من مصر أيضا » ..

فقال الشيخ : « ان صهرى الذى رأيته الآن معنا قادم من مصر ، فلعله يعرف أحدا من أصدقائك .. »

قال ذلك ودخل يدعو صهره ، فجاء وهو لايزال ملثما ، وحيّا الفارس بكل لطف .. وبدأ بالاعتذار اليه عن تأخره عن شكره لانشغاله بتضميد جراح خادمه . ثم أخذ يشكر همته وغيرته ، والفارس مطرق خجلا

فقال الشيخ للباشا : « ان السيد قادم من مصر يريد دمشق لمشاهدة بعض أصدقائه من المصريين .. »

فالتفت الباشا الى الفارس ، وقال له : « ومن هم أصدقاء سيادتك ؟ .. »

قال الفارس : « هم أسرة مصرية عميدها (...) باشا » . وذكر اسم الباشا نفسه ..

ولم يتم الفارس كلامه حتى نهض الباشا واقترب منه متأملا ثم قال : « عجبا .. انني أنا هو يا سيدى .. »

فنهض الفارس وألقى بنفسه بين يدى الباشا قائلا : « مرحبا بسيدى وعمى » . وطفق يقبّل يديه ، فبهت الباشا .. ولكنه أدرك رغم ضعف النور أن الشاب الذى يكلمه هو شفيق نفسه ، فوقع فى حيرة بين الانذهال والاضطراب ، واليأس والرجاء ، ولكنه لم يستطع التوقف عن تقبيله وضمه الى صدره ، وسأله شفيق عن فدوى وبقية الأسرة ، فقال : « انهم بخير .. وسترى فدوى قريبا » ..

ثم جلسا يتحدثان عن هذا اللقاء العجيب .. وكيف انهما لم يعرف أحدهما الآخر ، لما كان فيه كل منهما من المشاغل ، ولمبالغة الباشا ومن معه فى التلثم ، وهمّ الباشا بأن يعرفه بصهره الشيخ جد فدوى، فسمع ضوضاء فى حجرة السيدات فتركهما مستأذنا ، ودخل ليرى ماذا حدث ، فرأى زوجته وزوجة عمه ، وصاحب المنزل متعانقين وهم يبكون ويقبّل بعضهم بعضا ، فأخذه العجب ، ثم بادرته زوجة عمه قائلة : « ولدى .. ولدى عبد الرحمن .. » ثم أغمى عليها ، فأسرعت زوجة صاحب المنزل

وجاءت بالماء ورشتها به حتى أفاقت ، ففهم الباشا ان صاحب المنزل هو أخ زوجته الذى كان مفقودا ، ثم أمعن النظر فيه ، فاذا هو ابراهيم والد شفيق ، فوقف مبهوتا ولحيته ترقص على صدره من شدة التأثر لغرابة هذا اللقاء ، وتساقطت عبراته ولم يعد يعلم ماذا يقول ..

فقالت له زوجته : « هذا هو شقيقى الذى لم أره منذ خمس وعشرين سنة ، فنحمد الله على لقائه .. » فأخذ الباشا يهنئهم بسلامة العودة ، وحدثته نفسه بأن يخبرهم بأمر شفيق ، ولكنه خشى على أبويه أن يموتا من شدة الفرح

وأخيرا قال ابراهيم : « آه من غدر الدهر الذى هدّ كيانى ونغّص عيشى ، أما كان يحسن أن يتم شمل اجتماعنا بولدى شفيق ؟ .. »

فأخذ الباشا يخفف عنه قائلا : « ان الله قادر على أن يجمعكما به ، فاستأنس الآن بأختك وأبيك ، وها أنذا ذاهب لأدعو لك أباك .. » وخرج.. فالتقى بصهره الشيخ قبل وصوله الى مكانه ، وسأله عن سبب تلك الضوضاء ، فقصّ عليه الخبر بأسلوب لطيف بحيث لا يتأثر ، فدخل الشيخ وألقى بنفسه على ولده ، وقبّله حتى أغمى عليه ، فرشوه بالماء حتى أفاق ، وجلس الجميع يهنّى بعضهم بعضا .. أما الباشا فخرج الى شفيق والتأثر ظاهر على وجهه ، فسأله شفيق عن سبب الضوضاء ، وكان قد أشفق على فدوى لئلا تكون قد أصيبت بسوء ، فقال الباشا : « ليس

هناك الا الخير يا ولدى ، ولكنى أسألك أن تمهلنى قليلا لآتيك بالخبر اليقين » . ثم دخل الباشا الغرفة التى بها الشيخان وولداهما وبنتهما وحفيدتهما ، فوجدهم جميعا يندبون شفيقا ، فوقف فى وسطهم قائلا : « ماذا ينقصكم الآن حتى يتم عقد اجتماعكم ؟.. » فصاحوا بصوت واحد : « شفيق .. شفيق .. »

وكان بخيت فى غرفة قريبة ، فلما سمع اسم (شفيق) هب من فراشه كأنه ليس به مرض وجاء ماشيا ، وقد نسى آلامه ودخل متلهفا يقول : « أين سيدى شفيق ؟ .. » وجاء من الجهة الأخرى الخادم أحمد بمثل تلك اللهفة

فقال الباشا : « ما الذى أتى بك من فراشك يا بخيت ؟ .. »

قال بخيت : « والله ياسيدى ان اسم (شفيق) كاف ليبعثنى من القبر .. وليس من الفراش ، فأين هو ؟ .. »

فلما سمعت فدوى كلام بخيت علمت انه يتكلم بلسان حالها ، فهاجت عواطفها وأخذت فى البكاء ، فعاد بخيت يسأل : « أين سيدى شفيق ؟ .. أليس هو هنا ؟ .. »

فقال الباشا : « ماذا تصنعون اذا جئتكم به الآن ؟ .. »

فقال بخيت : « أما أنا ، فأعطيك روحى ياسيدى »

وقال الخادم أحمد : « وروحى أيضا فداء لسيدى وحبيبى » . فاشتد بكاء فدوى ، ثم قال عبد الرحمن وهو يمسح دموعه ، وزوجته تبكى بجانبه : « أرغب اليك يا سيادة الباشا ألا تهيج أشجاننا أكثر من ذلك .. »

فقال الباشا : « امهلونى بضع دقائق فأخبركم الخبر اليقين » .
قال ذلك وخرج الى حيث كان شفيق ينتظره ، وقال له : « هل تذكر انى سألتك عندما قابلتك فى مصر قبل سفرك الى السودان عن أبيك ، فلم تجبنى جوابا صريحا ، ولكنك ذكرت انك ستكتب اليه فى لندن ليكتب الىّ ؛ ولما سألتك عن وطنه ومذهبه لم تجبنى جوابا قاطعا ، فهل علمت الآن وطن أبيك ودينه ؟ .. »

فتأوه شفيق وأراد الاجابة فسبقته العبرات ، ثم تنهد وقال : « آه ياسيدى ، لا تذكّرنى بمصائبى لأنى لا أعلم أين مقر والدىّ الآن ، وقد سألت عنهما فى مصر ، فعلمت انهما غادراها الى حيث لا يعلم أحد ، ثم علمت انكم فى الشام فلحقت بكم ، وما زلت أسأل حتى علمت انكم فى دمشق ، فسرت برفقة هؤلاء الجند اللبنانيين ، حتى التقيت بكم وكنت أود أن أعرف منكم شيئا عن والدىّ .. » فقال الباشا : « لم يكن علمى عنهما أكثر من علمك انت حتى هذه الليلة ، بل حتى هذه الساعة .. »

فقال شفيق بلهفة : « وهل عرفت عنهما شيئا الآن ؟ .. »

قال الباشا : « نعم .. عرفت انهما على مسافة قريبة من هنا »

فنهض شفيق مبغوتا وقال : « قل بالله أين مقرهما ؟ .. »

قال الباشا : « هما ياولدى فى مكان قريب من هنا ، وفى الصباح أبعث معك بمن يهديك اليهما .. »

فصاح شفيق : « كيف أنتظر الى الغد ؟.. يجب أن أسير اليهما فى هذه اللحظة ، فأرشدنى اليهما ياسيدى ولك الفضل .. »

فضحك الباشا وقال : « انهما فى هذا البيت ياولدى .. »

فقفز شفيق من شدة الفرح قائلا : « فى هذا البيت ؟ .. هل أنا فى حلم أم فى يقظة ؟ .. أم أنت تمزح ؟ .. »

فقال الباشا : « بل انت فى يقظة ياولدى ، وانه لأعجب لقاء لم يسمع بمثله أحد من قبل .. »

ثم حكى له الحكاية ، فأراد شفيق الهجوم على الحجرة .. فمنعه الباشا قائلا : « كان يمكننى ان اخبرهم عنك ، ولكننى أشفقت عليهم من سلطان العواطف .. اذ قد يترتب على شدة فرحهم بلقائك ضرر جسيم ، فتعال ورائى وقف بالباب ، وأنا أدخل قبلك وأنبئهم بمجيئك .. »

سار الباشا وشفيق فى اثره حتى وصلا الى باب الحجرة ، فدخل الباشا وأغلق الباب وراءه ، والتفت الى ابراهيم وزوجته قائلا : « انزعا عنكما ثياب الحداد ، لأن وقت فرحكما قد حان ، بل هو وقت فرحنا جميعا .. »

فبهت الجميع وأصغوا لسماع تتمة كلام الباشا ، فاذا به قد تحول نحو الباب ففتحه ، وخرج .. وعاد ممسكا شفيقا من يده

فلما دخل شفيق بهت الجميع وجعلوا ينظرون اليه ، وهم لايعلمون .. هل فى حلم هم ، أم فى يقظة ؟.. ولم يكن الباشا أقل ذهولا منهم ، فاستولى السكوت على جميع الحاضرين لحظة ، لم يكن فيها قلب غير مختلج ، ولا ركبتان غير مرتجفتين ، ولا عينان غير شاخصتين ، وكان أكثر الحاضرين ذهولا ذائك

الوالدان اللذان اختارا التنسك ولبس الحداد ، والابتعاد عن العالم بعد فراق ولدهما الوحيـد الذى قضيا العمر فى تربيته وتثقيفه . أما فدوى التى قاست الأهوال العظام ، وهى غضـة العود ، لطيفة المزاج ، لم تكد تفتح عينيها حتى داهمها الحب ، بل الوجد فأخذ بمجامع قلبها ، ثم ابتعد عنها حبيبها الذى لم يكن لديها أعز منه فى هذا العالم ، فلا تسل عن حالها حينما شاهدت حبيبها أمامها بعد أن يئست من حياته

وأما شفيق ذلك الشاب الذى ربى فى مهد العز ، وعرف قلبه الحب يافعا .. فقاده حب العلا ، وارضاء سالبة لبه الى تجشم الأسفار الطويلة ، واحتمال الأخطـار فى أقصى السودان ، فلا عجب ان كان ذهوله أعظم وأشد حين دخل الغرفة ، فاذا فيها حبيبة قلبه ، ووالداه اللذان زهدا فى الدنيا يأسا من حياته ، وآثرا التنسك على الرفاهية بسببه ..

وما أفاق من ذهوله ، حتى أخـذ بيدى أبويه يقبلهما وهما يقبلانه ، والجميع يبكون من شدة الفرح ، ولا سيما فدوى ، التى كانت أشد الجميع تأثرا ، ولكن الحياء حال بينها وبين اظهار عواطفها .. على انها نسيت نفسها ، وأخذت تصيح قائلة : « شفيق .. شفيق هنا ؟.. هل أنت على قيد الحياة .. آه يا مهجة فؤادى .. وهل أنا فى حلم أم فى يقظة ؟ .. »

أما شفيق فلم يكن يدرى من يخاطب ، ولا الى من ينظر ، ولم تكن تسمع فى تلك الغرفة الا شهيقا وبكاء يمازجه السرور

وأما بخيت واحمد فأخـذا يرقصان ، ويقبلان يدى شفيق وكتفيه وصدره وظهره ووجهه ، ويقولان : « الحمد لله على سلامتك يا سيدى .. »

ثم نهض الشيخ الكبير وتقـدم الى حفيـده وقبله بدموع الفرح ، وكذلك فعلت زوجته وزوجة الباشا ، ثم انتصب الشيخ واقفا ، وقد امتلأت عيناه بدموع الفرح ، وقال : « هلمّ بنا يا أولادى نسجد شكرا لله تعالى على هذه المنة العظيمة التى وهبنا اياها ، بأن جمع شتاتنا من أقاصى العالم » . فشـاركه الجميع فى ذلك ، ثم جلسوا يقصون أقاصيصهم . وكانت حكاية شفيق أغرب الحكايات ، وما زالوا كذلك الى الصباح .. فاتفقوا جميعا على المسير الى مدينـة بعلبك يقضون فيها ذلك النهار ، ويشاهدون قلعتها المشهورة العجيبة البناء ، ثم يسافرون معا الى بيروت .. ثم يرحلون الى مصر

ظل الباشا طوال ليلته يفكر فى أمر هذا اللقاء العجيب ، كما يفكر فى أمر عزيز وما قد يترتب على مجيئه فى الغد ، وأخيرا قرر فى نفسه ان عزيزا لا يستحق الاهتمـام بأمره لأنه خائن ذميم ، ومهما يصبه فلا أسف عليه ، ولا سيما ان أملاكه كلها خرجت من يده ، وآلت اليه هو بمقتضى ذلك الصك

وفى الصباح خرج شفيق الى الفرسان الذين كانوا معه ، فأثنى على همنهم وكافأهم مكافأة حسنة ، ثم ركب مع سـائر أفراد الأسرة فى « العربتين » ، وسـاروا قاصدين مدينـة بعلبك ،

فوصلوا اليها فى الضحى ونزلوا بفندق هناك . ثم تجولوا لمشاهدة آثارها ، وقضوا بقية ذلك النهار فى التنقل من مكان الى آخر . يسرحون الطرف فى منـاظر تلك السهول الخصبة التى كساها الربيع حلة خضراء ، وفى المساء عادوا مارين بحجر الحبلى الهائل المعد للبناء ، ولا يستطيع حمله أقل من ستة آلاف رجل ، كما شاهدوا فيها أحجارا كثيرة مثله ..

أما بخيت فظل راقدا فى سريره وقاية لجراحه ، فلمـا كان الأصيل سمع صوت رجل يعرفه ، ثم أدرك انه صوت عزيز فخفق قلبه خفوق الفرح .. ونهض لكى يخبره بمجىء شفيق ولقـاء سائر أفراد الأسرة بخير

ودخل عزيز حجرة بخيت وهو لايدرى انه فيها ، فلمـا وقع نظره عليه تعجب من رقاده فى منتصف النهار ، وسأله عن سبب ذلك ، فأخبره انه أصيب بجرح من رصـاص اللصوص الذين سطوا عليهم فى وادى القرن

فبهت عزيز وقال : «وكيف نجوتم، وهل أصاب فدوى سوء ؟ »

فضحك بخيت وقال : « نعم .. اننا وصلنا الى أشد الخطر ، وقد نجونا بهمة ذلك البطل الصنديد ، والشهم المجيد .. »

قال عزيز وقد خفق قلبه جزعا : « ومن هو هذا البطل ؟.. »

قال بخيت : «لا أقول لك من هو حتى تسألنى ذلك بالحاح».

فاغتاظ عزيز وصرخ قائلا : « قل بالله .. قل .. »

قال بخيت : « هو سيدى شفيق »

فوثب عزيز من فوق كرسيه ، وقد امتقع لونه وارتعدت فرائصه ، وقال : « هل صحيح ذلك يا بخيت ؟ .. »

قال بخيت : « نعم وحياة سيدى شفيق ، انى لم أقل الا الصدق .. ومع ذلك تمهل ريثما ترى جميع أفراد الأسرة آتين معا ، وبينهم والدا شفيق ، وأخبرك بشىء آخر أظنه لايسرك ، وهو : ان شفيقا ابن خال فدوى .. »

فاسودت الدنيا فى عينى عزيز ، ولم يعرف .. هل يصدق كلام بخيت أم يكذبه .. فلبث ينتظر عودة الباشا ، ثم دخل غرفة تطل على الشارع ، وجلس بجوار النافذة

ولما حان وقت الغروب رأى جمهورا كبيرا قادما فحقق نظره فاذا شفيق يسير بجانب فدوى يتحادثان ، وقد حمل كل منهما باقة من الأزهار وهما فى غاية السرور ، والباشا يسير بجانب شفيق فرحا .. فتحقق لديه ان فدوى قد أفلتت من يده ، ولم يعد يمكنه أن يظفر بها .. ثم تذكر الصك الذى أعطاه للباشا فاشتعل قلبه ندما ، وأحس كأنما صب عليه ماء يغلى ، ثم غمر فى ماء بارد.. ثم سمع وقع أقدامهم على السلم ، فلم يستطع أن يمنع نفسه من الارتعاش ، فذهب الى سريره وهو ينتفض من البرد والقشعريرة ، وأصابته حمى شديدة أخذت تزداد حتى بلغت درجة الخطر ، فبادر صاحب الفندق باستدعاء الأطباء الموجودين فى مدينة بعلبك فعقدوا اجتماعا طبيا ، وقرروا انه فى حالة خطيرة

وشاع الخبر فى الفندق ، وكان الباشا وأفراد أسرته قد علموا

من بخيت بمجيء عزيز ، فلما سمعوا بشدة مرضـه سارعوا لمشاهدته .. فلم يأذن لهم الأطباء بالدخول بدعوى ان المريض فى حالة لا تسمح لأحد بالدخول عليه .. فلما علم شفيق بذلك ، حزن لمرضه خشية أن يقضى عليه المرض وهو فى بلاد غريبة .. وأما أحمد وبخيت ، فكانا مسرورين بذلك لأنهما اتفقا على الانتقام من عزيز ، لما عرفا عنه من دسائسه وخيانته . وأما الباشا فبقى صامتا يراجع فى ذاكرته حكاية الصك ، وما قاساه ذلك الشاب من عناء الأسفار والذل ، وكيف كانت نهاية أمره

على ان شفيق كان أشد الجميع أسفا لما أصاب صديقه القديم ، ولاسيما انه علم ان سبب مرضه انما هو الفشل ، وخيبة الأمل ، فلم يذق طعاما فى ذلك المساء أسفا عليه ، وقضى الجميع معظم الليل فى الحديث عن عزيز ومرضه .. وفيما هما فى ذلك اذ جاءهم خادم الفندق يقول : « ان المريض يود مقابلتكم غير مبال بوصية الطبيب » . فخفّ شفيق والباشا الى غرفته ، ولمـا دخلا وقع نظرهما عليه وهو متوسد فراشه ، وقد علا وجهه الاحمرار من شدة الحمى عليه . فلما سمع وقع خطواتهما حوّل وجهه نحوهما ، وامتلأت عيناه بالدموع ، ولم يكن يستطيع الحركة ، فأشار اليهما بأهداب عينيه فاقتربا منه باكيين ، ووقفا بجانب سريره صامتين لكى لا يزعجاه بالكلام . وكان الطبيب بالغرفة ساهرا من أجله ، فأشار عزيز اليه أن يخرج قليلا . فخرج ، ولم يبق فى الغرفة سواه ، والباشـا ، وشفيق .. فأومأ اليهما وقد ضـاق

تنفسه من شدة الحمى ، أن يجلسا .. فأخذ كل منهما كرسيا وجلسا أمام السرير ينظران اليه نظرة الأسف ، ولاسيما شفيق .. فانه نسى كل سيئاته وكاد قلبه ينفطر شفقة عليه

وبعد بضع دقائق أعاد عزيز نظره اليهما ، وهو يريد أن يتكلم ، فلم يستطع .. فسأله شفيق : « هل تحتاج الى شيء ؟ .. » فأشار اليه بيده أن ينتظر ريثما يهدأ روعه فيخاطبه ، ثم مد يده الى شفيق ، فمد شفيق يده اليه وأمسكه فأحس بارتجاف شديد ، ومد يده الأخرى فأمسكه شفيق باليد الأخرى ، فاستند عزيز على يدى شفيق يريد الجلوس فلم يستطع ، فوقف الباشا وأسند ظهره ، ثم أجلساه وجعلا الوسائد وراء ظهره ، فجلس وهو لايزال قابضا على يدى شفيق ، ثم جذبه اليه حتى دنا منه فضمه الى صدره ، وجعل يقبله ويبكى بكاء الطفل ، والدموع تتساقط على خديه كالمطر ، ولم يكن شفيق أقل منه بكاء وقد أدرك انه يريد استغفاره عما فرط منه .. فقال له : « طب نفسا ياعزيزى ، انى غافر لك كل ما تقدم من ذنبك .. »

فتكلم عزيز عند ذلك ، وقال : « انى مستوجب لأكثر من الموت ، لأن السماء قد سخطت عليّ لجنايتى ودناءتى ، وكأن الله لم يرد أن تدنس يدك بقتلى فقتلنى بالمرض .. فأتوسل اليك ، أن تشفق على دموعى وضعفى وتصفح عنى فانى لا أستحق أقل من القتل ، وعما قليل أفارق هذه الدنيا ، ولم أشأ مفارقتها قبل أن أستغفرك أيها الشهم الكريم ، لأنى قد أخطأت فى حقك ،

وأذنبت ذنبا لا يغتفر ، وكم أردت بك السوء فجازيتنى بالصفح ، وقد انتقم الله لك منى انتقاما عادلا .. »

فلم يعد شفيق يتمالك الكف عن البكاء ، ولكنه همّ بعزيز وقبله مرارا وقال له : « ان الله يغفر الذنوب جميعا ياعزيزى ، وكل شيء بقضاء منه سبحانه وتعالى ، وقد صفحت عنك ، وأطلب الى الله تعالى أن ينقذك من هذا المرض .. »

فصاح عزيز وقد أنهكه المرض ، قائلا : « لا .. لا .. انى لا أستحق الحياة ، ولم يعد يحلو لى المقام فى هذه الدنيا لأنى دنستها بشرورى ، وارتكبت فيها الخيانة والغدر .. أجل انى خائن غادر ، وقد كرهت حياتى الرديئة المدنسة بالشرور » ثم التفت الى الباشا قائلا : « وانت أيها الشيخ الجليل ، اصفح عن شرورى ، واسأل فدوى أن تعفو عنى لما سببت لها من الشقاء بخيانتى ، فكم نغصت عيشها وحاولت أذاها ، وهى ثابتة على وداد من لا أستحق أن ألثم حذاءه .. آه لو أراها فأقبّل نعليها ، وأستغفرها قبل موتى ، لأنى أشعر بثقل آثامى نحوها ونحو حبيبها .. آه انى أشعر بأثقال أعظم مما أحتمل ، وها أنذا أرى الأبالسة قادمة لاختطاف روحى الشقية والذهاب بها الى الجحيم»

فقال الباشا : « شفاك الله ياولدى ، ولا أراك مكروها .. وما دمت قد شعرت بخطئك فان الله سيرفع عنك هذه الشدة ، لأنه يقبل التائبين » . فقال عزيز :

ــ ان ذنوبى أكثر من أن تغتفر ، والموت أحب الىّ من هذه

الحياة .. ولم تعد عيناى تستحق النظر الى خيال تلك الفتاة الطاهرة العفيفة الودودة البريئة من كل عيب ، ولا الى هذا الشهم الفاضل الشريف الكريم الأخلاق

قال ذلك وألقى بنفسه على السرير وغاب عن الصواب ، فأسرع شفيق باستدعاء الطبيب ، فدخل وأمر بوضع الثلج على رأسه ، ثم جس نبضه وهزّ رأسه أسفا ، فاشتد قلق شفيق والباشا ولم يعد فى امكانهما مبارحة الغرفة ، ولكن الطبيب طلب اليهما أن يخرجا قليلا ففعلا .. فاذا بفدوى وسائر أفراد الأسرة فى انتظارهما ، وما علموا باشتداد الخطر على عزيز حتى أخذتهم الشفقة به ، وأسفوا عليه كثيرا

مضى الليل دون أن يناموا الا يسيرا ، ثم بكّر شفيق فى الصباح الى غرفة عزيز فقيل له : « انه راقد فى الفراش وقد كلله العرق » .. فاستبشر بزوال الحمى ، وعاد فأخبر الأسرة بما حدث .

أما فدوى فكانت تعجب لشهامة حبيبها وكرم أخلاقه ، وتود لو شفى عزيز اكراما لشفيق لأنها رأته آسفا عليه كثيرا

ولما كان الضحى ، جاءهم خادم الفندق يدعوهم الى غرفة عزيز ، فذهبوا اليه فاذا هو فى السرير وقد صفا لون بشرته ، فدخل شفيق والباشا فقال لهما : « هل يأذن لى سيدى بنظرة قبل الموت من تلك العذراء الطاهرة ولو من وراء اللثام ، لعلها منى رأت حالتى تعفو عنى ، فان الله يستجيب دعاء الطاهرين .. »

فبعث الباشا الى فدوى فحضرت ملثمة ومعها والدتها وجداها ، فلما وقع نظره عليها بكى وقال : « اليك أتوسل أيتها الحورية النقية ان تصفحى عن زلتى وتغفرى ذنبى ، أنا الخائن الغادر الكاذب .. وها أنا ذا مفارق هذا العالم المدنس بشرورى قريبا ، فأطلب الى الله بهذا اللسان المعترف بالذنب ، وهذا القلب الشقى بالحب ، أن يتم زواجك بهـذا الشهم الذى يليق بك .. وان يحفظكما سـعيدين راتعين فى الرغد والهناء ، لكى تنسيا ما كابدتماه بسببى من المتاعب والعذاب »

قال عزيز ذلك ، وأخذ يجهش بالبكاء حتى كاد يشرق بدموعه

أما فدوى فلم تنبس ببنت شـفة ، ولكنها تأثرت من تلك العبارات كثيرا حتى بكت .. وصفحت عما تحملته بسبب عزيز

وقال له الباشا : « انك ياولدى قد فطرت قلوبنا بتوبتك وندمك ، ونحن نود شفاءك من كل قلوبنا ، وأنا واثق ان ولدى شفيقا لايريد لك الا الخير .. نسأل الله ان يشفيك »

فهمّ شفيق بعزيز وقبله قائلا : « ان الله قادر على أن يشفيك ، وأعاهدك على ألا أعاملك الا معاملة الأخ .. اذ قد نسيت كل ما جنيته ، وما هى الا هفوات يرتكبها بنو الانسان لضعفهم ، وجلّ من لايخطىء »

وبينما هم فى الحديث ، جاء الطبيب وفحصه ، ثم ابتسم ... فاستبشر الجميع بزوال الخطر عنه وشكروا الله ، ثم قال لهم الطبيب : « ان المريض يحتاج الى الراحة الآن ، فلو ترك مدة

ساعة ، نهض بعدها معافى ان شاء الله .. » ، فخرجوا جميعهم من الغرفة فرحين وقاموا بزيارته بعد الغداء .. فاذا هو جالس فى الفراش ، وعلى وجهه علامات الصحة ، وقد زالت عنه الحمى ، وما زال فى طريق الشفاء يوما بعد يوم حتى عوفى تماما بعد ثلاثة أيام ..

وزاره شفيق ، وهنأه بسلامة الشفاء .. فقال عزيز : « انى لا أستطيع النظر الى وجهك ياصديقى ، حتى تؤكد لى صفحك عنى » .. فقبله شفيق ، وأقسم له بشرفه انه قد صفح عنه .. فقبله عزيز ونادى الباشا فحضر ، فقبل يده قائلا : « انى أكون سعيدا اذا قبلتمونى خادما فى ركابكم »

فقال الباشا : « العفو ياولدى .. »

فقال شفيق لعزيز : « انك ستكون معنا أخا وصديقا ، وقد علمت بأمر الصك الذى كتبته لعمى الباشا ولا حاجة لنا به ، وها أنذا أتقدم الى سيادة الباشا أن يتكرم باعادته اليك لتعيش بمالك ، فأنت أولى به .. أما نحن فاننا فى سعة من رزق الله »

فصاح عزيز قائلا : « كلا .. كلا .. انى لا أستحق قرشا واحدا من هذا المال ، وحسبى انى بقيت حيا بعد كثرة ذنوبى ، وهذا المال حق شرعى لكم .. »

فابتسم شفيق وأخذ الصك من يد الباشا ودفعه الى عزيز ، فلم يرض أن يتسلمه ، وألح عليه أن يبقيه معه .. فقد تنازل عن أمواله كلها له ، وهو لايريد منها أكثر من سد الرمق ، فأبى شفيق

ذلك ، ولما لم يقبل عزيز استلام الصك مزقه شفيق بين يديه ، ثم أحرقه.. فأعجب الجميع بتلك الشهامة ، ولاسيما عزيز الذىأصبح أسيراً له طوع أمره ، ثم قال : « سواء أردتم ، أم لم تريدوا ، فلا أقبل مفارقتكم بعد الآن ، وانى أعد نفسى خادما لكم »

فقال الباشا : « اذا أردت البقاء معنا ، فانك تكون لنا ابنا »

وقال له شفيق : « انت أخى بعهد الله .. والله غفار الذنوب »

أما بخيت فعاد بعد شفاء عزيز الى حب الانتقام منه ، اذ تذكر سابق خياناته .. وقد اغتاظ حين رأى شفيقا يمزق الصك ، ولكنه سحر بشهامته ونظر الى عزيز قائلا : « انظر ياعزيز .. انك والله لا تستحق حسب ما أرى أقل من الصلب ، ولكن شهامة هذا البطل جعلته يعفو عنك ، ونحن كذلك لأن أمره مطاع ، والأمر له ولسيدى الباشا .. ولكننى لا أنسى أعمالك ، وذلك الكتاب الذى بعثت به ، بل تلك الكتب التى سببت الشقاء لسيدتى فدوى ، ولكن .. » . فابتدره احمد الخادم ، وقال : « هل تذكر يوم رافقته الى الاسكندرية .. و ... »

فقاطعه شفيق قائلا : « كفى ما قلتماه ، واعلما ان من يريد الأذى لأخى عزيز ، فقد أراده لى .. ولا أقول أكثر من ذلك » .

فقال الاثنان معا : « انه سيدنا ومولانا ، والأمر أمره بعد أمرك»

ومكث الجميع فى مدينة بعلبك يوما آخر ، ثم ساروا الى بيروت ، ومنها الى مصر .. وحينما دخلوا المدينة نزلوا ببيت الباشا ، وكانوا قد أعدوا فيه سائر وسائل الزينة ..

وفى ليلة وصولهم قالت سعدى لزوجها ابراهيم : « هل تذكر كلامى لك فى لندن عن زواج ولدنا شفيق باحـدى الفتيـات الغنيات فى مصر ، فلم ترض .. » . قال ابراهيم : « نعم .. »

قالت سعدى ; « هى فدوى التى كنت أعنيها .. »

فقال ابراهيم : « ألم أقل لك : انى لا أزوجه الا بواحدة من أقاربى .. وها هو ذا لن يتزوج الا ابنة عمته ، فسبحان مدبر الأمور وموفق الجماعات .. »

واحتفل الباشا احتفالا شائقا بزفاف ابنته فدوى الى شفيق ، دعا اليه عددا كبيرا من أعيان القاهرة وكبرائها . وعاشت الأسرة كلها بعد ذلك فى رغد وسعادة ، الى أن قضى الله بما شاء ..

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

العدد القادم

من روايات تاريخ الإسلام

المملوك الشارد

لجرجي زيدان

ترقبه أول أبريل ٨٥

Bibliotheca Alexandrina
0405016